ردمد ٣٥١٥-١٦٥٨
ISSN.١٦٥٨-٣٥١٥
رقم الإيداع ١٤٢٨/٢١٩٠


بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد وشروط النشر

مجلة تبيان للدراسات القرآنية مجلة دورية تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه. وتعنى بالبحوث العلمية، وفق الأمور الآتية:

- أن يكون البحث متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- أن تتحقق له السلامة اللغوية.
- مراعاة علامات الترقيم.
- ألا يكون قد سبق نشره.
- ألا يكون مستلاًّ من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
- توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً، وتضبط الحواشي آليا لا يدوياً .
- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث.
- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط الملحق في مكانها المناسب.
- ترفق جميع الصور والرسوم المتعلقة بالبحث واضحة جلية.
- ألا تزيد صفحات البحث عن ثمانين صفحة (A٤) ولا تقل عن عشرين صفحة.
- أن يكون خط الأصل (١٨) وخط الهامش (١٤)، ونوع الخط (Arabic Traditional).
- أن تكون هوامش الصفحة من الأعلى والأسفل واليسار ٢,٥سم ومن اليمين ٣,٥سم.
- تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة

المصحف الشريف .

- يرفق الباحث ثلاث نسخ مطبوعة، مع ملخص لا يزيد على صفحة واحدة.
- تُحكَّم البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل.
- تُعاد البحوث معدلة على قرص حاسوبي.
- لا تعاد البحوث والدراسات إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- للمجلة الحق في نشر البحث على الموقع الإلكتروني للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بعد إجازته للنشر.
- أن تكون المراسلات عبر البريد الإلكتروني.
- يُعطى الباحث نسختين من المجلة وخمس مستلات من بحثه.

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم

رئيس هيئة التحرير على النحو التالي:

المملكة العربية السعودية – الرياض

ص. ب: ١٧٩٩٩ الرياض: ١١٤٩٤

هاتف وناسوخ ٢٥٨٢٧٠٥

البريد الإلكتروني: **quranmag@gmail.com**

عنوان الجمعية

ص – ب: ١٧٩٩٩ – الرياض – ١١٤٩٤ هاتف: ٢٥٨٢٦٩٥ – ٢٥٨٢٧٠٥

موقع الجمعية

www.alquran.org.sa

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحرير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه وبعد

تقدم هيئة تحرير مجلة «تبيان» مجلة الدراسات القرآنية الصادرة عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه «تبيان» عددها الثالث عشر وهو العدد الجديد في مادته، وعنوانه، وأعضاء هيئة تحرير المجلة .

فقد تضمن هذا العدد سبع دراسات متنوعة الموضوعات تهدف إلى تعميق الدراسات وتأصيلها .

حيث تناولت الدفاع عن القرآن الكريم ورد شبه الطاعنين من مستشرقين ومستغربين، ولأهمية هذا الجانب أخذت تزداد العناية به ليصبح علماً مستقلاً من علوم القرآن الكريم ومباحثه المتنوعة ليحظى بعنوان «**علم الانتصار للقرآن الكريم**» واشتمل العدد على **مداخل التفسير عند المفسرين دراسة تحليلية تأصيلية** لهذا الموضوع .وتناولت الدراسات الموضوعية موضوعاً مهماً ومشوقاً في بابه حيث جاءت العناية ببيان «**صفات النبي صلى الله عليه وسلم من خلال سورة الأحزاب**» وما عرضته من جوانب من حياة وصفات النبي صلى الله عليه وسلم لتجلو هذا الموضوع وتبسطه أمام القارئ الكريم .كما كان «**التدرج في الدعوة في خطاب موسى عليه السلام مع فرعون في ضوء القرآن الكريم أنموذجاً**» يحكي مثالاً يحاكى ويُسار على منواله في دعوة عباد الله إلى الهداية لدين الله.

وللتحقيق نصيبه في هذا العدد بدراسة وتحقيق أحد كتب التجويد

المعنية بتحديد «**مخارج الحروف وبيان أجناسها وتوصيف أجراسها**».

وتناول عدد المجلة كشف جهد الفراء في «**العناية برسم المصحف من خلال كتابه معاني القرآن**» وإبرازه.

كما أفرد العدد بحثاً لبيان «**موقف المخالفين من القراءات القرآنية**» وبيان وجه الحق في هذا الموضوع الدقيق، وللقارئ أن يتنقل بين هذه الموضوعات المتنوعة التي يقدمها له هذا العدد من المجلة وباحثيها .وكم نسعد بأن نر أونسمع رأيه ونقده فيها لنسعى معه لما هو أفضل وأكمل .

وقد تجدد العنوان للمجلة ليكون أيسر وأخصر وتكون به أميز وأكثر تعبيراً عن الجمعية التي تصدر عنها وتعبر عن نشاطها فكان عنوان الجمعية والمجلة واحداً «**تبيان**»، ونكرر الترحيب «**بأعضاء هيئة التحرير**» الذين انضموا للمجلة ،متطلعين لعطائهم وجديد أفكارهم في رقي المجلة وتطورها .

مع تكرار الشكر والتقدير «لأعضاء هيئة التحرير السابقين» على مابذلوه وأضافوه للمجلة من جهد وفكر ، ولاتزال المجلة وستظل تذكر وتشكر جهدهم وتتطلع إلى المزيد منه عطاء وتواصلاً .

والشكر موصول لكل من «أسهم في دعم المجلة والجمعية» لتحقيق أهدافها وخدمة أعضائها .

وفق الله الجميع للحق وأعانهم على الخير.

رئيس هيئة تحرير مجلة تبيان
للدراسات القرآنية
أ . د / محمد بن عبد الرحمن الشايع

المحتويات

علم الانتصار للقرآن الكريم وموقعه بين مباحث علوم القرآن الكريم

إعداد

د. عبدالرحيم خيرالله عمر الشريف

د. عبدالرحيم خيرالله عمر الشريف

- أستاذ مشارك بجامعة الزرقاء بالأردن.
- حصل على درجة الدكتوراه: جامعة الزرقاء بالأردن بأطروحته: القرآن الكريم في مواقع الإنترنت العربية: دراسة تحليلية نقدية.
- حصل على درجة الماجستير من جامعة الزرقاء بالأردن بأطروحته: الخطاب الدعوي للأنبياء والدعاة في القرآن الكريم: دراسة موضوعية.

الملخص

لم يتعرض القرآن الكريم في زمن من الأزمان لمثل هذه الحملة الواسعة والمنظمة بهدف التأكيد على وجود أخطاء فيه، والتدليل على عدم قطعية ثبوته وسلامته من التحريف والتناقض.

لذا يجب على علماء المسلمين تجميع جهودهم وتنظيمها لبيان الحقيقة والدفاع عن القرآن الكريم، وعدم الاقتصار على الجهود الفردية المشتتة للدفاع عنه، والانتصار له. فجاءت هذه الدراسة لتذكر بأهمية تأسيس علم الانتصار للقرآن الكريم، وإيلائه مزيداً من الاهتمام في هذا الزمن؛ لكونه علماً رئيساً من علوم القرآن الكريم.

واشتملت الدراسة على مقدمة ومبحثين، المبحث الأول: تعريف علم الانتصار للقرآن وأهميته، والمبحث الثاني: موقع علم الانتصار للقرآن بين باقي علوم القرآن الكريم، وختمت الدراسة ببيان أبرز النتائج والتوصيات.

Abstract

The Science of Defending the Holy Quran and its Status among the Sciences of the Holy Quran

The Holy Quran has become a target for a large and organised campaign that aims to provide evidence for the argument that it involves errors, and to demonstrate that authenticity and lack of alteration and contradiction is unsubstantiated. Therefore, Muslim scholars should combine and systematize their efforts to demonstrate the ultimate truth of the Holy Quran, and to defend it since the small number of individual and separate endeavours to handle this task is still insufficient.

Accordingly, this study aims to bring to mind the importance of the science of defending the Holy Quran, and to draw more attention to it in this age.

This study involves an introduction and two sections: the first section deals with the definition of the science of defending the Holy Quran and its importance. The second section deals with the status of the science of defending the Holy Quran among the other sciences of the Holy Quran.

The study ends with a conclusion that highlights the most significant results, implications, and recommendation.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالقرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة وأساس عقيدة وشريعة المستنيرين بنوره، ودستور نظام حياتهم، متفرداً بأنه الكتاب السماوي الوحيد الذي يحمل فيه دليل إلهية مصدره وسلامته من التحريف، هذا الدليل متمثل بالإعجاز القرآني بمختلف وجوهه.

ومنذ نزول القرآن الكريم ظهر مَن يريد تزييف أساس عقيدة المسلمين وشريعتهم ونظام حياتهم محاولاً الطعن في القرآن الكريم عن طريق إيراد الشبهات حول مصدره، أو سلامة محتواه من الزلل، مستعيناً بخبرات مختلف علماء التاريخ والآثار واللغات والعلوم الطبيعية؛ لإثبات صدق دعوى اشتماله على أخطاء تاريخية وعلمية ولغوية.

لذا لَمَّا كانت جهود إيراد الشبهات حول القرآن الكريم منظمةً وذات منهج مدروس ومؤطر ببرامج ومؤسسات تُعنى بها وتدعمها بكل ما تطلب من دعم مادي ومعنوي، أضحى المطلوب من كل غيور على دستور حياته السيرَ بمنهج علمي موضوعي للذود عمَّا يوجه إليه من طعون.

وتحقيقاً لذلك: تأتي هذه الدراسة لتبين الحاجة إلى إبراز مكانة مبحث الانتصار للقرآن الكريم، وضرورة الاهتمام به، وإثبات أنه يستحق تخصيصه بعِلمٍ مستقلٍّ رئيسٍ من علوم القرآن الكريم، يهدِف إلى النقد الصحيح – عبر منهج مؤصل – للشبهات المثارة حول القرآن الكريم من

جهة إثبات تهافتها، ومن ثم إيراد الأدلة على إلهية مصدره وسلامته من التحريف، وخلوه عن الخطأ؛ من باب التخلية قبل التحلية.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١. توضيح المقصود بعلم الانتصار للقرآن الكريم.

٢. لفت نظر المشتغلين بعلوم القرآن الكريم إلى أهمية تخصيص علم يعنى بالانتصار للقرآن الكريم.

٣. الحث على اجتماع المختصين لوضع قواعد وأصول هذا العلم.

٤. التعريف بموقع مبحث الانتصار للقرآن الكريم في الكتب المطبوعة التي تناولت التعريف بمباحث علوم القرآن الكريم، ونقدها.

محددات الدراسة:

اقتصرت الدراسة على بيان الحاجة إلى إفراد الانتصار للقرآن الكريم بعلم يختص به، وأهمية هذا العلم، وموقعه بين علوم القرآن الكريم الأخرى.

الدراسات السابقة:

لم يجد الباحث أي دراسة علمية عنيت بالتأصيل والتقعيد لعلم الانتصار للقرآن الكريم، أو الدعوة إلى العناية به كما العناية بسائر علوم القرآن الكريم.

وهنالك بعض المؤلفات ـ التي سيتم ذكر أبرزها في المطلب الثاني من المبحث الأول ـ تناولت الانتصار للقرآن الكريم من جهة التطبيق وإيراد

المسائل، لا من جهة التأصيل والتقعيد.

<u>منهج البحث</u>:

سيقوم الباحث باستخدام المنهج الوصفي لتوضيح المقصود بعلم الانتصار للقرآن الكريم، والمنهج الاستنباطي لبيان الحاجة إليه، والمنهج الاستقرائي لبيان موقعه بين كتب علوم القرآن الكريم المطبوعة.

وتشتمل الدراسة على مبحثين: يناقش الأول تعريفاً بعلم الانتصار للقرآن الكريم وبياناً لأهميته، وفي المبحث الثاني دراسة نقدية لموقع مبحث الانتصار للقرآن الكريم في أبرز المؤلفات المطبوعة المختصة بمباحث علوم القرآن الكريم، وتحت كل مبحث عدد من المطالب، ثم خاتمة تم فيها عرض أبرز نتائج البحث وتوصياته، وبحسب التفصيل التالي:

المبحث الأول: علم الانتصار للقرآن الكريم

المطلب الأول: تعريف علم الانتصار للقرآن الكريم:

الانتصار لغةً: من النصر: وهو عَوْن المظلوم، والانتقام من الظالم.[1]

ونَصَرَهُ: نجَّاهُ وخلَّصَهُ،[2] وانتصر الرجل: إذا امتنع مِن ظالِمِهِ، ويكون الانتصار مِن الظالم: بالانتصاف منه.[3]

أما اصطلاحاً فيرى الباحث أن تعريف علم الانتصار للقرآن الكريم هو: " العلم الذي يبحث في معرفة الشبهات المثارة حول القرآن الكريم، والرد عليها بالحجة الصحيحة ".

*** شرح موجز للتعريف:**

١ – معرفة الشبهات: الخطوة الأولى للانتصار للقرآن لكريم، ولابد منها عند الشروع في الإجابة عن أي شبهة، لذا يُقال لكل مَن أراد دَفع شبهة: " لا ترد على أحد جواباً حتى تفهم كلامه؛ فإن ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكد الجهل عليك. ولكنِ افهمْ عنه، فإذا فهمته فأجبه، ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام، ولا تستح أن تستفهم إذا لم تفهم؛ فإن الجواب قبل الفهم حُمْق ".[4]

---

(١) انظر: العين، الخليل ٢/ ٧٩٧ (نصر). والقاموس المحيط، الفيروزآبادي١/ ٦٢١ (نصر).

(٢) تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٣٥٣٨ (نصر).

(٣) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٢٠ (نصر).

(٤) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر ١/ ١٤٨.

٢- القرآن الكريم: كلام الله تعالى المُعْجِزُ، المُنَزَّلُ على النبي محمد ﷺ، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته.[١]

٣- الرد على الشبهات: ببيان الحق والصواب، وهو الهدف الرئيس لعلم الانتصار للقرآن الكريم وثمرته.

٤- بالحجة الصحيحة: لا يؤتي الانتصار للقرآن الكريم أُكُله إلا بدراسة نقدية علمية تبحث في أساس الشبهة، وتنقد منهج البحث الذي أدى إليها نقداً علمياً، ملتزماً بآداب الحوار، متصفاً بالموضوعية، مبنياً على الحجة الصحيحة، سواء أكانت الحجة مستنبطة من دليل صحيح، أم من فهم عقلي مقبول تسوغه القرائن.

---

(١) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ١٧.

المطلب الثاني: إثارة الشبهات حول القرآن الكريم، والانتصار له منها / لمحة تاريخية

ابتدأت الشبهات تثار حول القرآن الكريم منذ بداية نزوله، إذ تداعى خصومه فيما بينهم واجتمعوا في دار الندوة؛ ليُجمعوا رأيهم على قولٍ يقولونه للعرب في حقه، لكنهم اختلفوا، فتارة قالوا: إنه قول شاعر، وتارة قالوا: ساحر، وقيل: كاهن، وقيل: مجنون..(١)

لقد احتار الخصوم في تصنيف هذا الكلام المعجز، فاختلفت وتناقضت أقوالهم فيما بينها اختلافاً شديداً وتناقضاً عجيباً. قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ق: ٥.

ولعل أقدم شبهة تنصيرية حول القرآن الكريم، كانت زمن النبي ﷺ حين قدم عليه وفد نجران.

قال المغيرة بن شعبة ﷺ: " لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَؤونَ ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ مريم: ٢٨ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُم ".(٢)

أما أول ما كتبَ غير المسلمين بهدف إثارة الشبهات حول القرآن

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ص١٦١٧.

(٢) رواه مسلم في الآداب باب النهي عن التكني بأبي القاسم (٢١٣).

الكريم، كان كتاب (حياة محمد) ليوحنا الدمشقي[1]، وزعم يوحنا في كتابه أن الإسلام فرقة مسيحية مارقة، ظهرت في عهد الإمبراطور هرقل[2] (Hercule)، بفعل متنبئ من العرب يدعى حامد (محمد).[3]

ثم ظهرت كتابات المستشرقين التي لبست لباس النقد العلمي للقرآن الكريم، وأقدم ما عُرِف مِن نشاطات المستشرقين: دراسة استشراقية بعنوان (ماذا اقتبس محمد عن اليهودية؟).[4]

وحين صدرت أول طبعة للنص الكامل للقرآن الكريم بحروف عربية سنة (١١٠٥هـ/ ١٦٩٤م)، جاء في مقدمتها: " إنه من الضروري أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته ".[5]

---

(١) هو القديس يوحنا الدمشقي (٥٥_١٣١هـ/ ٦٧٥ ـ ٧٤٩م)، ولد بدمشق، ألف كتباً في اللاهوت والخطابة والتاريخ والشعر، ومهَّد بمؤلفاته لنشأة تعليم الفلسفة واللاهوت بأوروبا. انظر: المنجد، المعلوف ٢/ ٦٢٣.

(٢) هو هرقل الأول (-١٢_٢٠هـ/ ٦١٠_٦٤١م)، إمبراطور بيزنطي، انتصر على الفرس واحتل مدينتهم تبريز، حيث استرجع منها الصليب المقدس الذي سرق من القسطنطينية، هرب من سوريا بعد الفتح الإسلامي عام ٦٣٤م. انظر: المنجد، المعلوف، ٢/ ٥٩٥.

(٣) انظر: التبشير والاستشراق، الطهطاوي، ص٤٩.

(٤) نشرها المستشرق اليهودي الألماني أبراهام جايجر (AbramGeiger) عام (٥٢٨هـ/ ١١٣٤م)، ونال بسببها جائزة الدولة البروسية. انظر: المستشرقون والقرآن، عمر لطفي العالم، ص١٧.

(٥) قام بها أبراهام هنكلمان (Abram Henckelman). انظر: موسوعة المستشرقين، =

أما أبرز أوائل الدراسات الاستشراقية التي أثارت الشبهات حول القرآن الكريم:[١]

١. (تاريخ القرآن)، ثيودور نودلكه[٢] (Theodor Noldeke)، عام: (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩م).

٢. (تاريخ النص القرآني)، إجناس جولدتسيهر[٣] (Ignaz Goldtziher)، عام: (١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م).

= د.عبدالرحمن بدوي، ص٣٠٣.

(١) انظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، د. عمر رضوان١/ ٢٣٧. والاستشراق، محمد الشرقاوي، ص٨٤.

(٢) ثيودور نولدكه (١٢٥١_١٣٤٩هـ/ ١٨٣٦_١٩٣١م)، يعد شيخ المستشرقين الألمان، وكان أطروحته في الدكتوراه أصل كتابه عن تاريخ القرآن، واشترك في الإشراف على طبع تاريخ الطبري وترجمته إلى الالمانية. وكان يحسن أهم اللغات الشرقية كالعربية والآرامية والعبرية والحبشية وغيرها، تنقل بين ألمانيا والنمسا زائراً لمتاحفها ومكتباتها ومحاضرا في جامعاتها، ولم يزر بلاد العرب. ويعد كتابه: (تاريخ القرآن) الأساس لكل ما جاء بعده من دراسات استشراقية حول القرآن الكريم. انظر: موسوعة المستشرقين، د. عبدالرحمن بدوي، ص٥٩٧ .

(٣) إجناس جولدتسيهر (١٢٦٦_١٣٣٩هـ/ ١٨٥٠ _ ١٩٢١م) مستشرق مجري، تعلم في بودابست وبرلين، ورحل إلى سورية سنة (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م)، فتعرف بالشيخ طاهر الجزائري وصحبه مدة. وانتقل إلى فلسطين، فمصر، حيث لازم بعض علماء الازهر. وعين أستاذاً في جامعة بودابست وتوفي بها. له تصانيف باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية، في الإسلام والفقه الاسلامي والأدب العربي، ترجم بعضها إلى العربية. انظر: الأعلام، الزركلي ١/ ١٠٨.

٣. (مصادر الإسلام)، وليم موير[1] (William Muir)، عام: (١٣١٨هـ/ ١٩٠١م).

٤. (القرآن- مقال بالمجلة الشرقية الألمانية)، فلهاوزن[2] (Vellhazen)، عام: (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م).

٥. (مصادر تاريخ القرآن)، آرثر جيفري[3] (Arthur Geoffrey).

ثم تتابعَت البحوث الاستشراقية[4] واعتمدتها كتابات لمتأثرين بهِم مِن

---

(١) وليم موير (١٢٣٤-١٣٢٢هـ/ ١٨١٩-١٩٠٥م): مستشرق بريطاني. اسكتلندي الأصل، أمضى حياته في خدمة الحكومة البريطانية دخل البنغال سنة ١٨٣٧م. وعمل في الاستخبارات وتعلم الحقوق في جامعتي جلاسجو وايدنبرج وكان سكرتيراً لحكومة الهند. ثم عين مديراً لجامعة إيدنبرج حتى وفاته. انظر: الأعلام، الزركلي ٨/ ٢٣٤.

(٢) يوليوس فلهاوزن (١٢٥٩-١٣٣٦هـ/ ١٨٤٤-١٩١٨م): مؤرخ، وناقد للكتاب المقدس (العهد القديم)، ألماني نصراني، عُين أستاذاً في جامعة جريفسلد سنة (١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م)، ثم انتقل إلى جامعة هله (Halle) سنة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)، حيث قام بتدريس اللغات الشرقية. وتنقل بين عدة مناصب في العديد من الجامعات حتى تقاعد عام (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م). انظر: موسوعة المستشرقين، د. عبدالرحمن بدوي، ص٤٠٨.

(٣) آرثر جيفري (١٣٠٩-١٣٧٨هـ/ ١٨٩٢-١٩٥٩م): مستشرق أسترالي عُين أستاذاً في الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم أستاذاً في جامعة كولومبيا، ثم أستاذاً للغات السامية في مدرسة اللغات الشرقية بالقاهرة، من مؤلفاته: تحقيق المصاحف لابن أبي داود، والمفردات الأجنبية في القرآن، وغيرها. انظر: آراء المستشرقين حول القرآن، د. عمر رضوان ١/ ١٤٣.

(٤) بلغ عدد الدراسات الاستشراقية حول الإسلام في الفترة من (١٢٢٥-١٣٦٩هـ/ ١٨١١-١٩٥٠م) حوالي ستين ألف دراسة، أكثرها في إثارة الشبهات حول الإسلام =

العلمانيين العرب[١]، عملوا على إخضاع القرآن الكريم للمقاييس النقدية ذاتها التي تُحاكَم بها النصوص الأدبية للبشر.

أما الانتصار للقرآن الكريم فقد كان قرآنياً بالدرجة الأولى، فحين أثار العرب شبهة أن الوحي القرآني بشري تحداهم القرآن الكريم ـ وهم أهل الفصاحة ـ على رؤوس الأشهاد في كل جيل بأن يأتوا بمثله؛ لأن ما يستطيعه آحاد الناس يستطيعه مجموعهم من باب أولى.

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الطور: ٣٣ – ٣٤.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨ لكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله.

حينئذ ولما أعيتهم الحيلة فلم يفعلوا ما تحداهم به، أرخى لهم عنان التحدي، فتحداهم بعشر سور، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟

= ومصادره من قرآن وسنة، وقد أسهمت تلك الدراسات في تشكيل وترسيخ أفكار مشوهة حول الإسلام في الغرب، وتشكل أصول الدراسات الاستشراقية المعاصرة؛ فالمستشرقون ـ في الغالب ـ يأخذون من بعض، ولا يرجعون إلى المصادر الإسلامية. انظر: الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى المسلاتي، ص٧٣.

(١) انظر كتابات: خليل عبد الكريم، وسيد القمني، ونصر حامد أبو زيد، والصادق النيهوم، ومحمد أركون، ومحمد عابد الجابري، وحسن حنفي.

بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ هود: ١٣ – ١٤

ثم أرخى لهم حبل التحدي، ووسع لهم غاية التوسعة فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، أيِّ سورة ولو من قصار السور، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يونس: ٣٨ حتى بلغ النهاية في التحدي بأن يأتوا بسورة تشبه جزءاً من سورة قرآنية، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٣

كما كان الصحابة الكرام ينافحون عن القرآن الكريم وينتصرون له، واشتهر بذلك حبر الأمة عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بخاصة حين أجاب عن أسئلة كل من نافع بن الأزرق[1] ونجدة بن عويمر[2]، محتجاً

(١) هو نافع بن الأزرق الحروري: من رؤوس الخوارج، وإليه تنسب طائفة الأزارقة، وكان قد خرج في أواخر دولة يزيد بن معاوية، وكان إمام سوق الأهواز، ويعترض الناس بما يحير العقل في الناس، كان يطلب العلم وله أسئلة ومناظرات مع ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قتل سنة ٦٥ هـ. انظر: لسان الميزان، ابن حجر٦/ ١٤٤ (٥٠٦).

(٢) هو نجدة بن عامر الحروري، من رؤوس الخوارج، زائغ عن الحق، خرج باليمامة عقب موت يزيد بن معاوية، وقدم مكة. وله مقالات معروفة، وأتباع انقرضوا، كاتبَ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يسأله عن سهم ذي القربى، وعن قتل الأطفال الذين يخالفونه وغير ذلك، واعتذر ابن عباس عن مكاتبته. انظر: لسان الميزان، ابن حجر ٦/ ١٤٨ =

بأبيات من كلام العرب.[١]

أما بدايات تأليف المسلمين في الانتصار للقرآن الكريم فأول مَن ألف فيه: مقاتل بن سليمان وله كتاب: (الجوابات في القرآن)، ثم سفيان بن عيينة في كتاب: (جوابات القرآن)، ثم قطرب واسم كتابه: (الرد على الملحدين في متشابه القرآن)، وهذه الكتب الثلاثة مفقودة. وأقدم الكتب المطبوعة التي ناقشت مسائل في هذا العلم فهو (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة،[٢] ثم تتالت الكتابات المستقلة للعلماء في الانتصار للقرآن الكريم،[٣] ومن أشهرها عند المتقدمين: (الانتصارات الإسلامية) للطوفي،[٤] و(الانتصار للقرآن) للباقلاني.[٥]

أما عند المتأخرين فقد أخذ الرد على المستشرقين الجانب الأكبر منها، ومن أبرز ما كتب في هذا الشأن: (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) للدكتور

= (٥٢٠).

(١) انظر: الإتقان، السيوطي، ص٣٠١-٣٢٧ (الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر). والدر المنثور، السيوطي ٣ / ١٢٤. وللتفصيل حول مسائل نافع بن الأزرق انظر كتاب: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق، د. عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

(٢) تحقيق: سيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م.

(٣) لمعرفة أبرز المؤلفات في موضوع الانتصار للقرآن الكريم، انظر: دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري، د. عبد المحسن المطيري، ص٤٦-٤٩.

(٤) تحقيق: سالم القرني، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

(٥) تحقيق: د. محمد عصام القضاة، دار الفتح، عمّان، ط١، ٢٠٠١م.

عبدالرحمن بدوي،[1] و(المستشرقون والقرآن الكريم) للدكتور محمد أمين بني عامر.[2]

كما لفت شأن الانتصار للقرآن الكريم انتباه عدد من طلبة الدراسات العليا فكتبوا ردوداً على المستشرقين والعلمانيين مثل: (آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره) لعمر رضوان،[3] و(موقف الفكر العربي العلماني من النص القرآني)، لأحمد إدريس الطعان.[4]

وبعد تطور وسائل الاتصال أضحى توصيل الأفكار إلى مختلف أصناف الناس في شتى أنحاء العالم متاحاً بيسر وسرعة، مما أسهم في انتشار الطعونات حول القرآن الكريم عن طريق شاشات القنوات الفضائية، فظهرت كتب للرد على ما ورد فيها، ومن أبرزها: (إزهاق الباطل: الرد على القمص[5] زكريا بطرس) لصلاح الدين أبو السعود،[6] و(الردود المسكتة

(١) ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، (د/ ت،ط).

(٢) دار الأمل، إربد/ الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.

(٣) نوقشت الأطروحة في جامعة الإمام محمد بن سعود بإشراف د. مصطفى مسلم، وطبعته دار طيبة، الرياض، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

(٤) نوقشت الأطروحة في جامعة القاهرة بإشراف د. سيد رزق الحجر، وطبعته دار ابن حزم، الرياض، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م) بعنوان: " العلمانيون والقرآن الكريم – تاريخية النص ".

(٥) القُمُّص (Higoumen): لقب تمنحه الكنيسة القبطية لبعض الكهنة. انظر: معجم الإيمان المسيحي، صبحي حموي، ص٣٨٣.

(٦) مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

على الافتراءات المتهافتة) لإيهاب بن كمال.[(١)]

ويجمع بين تلك الكتابات أنها جهود فردية للإجابة عن بعض شبهاتٍ أهل الكتاب والملحدين وأصحاب الأهواء من المنتسبين إلى الإسلام.

المطلب الثالث: حكم العمل للانتصار للقرآن الكريم:

الحكم العام للدعوة إلى الله تعالى: أنها فرض على كل مسلم، كلٌّ حسب قدرته ومسؤوليته وعلمه، ومن الأدلة على ذلك:

١) قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٤

(مِّنكُمْ): مِن: بيانية،[(٢)] أي: يجب أن يكون منكم أنتم أيها المؤمنون أمة يدعون إلى الخير، لا من غيركم، فمَن الذي سيدعو إلى الخير إن لم تكونوا أنتم؟

٢) قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠

والآية تدل على أن الدعوة إلى الله ﷻ مِن سمات المجتمع المسلم، لذا:

---

(١) دار اليسر، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ.

(٢) وقيل: تبعيضية، وهو رأي مرجوح. انظر تفصيل المسألة: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٨٣.

"مدَحَ الله هذه الأمة ما أقاموا ذلك، واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم ".[1]

٣) قال رسول الله ﷺ: " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ.. ".[2] و(مَنْ): مِن ألفاظ العموم.

جاء في شرح النووي لهذا الحديث: (فَلْيُغَيِّرْهُ): أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة والإجماع، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة ولا يُعتد بخلافهم؛ فقد أجمع عليه المؤمنون قبل أن ينبغ هؤلاء.[3]

وفي المسألة تفصيل: فيكون حكم الدعوة هو الوجوب العيني، على كل مكلف من المسلمين والمسلمات مسؤول مسؤولية مباشرة عن المدعو. كلٌّ بحسب استطاعته وحجم مسؤولياته وقدرته على التأثير والتغيير، وحدود العلم الشرعي الذي يعلمه؛ فـ " بالنسبة إلى ولاة الأمور، ومَن لهم القدرة الواسعة، فعليهم من الواجب أكثر ".[4]

قال ابن كثير ـ بعد تفسيره للآية (١٠٤) من سورة آل عمران ـ: "والمقصود من هذه الآية أن تكون فِرقة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ".[5]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١١١.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان برقم (٤٩) مطولاً.

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم ٢/ ٢١٧.

(٤) وجوب الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، ابن باز، ص١٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩١.

فدعوتك لِمَن أنت مسؤول عنهم مباشرة فرض عين، كأمرك لابنك بالصلاة ونهيك له عن الكذب. أما غيرهم: حسب الحال: إذا كنت في موقع لا يوجد فيه مَن يقوى على الدعوة سواك، فالدعوة في حقك فرض عين. أما إذا كنت في موقع يوجد فيه من يقوم بالدعوة، فتصبح في حقك فرض كفاية؛ لوجود من يكفيك واجب الدعوة فيها.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن مسؤولية العالِم أعظم من مسؤولية غيره، ومسؤولية الحاكم أعظم من مسؤولية الأفراد، ومسؤولية القادر على التغيير أكبر من مسؤولية الأقل قدرة.. وهكذا.

والمشتغل بالانتصار للقرآن الكريم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، "والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المَهَم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُويَ بساطه وأُهمل علمه؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمَّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد.. ويدل على ذلك [أي وجوبه] إجماع الأمة عليه، وإشارات العقول السليمة، والآيات، والأخبار، والآثار ".[١]

وليس ذلك مِنَّةً مِن الداعية أو نافلة تجعله يعطي للقرآن الكريم فضلَ وقتِه، بل هو حق للأمة، واجب عليه يأثم بتركه؛ قال ابن تيمية: "فالمرْصدُوْن للعلم: عليهم للأمة حفظُ الدين، وتبليغُه، فإذا لم يُبلِّغوهم عِلمَ الدين، أو ضيَّعوا حفظه: كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين، ولهذا

(١) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٣٣٣.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ البقرة: ١٥٩

فإنَّ ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها، فلعنَهُمُ اللاعنون حتى البهائم ".(١)

وقال: " كل مَن لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم.. لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حَصَلَ بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامُه العلم واليقين".(٢)

ذاك كان الحكم العام للدعوة إلى الله تعالى، أما الانتصار للقرآن الكريم فله خصوصيته؛ إذ لا يمكن أن يقوم عليه إلا العلماء الماهرون في الجدل على الأخص وعليه فهو متعين عليهم الماهرين الأكفياء من أهل العلم والقدرة، فلا يناط التكليف بالانتصار للقرآن الكريم إلا بهم.. لكن هذا لا ينفي مسؤولية العوام في إبلاغ أهل العلم بما يجدون أن فيه انتقاصاً من قدر القرآن الكريم فكل مسلم موكل بمهمة القيام بحراسة ثغور الإسلام من جهته.

إن حِفظ الدين مسؤولية المسلمين جميعاً، وهو أولى الأولويات، وأهم الضرورات، ومن صور هذا الحفظ: رصد الشبهات المثارة حوله، وفهمها، والنظر إليها بعين النقد العلمي؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٢٨/ ١٨٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ١/ ٣٥٧.

المطلب الرابع: أهمية إبراز مكانة علم الانتصار للقرآن الكريم:

قال الرازي: " أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام "،[١] وورثة الأنبياء من أهل العلم يقتدون بهم في حراسة الثغور، والانتصار للحق وتقريره.

لذا فإن للعناية بالانتصار للقرآن الكريم أهمية كبيرة للفرد والمجتمع ولمن يطلبُ الحق من غير المسلمين، والأهم من ذلك: خدمة كتاب الله ﷻ بالانتصار له من الشبهات المثارة حوله.

وإذا لم يبادر المختص بالتفسير وعلوم القرآن الكريم للذود عن كتاب الله والانتصار له، فلمن سيترك الساحة؟

إنَّ ردود غير المختص لن تكون بقوة ردود المختص الذي عايش القرآن الكريم وعلومه ودرسها ووعاها، بل عند النظر إلى جهود الناس للرد على الشبهات نلاحظ أن عدداً من ردود غير المختصين زادت الشبهة توسعاً، والمشكِّك إصراراً على باطله، والمتردد حيرة!

ومن فوائد إبراز مكانة علم الانتصار للقرآن الكريم:

١. تقعيد قواعد وأسس هذا العلم حتى لا يدخله مَن ليس أهلاً له، فيفسد أكثر مما يصلح.[٢] وإذا كان لا يُقبَل أن يَبحثَ في علوم القرآن الكريم الأخرى كالتفسير والقراءات والتجويد مَن ليس مِن أهلها، فكذا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٢٩.

(٢) عن زياد بن حدير، قال: " قال لي عمر: هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلامَ؟ قَالَ: قُلْتُ لا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ ". رواه الدارمي في مقدمة سننه، باب: في كراهية أخذ الرأي، رقم: (٢١٤).

علم الانتصار للقرآن الكريم.

٢. كي ينال هذا العلم نصيبه من البحث ـ وخاصة في رسائل الماجستير والدكتوراه والأبحاث المحكمة ـ مثل غيره من باقي علوم القرآن الكريم التي كثُرَت الدراسات والأبحاث حولها كالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمحكم والمتشابه، وجمع القرآن.

٣. تجميع جهود العلماء السابقين واللاحقين؛ ليبني اللاحق على جهد السابق، ويلتقي العاملون فيه في منتديات مختصة؛ ليتبادلوا الأفكار في شؤون العلم المختلفة، ويفيدوا من تجارب إخوانهم.

٤. أعداء القرآن يهاجمونه بمنهجية منسقة واضحة المعالم، بينما الردود على شبهاتهم تقوم على جهود فردية متناثرة، بحاجة إلى تجميع وتنظيم، وتدريب وتأهيل، وتأصيل شرعي؛ ولا سبيل لكل ذلك إلا بإبراز مكانة العلم المختص بشؤونها، والضابط لشروط العاملين فيها.

٥. التأسيس لهذا العلم يسهم في تجميع الأبحاث المتعلقة به في باب واحد؛ يشمل مؤلفات مهمة كالانتصارات الإسلامية للطوفي، والانتصار للقرآن للباقلاني، وما يشبهها من دراسات وبحوث.

وبدون تأسيس هذا العلم قد لا نعلم أين نصنف تلك المؤلفات ونبوِّبها تحت أي مبحث من مباحث علوم القرآن الكريم فهي ليست مصنفات مختصة في الناسخ والمنسوخ ـ مثلاً ـ ولا في المكي والمدني، ولا في جمع القرآن.. رغم أنها تتناول دراسة موضوعات في القرآن الكريم وخدمته.

المبحث الثاني: موقع علم الانتصار للقرآن الكريم في كتب علوم القرآن الكريم:

المطلب الأول: محددات موضوع علم الانتصار للقرآن الكريم:

من خلال المبحث السابق: من الممكن استنتاج أن علم الانتصار للقرآن الكريم يختص بالبحث في:

١. رصد وفهم الشبهات المثارة حول القرآن الكريم.

٢. الرد على الشبهات المثارة حول القرآن الكريم بالحجة والبرهان.

٣. وضع الآداب والشروط العلمية المطلوب توفرها بمن يعمل في الانتصار للقرآن الكريم.

٤. بيان الملاحظات والمآخذ العلمية على الدراسات التي تحاكم القرآن الكريم (مصدراً وأسلوباً ومحتوىً) وفق أسس مناهج محاكمة النصوص الأدبية البشرية، دون مراعاة خصوصيته الإلهية، وتفرده عن كلام البشر، تلك الدراسات التي أسهمت في تقليل هيبة القرآن الكريم عند بعض العوام، وأسهمت في زيادة عدد متبني الأفكار المغلوطة حول القرآن الكريم؛ لأسباب من أبرزها: ندرة الردود العلمية عليها، وندرة وصول تلك الردود إلى الفئة المستهدفة بصورة ملائمة.

٥. تجميع الجهود الفردية للعلماء المسلمين الذين بحثوا في الشبهات المثارة حول القرآن الكريم، والتعريف بها، والاستفادة منها.

وبعد بيان أبرز محددات علم الانتصار للقرآن الكريم، يظهر جلياً أن

الموقع الطبيعي لهذا العلم هو بين أقرانه من علوم القرآن الكريم الأخرى، ولكن: هل هذا موقعه في كتب علوم القرآن الكريم المتداوَلة؟ الجواب في المطلب التالي:

المطلب الثاني: دراسة نقدية لموقع علم الانتصار للقرآن الكريم في كتب علوم القرآن الكريم المطبوعة:

علوم القرآن الكريم: هي الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب الرباني المجيد الخالد من حيث النزول والجمع والتدوين، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أو التي لها صلة به. والغرض منها: الإعانة على فهم كلام الله عز وجل.[1]

فعلوم القرآن الكريم هي: كل علمٍ يخدم القرآن، أو يستند إليه.[2] ومما لا شك فيه أن الانتصار للقرآن الكريم علم يخدم القرآن الكريم، ومِن البدهي أن يكون موقعه بينها، لكن هل هذا هو واقع الحال في الكتب التي اعتنت بتعداد علوم القرآن الكريم؟

باستقراء أبرز الكتب المطبوعة في علوم القرآن الكريم للمتقدمين والمتأخرين تبينَ ما يلي:

أولاً: موقع علم الانتصار للقرآن الكريم في كتب المتقدمين:

---

(١) التبيان في علوم القرآن، الصابوني، ص١٩٧.

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٣٨.

- أول كتاب وضع في علوم القرآن الكريم: (فهم القرآن) للحارث المحاسبي[١].

أما أشهر كتب المتقدمين المطبوعة في علوم القرآن الكريم فثلاثة:

- كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي[٢] ويُعد أكثر كتب المتقدمين المشتهرة توسعاً في ذكر مباحث علوم القرآن الكريم، حيث ذكر منها ثمانين نوعاً.

- كتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي.[٣]

- كتاب (فنون الأفنان في عيون القرآن) لابن الجوزي.[٤]

ومن الملاحظ أن تلك الكتب ليس في أيٍّ منها تخصيص لعلم الانتصار للقرآن الكريم بمبحث مستقل، وإن كان في بعضها رد على ما قد يستدل به على شبهات تثار حول القرآن الكريم كالآيات التي يوهم ظاهرها التعارض، وما نزل من القرآن على غير لغة العرب، والغريب المشكل.

ولا تختلف عنها كثيراً كتبٌ أخرى أقل شهرة، تحدث أصحابها عن بعض علوم القرآن الكريم ولم يذكر أي منهم علمَ الانتصار للقرآن الكريم

---

(١) انظر الأدلة التي تثبت ذلك في كتاب: علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د. حازم حيدر، ص٩٣. أما كتاب فهم القرآن ومعانيه للحارث المحاسبي فهو مطبوع مع كتاب (العقل)، تحقيق: حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت، ط٢، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م).

(٢) تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).

(٣) تحقيق: د. يوسف المرعشلي وآخرين، دار المعرفة، بيروت، ط٢، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

(٤) تحقيق: د. حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر، بيروت، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

بصفته أحدَ علوم القرآن الكريم، منها: (جمال القراء وكمال الإقراء) للسخاوي،[1] و(المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز) لأبي شامة المقدسي،[2] و(الإكسير في قواعد التفسير) للطوفي،[3] و(الزيادة والإحسان في علوم القرآن) لابن عقيلة المكي[4] الذي لم يُشر فيه إلى علم الانتصار للقرآن الكريم رغم أنه توسع بذكرِ مائة وأربع وخمسين عِلماً من علوم القرآن الكريم، فأضحى كتابه أكبر موسوعة في علوم القرآن على الإطلاق.[5]

ثانياً: موقع علم الانتصار للقرآن الكريم في كتب المتأخرين:

باستعراض أبرز كتب علوم القرآن الكريم المطبوعة للمتأخرين تبيَّنَ ما يلي:

- أن محمد عبدالعظيم الزرقاني في (مناهل العرفان)[6] أول مَن كتب مِن المتأخرين في علوم القرآن الكريم على نمط مناهج البحث الأكاديمي؛ ليتوافق مع مناهج الأزهر، ويفهمه المثقف المدني.[7]

---

(١) تحقيق: علي البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

(٢) تحقيق: طيار قولاج، دار صادر، بيروت، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

(٣) تحقيق: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م).

(٤) مركز الدراسات والبحوث بجامعة الشارقة، الشارقة، ط١، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م)، ووزع الكتاب على عدد من طلبة الماجستير، ووقع مع الفهارس في عشر مجلدات.

(٥) أفاد بذلك أ.د. مصطفى مسلم المشرف الرئيس على مشروع تحقيق الكتاب ١/ ٦.

(٦) تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

(٧) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٨.

- أما مناع القطان في (مباحث في علوم القرآن)،[١] فكان أكثر مَن توسع مِن المعاصرين - الذين اشتُهرت كتبهم - في تعداد مباحث علوم القرآن.

لكن لم يذكر أي منهما تخصيص علم الانتصار للقرآن الكريم بمبحث مستقل.

ومثلها كتب مطبوعة لاحقاً مثل: (دراسات في علوم القرآن) د. أمير عبد العزيز[٢]، و(الميسر في علوم القرآن) د. عبد الرسول الغفار[٣]، و(علوم القرآن) د. عبدالفتاح أبو سنة[٤]، و(موسوعة علوم القرآن) د. عبد القادر منصور[٥]، و(المقدمات الأساسية في علوم القرآن) د. عبدالله الجديع[٦]، و(علوم القرآن) د. عبدالله شحاتة[٧]، و(المحرر في علوم القرآن) د. مساعد الطيار[٨]، و(الواضح في علوم القرآن) د. مصطفى البغا ومحيي الدين مستو[٩]، و(إتقان البرهان في علوم القرآن) د. فضل حسن

(١) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٩، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

(٢) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

(٣) دار ومكتبة الرسول الأكرم، بيروت، ط١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

(٤) دار الشروق، القاهرة، ط١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

(٥) دار القلم العربي، حلب، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

(٦) مؤسسة الريان، بيروت، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

(٧) دار غريب، القاهرة، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

(٨) مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، معهد الإمام الشاطبي، جدة، توزيع دار ابن الجوزي، الرياض، ط٢، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

(٩) دار الكلم الطيب، دمشق، ط٢، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) .

عباس[1]، و(اللآلئ الحسان في علوم القرآن) موسى لاشين[2]، و(علوم القرآن الكريم) د. نور الدين عتر[3]، و(دراسات في علوم القرآن) د. فهد الرومي[4]، و(علوم القرآن) د. عدنان زرزور[5]، و(لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير) د. محمد الصباغ[6]، و(مباحث في علوم القرآن) د.صبحي الصالح[7]، و(محاضرات في علوم القرآن) د. غانم قدوري[8]، و(المدخل دراسة القرآن الكريم) د. محمد أبو شهبة.[9]

من الملاحظ أن الكتب المعاصرة ليس في أي منها تخصيص الانتصار للقرآن الكريم بمبحث مستقل، وإن كان في بعضها رد على شبهات أثارها عدد من المستشرقين وتلاميذهم في ثنايا الحديث عن الوحي وجمع القرآن والنسخ وغيرها من مباحث علوم القرآن الكريم.

ومن المُلفت تقسيم د. محمد نبيل غنايم لكتابه (بحوث في علوم

---

(١) دار الفرقان، عمَّان، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

(٢) مطبعة دار التأليف، القاهرة، (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م).

(٣) دار الخير، دمشق، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

(٤) طبعة لحساب المؤلف، الرياض، ط١٤، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).

(٥) المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

(٦) المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

(٧) مطبعة الجامعة السورية، دمشق، (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).

(٨) دار عمَّار، عمَّان، ط١، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).

(٩) دار اللواء، الرياض، ط٣، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

القرآن)[١] إلى قسمين:

الأول بعنوان: (علوم القرآن)، ويشمل: تعريفه، ونزوله، وكتابته، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وإعجاز القرآن، وفضائل وآداب خاصة بالقرآن.

أما الثاني فعنوانه: من أساليب الغزو الفكري (الطعن في القرآن الكريم): وذكر فيه بعض الطعون المثارة حول القرآن الكريم، والرد عليها،[٢] وهذا التقسيم للدكتور محمد غنايم يُبين أن بعض الباحثين المسلمين قد فَصَلوا بين علم الانتصار للقرآن الكريم وباقي علوم القرآن الكريم، كأنه علم مستقل غريب عنها، بينما العدل أن يكون هذا العلم مبحثاً رئيساً من مباحث علوم القرآن الكريم كما بيَّنته هذه الدراسة.

ومن خلال استقراء جهود مؤلفي الكتب المذكورة سابقاً: يتبين عدم عناية جُلِّ العلماء الذين كتبوا في علوم القرآن الكريم بإفراد ما يتعلق بالانتصار للقرآن الكريم بمبحث مستقل، رغم توسعهم في ذكر شتى العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم والتي تخدمه.

فكثير من الكتب المعاصرة لم يتوسع أصحابها في الانتصار للقرآن الكريم، مع أنهم أخذوا عن رائد الكتب المعاصرة التي عنيت بعلوم القرآن الكريم وهو كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ـ الذي كان يذكر أبرز

---

(١) دار الهداية، القاهرة، ط١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

(٢) القسم الأول: ص١-١١٨. والقسم الثاني: ص١١٩-٢٢٦.

الشبهات المثارة حول بعض علوم القرآن الكريم في ثنايا الحديث عن ذلك العلم، ويتوسع في الرد عليها ـ، بل إن الباحث خالد السبت عدَّ منهج الزرقاني في الانتصار للقرآن من المآخذ عليه، فذكر في المطلب الثاني عشر من القسم الثاني من دراسته النقدية لكتاب (مناهل العرفان) ما ملخصه:

عَمَدَ الزرقاني في (مناهل العرفان) إلى عرض الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، وبعض الشبهات التي ساقها المؤلف في هذا الكتاب لا تستحق الذكر ولا الالتفات؛ لسخافتها، وضعفها المتناهي، وأحياناً تأتي الردود غير محكمة، بل أحياناً تكون ردود المؤلف متضمنة بعض المخالفات.

وكثرة الردود ـ التي زادت عن مائة ـ تخالف منهج أهل السنة والجماعة الذين ينهون عن عرض الشبه وعن سماعها في حالتين: أن يكون صاحب الشبهة منغمساً في باطله، طالباً لنصرته، مبتغياً التشكيك في الحق، وهذا لا يُسمع لقوله إلا في حالات قليلة. أو أن لا يأمن الراد على الشبهة على نفسه من الانجراف معها، أو كان علمه قاصراً فيكون الرد ضعيفاً، فيتغلب صاحب الشبهة فتحصل بذلك فتنة، فلا ينبغي الرد في الحالتين.

ولكن يُرخص سماع الشبهة والرد عليها في حالتين: إن كان صاحب الشبهة طالباً للحق منقاداً له، أو أن تكونَ موجوداً في مجلس يحضره مَن تخشى عليه الفتنة إن سكتَّ.[1] ا.هـ

---

(١) انظر: كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم، خالد السبت، ص١٣٤-١٥١.

قال الباحث: ليس المقام في هذه الدراسة مقام ترجيح بين منهجَي الشيخين، ولكن المقصود لفت النظر إلى ضرورة العناية بتأصيل علم الانتصار للقرآن الكريم؛ ليقوم أهل العلم بوضع محدداته وأصوله وقواعده وضوابطه، وشروط العاملين فيه، ومنهج تأهيلهم، وبيان متى ينبغي أن يكون ـ أو لا يكون ـ الرد ولمن وكيف.

هذا الشأن ينبغي أن تقوم من أجله جهود جماعية من مخلصين يحملون هَمَّ نشره، يجتمعون في مؤتمرات علمية وورش عمل، يستفيد فيها طلبة العلم من حكمة العلماء الذين اشتغلوا بهذا الفن، وعرض تجارب عملية لدعاة مارسوا الانتصار للقرآن الكريم، ثم في نهاية اللقاء تُستَخلَص أبرز النتائج والعِبَر.

المطلب الثالث: تساؤلات بين يدي الموضوع

بعد ما سبق بيانه من مسوغات إبراز مكانة العلم الذي يُعنى بشؤون الانتصار للقرآن الكريم، وضرورة إشهار موقعه بين سائر علوم القرآن الكريم، تظهر تساؤلات مِن أبرزها:

أولاً: قد يقول قائل: ما الداعي لإبراز موقع علم الانتصار للقرآن الكريم بمبحث مستقل داخل الكتب المعنية بالتعريف بمباحث علوم القرآن الكريم؟ لماذا لا يُكتفى ببيان الشبهة المثارة حول كل مبحث من المباحث والرد عليها كما صنع الزرقاني في (مناهل العرفان)؟

فالجواب:

إن إبراز مكانة العلم المختص بالانتصار للقرآن الكريم داخل تلك كتب علوم القرآن لا يعني ـ بالضرورة ـ توسُّع المبحث بالرد على الشبهات،

بل يذكر طرفاً منها مِن باب التمثيل؛ فالمقصود الأهم هو: تنمية ملكة الانتصار للقرآن الكريم عند طلبة العلم، بإبراز وجود هذا العلم وبيان ضوابطه ومحدداته والتعريف بالكتب المندرجة تحته، فمن النقص المخلِّ أن لا يَعرف طلبة العلم أبرز كتب علم الانتصار للقرآن الكريم.

مثلاً: كتاب (العجاب في بيان الأسباب) لابن حجر،(١) وكتاب (معترك الأقران) للسيوطي،(٢) كل واحد من الكتابين يبحث في علوم تخدم القرآن الكريم، وإن سألت عن المبحث الذي يندرج تحته كل منهما، فسيكون الجواب: الأول: في أسباب النزول، والثاني: في الإعجاز.

ولكن كلاً من كتاب (الانتصارات الإسلامية) للطوفي، و(الانتصار للقرآن) للباقلاني، و(دفع إيهام الاضطراب) للشنقيطي،(٣) و(القرآن ونقض مطاعن الرهبان) لصلاح الخالدي،(٤) وحتى كتب الرد على العلمانيين والعقلانيين ككتاب (تحريف المصطلحات القرآنية) لفهد الرومي،(٥) وكتب الرد على دعاة التفسير غير المنضبط ككتاب (نقد الفهم العصري للقرآن) لعاطف أحمد،(٦) كل تلك الكتب تُعنى بدراسة مبحث

---

(١) تحقيق: د. عبدالحكيم الأنيس، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

(٢) عناية: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

(٣) دار عالم الكتب، بيروت، (د/ ت،ط).

(٤) دار القلم، دمشق، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م).

(٥) طبعة لحساب المؤلف، الرياض، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

(٦) دار العالم الجديد، القاهرة، ط٣، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

مهم من مباحث العلوم التي تخدم القرآن الكريم، ولكن المسألة هي: ستُدرَج تحت أي مبحث من مباحث علوم القرآن الكريم المتعارَف عليها حالياً؟

كما أن هنالك شبهات مثارة حول القرآن الكريم قد لا يتطرق إليها الحديث في أكثر كتب علوم القرآن الكريم، حتى التي اعتنت بذكر الشبهات المثارة حول أبرز علوم القرآن الكريم: كدعوى أن القرآن الكريم يؤيد عقائد اليهود والنصارى، واشتمال القرآن الكريم على أخطاء علمية وتاريخية وجغرافية وحسابية ونحوية وبلاغية، ووجود تصحيف في مخطوطات القرآن الكريم، واشتمال القرآن الكريم على نصوص مأخوذة مِن شعر امرئ القيس وخطب قس بن ساعدة، وغيرها من الدعاوى.[١] لكن إفراد علم مستقل للانتصار للقرآن الكريم ستكون نتيجته العناية بالرد عليها؛ فعلوم القرآن الكريم ما قامت إلا لخدمة القرآن الكريم، وأي خدمة للقرآن أجلُّ من الذب عنه والانتصار له!

إنَّ علم الانتصار للقرآن الكريم يتكامل مع سائر علوم القرآن الكريم الأخرى ويستثمر ما جاء فيها لخدمة موضوعاته، وبخاصة علوم القراءات، والنَّسخ، وتاريخ جمع وتدوين القرآن الكريم، ورسم المصحف، والإعجاز، والقصص، والتناسب بين الآيات والسور.

(١) ذكر الباحث عبدالرحيم الشريف بعضاً من تلك الدعاوى ورد عليها في أطروحته للدكتوراه ـ غير المطبوعة ـ: " القرآن الكريم في مواقع الإنترنت العربية: دراسة تحليلية نقدية "، بإشراف: د. نصار نصار، كلية الشريعة، جامعة دمشق، ٢٠٠٦م.

ومن الأمثلة التطبيقية على التكامل بين علم الانتصار للقرآن الكريم وغيره من علوم القرآن الكريم، أنه لا يمكن الرد على دعوى وجود تناقضات بين آيات القرآن الكريم دون فهم علم الناسخ والمنسوخ، والحكمة من النسخ، والفرق بين النسخ وتخصيص العام و تقييد المطلق.

ثانياً: قد يتساءل متسائل: لماذا كل هذا الجهد لبيان أهمية ضم هذا العلم إلى باقي علوم القرآن الكريم، خاصة وأن أكثر الشبهات حول القرآن الكريم متهافتة، لا يقبلها العقل السليم؟

وجواب ذلك أنه ينبغي عدم الركون إلى ضعف شبهاتهم، والدعوة إلى إماتتها بالسكوت عنها، فما يكون متهافتاً عندك، هو في حقيقته معضلة عند بعض العوام ـ ومَن هم في حكمهم ـ، وما أكثرهم في زمننا، زمن غربة العلم وأهله!

فهذا محمد رشيد رضا لم تمنعه (تهافت) شبهة دعوى اقتباس القرآن الكريم عن شعر امرئ القيس من نقدها علمياً في مجلة المنار، فقال: " لولا أن في القراء بعض العوام، لما كنت في حاجة إلى التنبيه على أن هذه القصيدة يستحيل أن تكون لعربي ".(١)

قارن إيجابية رشيد رضا مع تثبيط سعد زغلول مَن طالبَ بمواجهة شبهات طه حسين حول القرآن الكريم بدعوى تهافتها قائلاً: " إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها، هَبُوا أن رجلاً مجنوناً

(١) انظر: مجلة المنار، المجلد السابع ٥/ ١٦١، ثم أخذ يفصِّل في ردِّ الدعوى.

يهذي في الطريق، فهل يضير العقلاء شيء من ذلك ؟ إنَّ هذا الدين متين، وليس الذي شكَّك فيه زعيماً أو إماماً فليشُك كما شاء ".

ومنذ ذلك اليوم انطلقَ طه حسين يقطع الطريق من مرحلة إلى مرحلة، مؤثِّراً في المناهج الجامعية ثم المدرسية، وفي مناهج الثقافة والأدب والتاريخ، مؤسِّساً لمدرسة تقوم على التشكيك في ثوابت القرآن الكريم، ما زالت تخرِّج طلبة مفسدين في الأرض.[1]

بالمقارنة بين موقفي كل من رشيد رضا وسعد زغلول تجد أن الشخصية الإيجابية لمحمد رشيد رضا قدمت خدمة جليلة للقرآن الكريم، وصارت عِلماً ينتفع به بعد موته، أما الشخصية السلبية لسعد زغلول فقد أسهمت في الإفساد في الأرض.

ثالثاً: قد يتساءل آخر: ما المسوِّغ الذي يدعو إلى بذل كثير من الجهد للرد على الطعون المثارة حول القرآن الكريم مِن كتابة مطبوعات، وعقد اجتماعات، وتأسيس هيئات، ووضع خطط مساقات، ورصد شبهات.. الخ، لِمَ لا يُكتفَى بالجهود الفردية الموجودة في الساحة؟

وجوابه أخذُ العِبرة مما صنع الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز الذي قال حين تولى الخلافة: إني أرى في أموال مسجد دمشق كثرة، فقد أُنفِقَتْ في غير حقها، فأنا مستدركٌ ما استدركتُ منها فرُدت إلى بيت المال، أنزع هذا الرخام والفسيفساء، وأنزع هذه السلاسل وأصيِّر بدلها حبالاً.

(١) انظر: طه حسين حياته فكره في ميزان الإسلام، أنور الجندي، ص٢٢١.

فاشتد ذلك على أهل دمشق، حتى وردَ رجال من ملك الروم إلى دمشق فسألوا أن يؤذَنَ لهم في دخول المسجد، فأذِن لهم أن يدخلوا، ووكّل بهم رجلاً يعرف لغتهم ويسمع كلامهم ويُنهي قولهم إليه من حيث لا يعلمون، فمروا في الصحن حتى استقبلوا القبلة فرفعوا رؤوسهم إلى المسجد، فنكَّس رئيسهم رأسه واصفر لونه، فقالوا له في ذلك، فقال: إنا كنا معاشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمتُ أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها، فلما أخبِر عمر قال: إني أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفار، وترك ما همَّ به.(١)

ووجه الدلالة من تلك الحكاية: أن الناس لا يستمعون إلا إلى القوي، ومن مظاهر قوة العاملين في الانتصار للقرآن الكريم استناد جهدهم إلى علم منضبط، واضح الأركان، يندرج تحته عدد من الكتب والأبحاث والدراسات، وتُعقد لخدمته المؤتمرات والندوات، ويختص به عدد من حملة العلم الشرعي، بدلاً من جهود مفرقة كثيرٌ منها يخبط خبط عشواء، فيفسد أكثر مما يصلح.

(١) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢/ ٤٦٨.

خاتمة الدراسة

علم الانتصار للقرآن الكريم يبحث في تأكيد ربانية مصدر القرآن الكريم وتثبيت ذلك في النفوس، وبما أنه لا يمكن لأي بشرٍ إنشاء نص يحوي شتى العلوم ويكون في الوقت ذاته خالياً من الزلل الناشئ عن طبيعة النقص البشري - فضلاً عن كونه مليئاً بالإشارات الدالة على إعجازه وتفرده - فمُهمة علم الانتصار للقرآن الكريم إثبات إحكام القرآن الكريم وعصمته من الزلل، كما يُسهِم في إظهار شتى الوجوه الصحيحة لإعجازه.

لذا فإن النتيجة الأبرز لهذه الدراسة هي إثبات أنْ لا سبيل لتجميع جهود العاملين بالانتصار للقرآن الكريم، وتوجيه الأنظار لمزيد من العناية بموضوعاته، وتحقيق مخطوطاته، وتصحيح زلل بعض القائمين عليه، إلا بتوجيه أنظار المشتغلين بعلوم القرآن الكريم أنَّ الانتصار للقرآن الكريم يستحق أن تُبرز مكانته بصفته عِلماً مستقلاً، له قواعده وأسسه ومحدداته وضوابطه الناظمة للتأليف والبحث فيه.

ومن نتائج الدراسة:

١ . تعريف علم الانتصار للقرآن الكريم: هو العلم الذي يبحث في معرفة الشبهات المثارة حول القرآن الكريم، والرد عليها بالحجة الصحيحة.

٢ . الانتصار للقرآن الكريم معروف منذ عهد السلف، وإن لم تقعَّد قواعد عِلمه حتى الآن.

٣ . لم ينل علم الانتصار للقرآن الكريم الاهتمام اللائق به في أكثر كتب

علوم القرآن المتقدمة والمعاصرة، رغم الحاجة إليه في الزمن الحالي.

٤. الانتصار للقرآن الكريم فرض كفاية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولن يتم الانتصار للقرآن الكريم بصورة صحيحة إلا إذا أبرِزَت مكانته وقُعِّدت قواعد عِلمه، ووضِعت ضوابط العمل فيه.

٥. الجهود المنظمة للقائمين على إثارة الشبهات حول القرآن الكريم، ينبغي أن تقابلها جهود أكثر تنظيماً؛ لحصرها وللرد العلمي عليها؛ خشية تأثيرها سلباً على المسلمين، وعلى تقدم الدعوة الإسلامية، وخشية أن يتصدى لها غير المؤهلين علمياً، مما قد يسهم في ضعف الرد والانتصار الظاهري للطرف الآخر أمام العامة.

٦. العناية بتدريس هذا العلم تسهم في تكوين ملكة نقدية عند طلبة العلم الشرعي الذين يرغبون بالعمل في الدعوة إلى الله عن طريق الانتصار للقرآن الكريم.

٧. ضرورة اجتماع المختصين بعلوم القرآن الكريم، مع الدعاة الممارسين؛ للخروج بدراسة تفصيلية للقضايا المتعلقة بهذا العلم.

التوصيات:

في التوصيتين التاليتين آلية مقترحة لتكامل العمل المنهجي الأكاديمي والدعوي خدمةً للانتصار للقرآن الكريم:

– التوصية الأولى: إنشاء هيئة عالمية تعنى بإبراز مكانة مبحث الانتصار للقرآن الكريم، تحمل اسم: (الهيئة العالمية للانتصار للقرآن الكريم)، يشرف عليها ثلة من كبار العلماء والمختصين، يعمل القائمون عليها لإقامة

مؤتمرات وورش عمل وحلقات بحث؛ كي تؤسس للتشاور على الحاجة إلى تخصيص علم يختص بالانتصار للقرآن الكريم، ومن ثم الاتفاق على اسم هذا العلم، وبيان حده، وموضوعه، وثمرته، وفضله، ونسبته، وحُكمه، والمسائل المندرجة تحته، ومصادر استمداده.[١]

وبعد ذلك يتم رصد أبرز الشبهات المثارة حول القرآن الكريم والرد عليها رداً علمياً محكماً، من خلال البحوث العلمية المحكمة، واستكتاب أهل الاختصاص، ونشر الكتب والدوريات، وعقد الدورات التدريبية، والاستفادة من الفضائيات الإسلامية، وعقد المؤتمرات والملتقيات العلمية، وتزويد طلبة الدراسات العليا بمقترحات رسائل ماجستير ودكتوراه، وإطلاق منتديات للحوار الإلكتروني يشرف عليها ثلة من المختصين.

- التوصية الثانية: يوصي الباحث بضرورة التفات المسؤولين عن وضع وتحديث مناهج المعاهد الشرعية والجامعات إلى ضرورة تخصيص مساق يُعنى بالانتصار للقرآن الكريم، أو على الأقل أن يوجَّهَ المدرسون لإبراز مكانة هذا العلم أثناء تدريس مساق علوم القرآن الكريم، وبخاصة

(١) اعتاد بعض أهل العلم أن يذكروا مبادئ عشرة في مقدمة الكتب التي تقعِّد لأصول علومهم؛ فتعطي القارئ تصوراً عاماً عنها، والمبادئ مجموعة في أبيات الشعر الآتية:

إن مبادئ كل فن عشرة ... الحد والموضوع ثم الثمرة
فضلُهُ ونسَبُه والواضع ... والاسم، الاستمداد، حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومَن درى الجميع حاز الشرفا

انظر: المعالم في أصول الفقه، الرازي، ص٨.

في كليات أصول الدين والدراسات العليا، وتوجيه طلبة الماجستير والدكتوراه للكتابة فيه، فإذا لم ينشغل المختصون بالتفسير وعلوم القرآن الكريم بعلم الانتصار له، فمَن ينشغل؟!

وهذا العلم يشكل مجالاً لأبحاث جديدة لطلبة الدراسات العليا، ويجدون فيه كثيراً من المسائل المستجدة التي لم تبحَث سابقاً، وبهذا تَحَل أبرز مشكلة يعاني منها طالب الدراسات العليا وهي: إيجاد مسائل مستجدة يبحث فيها.

ويقترح الباحث مراعاة ما يلي في المساق المقترح:

* ينبغي أن يكون المساق ضمن مستوى السنة الرابعة، إجبارياً لطلبة بكالوريوس أصول الدين.

* يجب أن يسبق دراسة المساق إنهاء دراسة متطلبين سابقين بنجاح: علم أصول الفقه، وعلوم القرآن الكريم.

* مفردات المساق: يشمل المساق المقترح المفردات الآتية:

أولاً: مقدمات ضرورية تتناول:

١. تعريف علم الانتصار للقرآن الكريم وأشهر كتبه، وبيان نبذة تاريخية حول الطعون المثارة حول القرآن الكريم، والتعريف بالاستشراق ومناهجه والمتأثرين به.

٢. بيان آداب حوار المخالف وضوابطه.

٣. معرفة بعض المرتكزات المنطقية الضرورية للمناظرات وإلزام الخصم، من أبرزها: المقدمات والنتائج، الأغلوطات، التناقض، تحصيل

الحاصل، الدَّور..

٤. توضيح منهج القرآن الكريم في الحوار والجدل.

ثانياً: أمثلة تطبيقية تتناول شبهات مثارة حول مصدر القرآن الكريم وسلامته من التحريف ونقدها، مثل:

١. دعاوى بشرية مصدر القرآن الكريم ونقدها.

٢. دعاوى تدخل الشياطين في مصدر القرآن الكريم ونقدها.

٣. دعاوى تحريف القرآن الكريم ونقدها:

أ) دعاوى طروء التحريف زمن النبوة (مثل: الاحتجاج على ذلك بالقراءات واحتمال نسيانه).

ب) دعاوى طروء التحريف في مراحل جمع وتدوين القرآن الكريم زمن الصحابة (مثل: الاحتجاج على ذلك باختلاف مصاحف الصحابة).

ج) دعاوى طروء التحريف زمن التابعين (مثل: التغييرات المزعومة المنسوبة إلى الحجاج).

د) دعاوى مخالفة عدد من المخطوطات للقرآن الكريم المتداول بين أيدينا (مثل: دعوى تحريف في مخطوطات صنعاء، سمرقند..).

ثالثاً: أمثلة تطبيقية تتناول شبهات مثارة حول محتوى القرآن الكريم ونقدها، مثل:

١. دعاوى تناقض آيات القرآن الكريم ونقدها.

٢. دعاوى اشتمال القرآن الكريم على أخطاء منطقية وتاريخية وجغرافية ولغوية وعلمية.

٣. أساليب القرآن الكريم: فواتح السور، الغريب، القَسَم، المعرَّب، تكرار القصص القرآني..

٤. دعاوى موافقة القرآن الكريم لعقائد خاطئة، (كدعوى احتواء القرآن الكريم على ما يؤيد التثليث، والفداء، وتفضيل سيدنا عيسى على سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، ودعاوى القاديانية..).

٥. دعاوى احتكام التفسير إلى القراءات الحداثية الرمزية، وتاريخية النص..

رابعاً وختاماً: دراسة نقدية للأسس والمرتكزات الفكرية لمثيري تلك الشبهات ومنهجهم في البحث؛ بهدف تكوين ملكة نقدية عند طالب العلم، لذا يكلف كل طالب بكتابة ورقة بحثية حول شبهة مستجدة حول القرآن الكريم ونقدها، ثم تُعرَض على الطلبة للحوار والإثراء.

وفي الختام، أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله مما يُنتفع به، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

- القرآن الكريم.
- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، بيروت، دار الكتب العلمية، (د/ ت.ط).
- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، د. عمر رضوان، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٢م.
- الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى المسلاتي، دار إقرأ، طرابلس، ١٩٨٦م.
- الاستشراق دراسة تحليلية تقويمية، محمد الشرقاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، ١٩٩٧م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، ، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- التبشير والاستشراق، محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، الزهراء للإعلام، القاهرة، ١٩٩١م.
- التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، دار الإرشاد، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر الشهير بابن كثير الدمشقي،

تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.

- التفسير الكبير الشهير بمفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٩٩٤م.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٨٣م.
- دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري، د. عبد المحسن بن زبن المطيري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ، والكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت وأجيزت في دار العلوم، القاهرة.
- طه حسين حياته فكره في ميزان الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.
- علوم القرآن بين البرهان والإتقان، د. حازم سعيد حيدر، دار الزمان، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، دار الرشيد، بغداد، (د/ ت.ط).

- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم، خالد السبت، دار ابن عفان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.
- لسان العرب، محمد بن مكرم الشهير بابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم الحراني الشهير بابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، الرياض، ١٩٨٥م.
- المستشرقون والقرآن، عمر لطفي العالم، مالطا، مركز دراسات العالم العربي، ١٩٩١م.
- المعالم في أصول الفقه، محمد بن عمر الرازي، تحقيق: عادل أحمد وعلي محمود، دار عالم المعرفة، القاهرة، ١٩٩٤م، إعادة تصوير وتوزيع: دار الأهرام، ١٩٩٨م.
- معجم الإيمان المسيحي، صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

- المنجد في اللغة والأعلام، لويس المعلوف، دار المشرق، بيروت، ط٣٧، ١٩٩٨م.
- المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (الشهير بشرح النووي على مسلم)، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الخير، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- وجوب الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، عبد العزيز بن باز، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.

مداخل التفسير عند المفسرين
"دراسة تحليلية تأصيلية"

إعداد
د. طه عابدين طه حمد

د. طه عابدين طه حمد

- أستاذ مشارك بكلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى.
- حصل حصل على درجة الماجستير من قسم التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان ، بحث تكميلي بأطروحته: (قرار المرأة في بيتها وضوابط خروجها في ضوء القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه من قسم التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان بأطروحته: (الأسس العسكرية في القرآن الكريم).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي خصنا بخير كتاب، جعله للحياة نوراً مبيناً، وللرسالةِ برهاناً ودليلاً، وللمؤمنين ملاذاً أميناً، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرةِ الرد، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به رشد، قال تعالى حاكياً عن الجن قولهم: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (الجن:١-٢).

والصلاةُ والسلامُ على الذي أنزلَ على قلبِهِ الطاهرِ الحق المبين، والصراط المستقيم، المشرفُ بقولِهِ تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾(المائدة: ٤٨)، وعلى آلهِ الطاهرين، وصحبِهِ الصادقين، ومن سارَ على دربِهِم إلى يومِ البعثِ والدين.

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١ ــ القرآن الكريم مصدر الهدى والرحمة للناس، وهو يمثل عقيدة الأمة، ومنهجها، وفكرها، وهو سر قوتها، وصمام أمنها، وقائدها إلى الخير. وهو الذي بنى حضارة الأمة ومجدها يوم أن أخذوه علماً وعملاً، ففهموا خطابه، وتحولوا لهديه، وهو الذي يبني مجدها في حاضرها ومستقبلها متى ما أحسنت الأمة التعامل معه، وقد حظي القرآن بعناية فائقة من علماء الأمة في السعي لتلمس هداياته واكتشاف حكمه وأحكامه، مما يستوجب علينا دراسة تلك الجهود دراسة تحليلية وفهمها ليس فقط في مناهجها

وطرقها، واتجاهاتها، بل حتى في المداخل التي سلكها كل مفسر في تفسيره للآيات والسور، لأنها تعتبر عنصراً مهماً في معرفة قيمة التفسير وأثره العلمي، ومن هنا كانت مداخل التفسير ومكوناته من أدق الموضوعات العلمية التي تستحق النظر والدراسة والمراجعة.

٢ ــ المتتبع لحركة التفسير عبر العصور يجد هنالك تطوراً مطرداً في كيفية دراسة المعنى من حيث مداخل التفسير وعناصره التي تناولها العلماء ــ من مفسر لآخر، ومن عصر لآخر ـ فبعضهم نظر في القرآن الكريم من مدخل واحد من مداخل التفسير، كمن نظر إلى المفردات والألفاظ الغريبة، أو المناسبات، والبعض الآخر نظر إليه من عدة مداخل مع تركيزه على جانب معين تميز فيه، والملاحظ أنه كلما تعددت مداخل التفسير، وتطورت آليات الدراسة، وتوسعت ثقافة المفسر؛ توسع فهمه لمعاني القرآن وعلومه؛ ولذلك نجد أن المعاني التي فهمها السلف الصالح لم تتوافر لغيرهم؛ لتمكنهم من علوم التفسير، وتنوع مداخله عندهم، وقد روى الأعمش عن أبي وائل: استخلف عبد اللهّ بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة ـ وفي رواية: سورة النور ـ (ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا)[١].

٣ ــ الطريقة التي سلكها العلماء في تفسير القرآن الكريم من خلال علومه،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري (١/ ٨١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦).

ومداخل كل مفسر للتفسير اختلفت وتنوعت بصورة كبيرة علمياً وعملياً ليس فقط في المداخل ؛ وإنما فيما يقدم ويؤخر من تلك المداخل في خطوات الدراسة حسب المكونات الثقافية لكل مفسر ، وتعليلاته العلمية ، فمنهم من يبدأ مدخله في دراسة الآية أو السورة بدراسة الألفاظ ، ومنهم من يبدأ بأحوال النزول ، ومنهم من يبدأ بما جاء عن فضائل الآية أو السورة ، ومنهم من يبدأ بمناسبة الآية لما قبلها ، حتى أصبح الدارس اليوم لعلم التفسير والناهل من معينه، يحتار بعد معرفته لعلوم التفسير ومناهجه وطرقه ، وتزوده بأدوات المفسر، في ما الذي يبدأ به من مدخل في دراسة الآية أو السورة للوصول للمعنى وفق خطوات عملية تراعي الأولويات، فجاءت هذه الدراسة تبحث كذلك عن أولويات تلك المداخل التي يحسن أن تتبع في تفسير الآية أو السورة ؛ حتى نأتي التفسير من بابه الأمثل، فهل يبدأ المفسر بدراسة المعنى الإجمالي ؟ أم بدراسة معاني الكلمات ؟ أم دراسة الأحكام ؟ فما الخطوات العملية في التفسير؟

٤ ــــ الحاجة الماسة اليوم لمن يدرسون التفسير إلى منهجية تتكامل فيها كذلك تلك الجهود السابقة ، ليس فقط في معرفة المداخل ، وأولوياتها ، بل حتى في عددها وكيفية توظيف كل مدخل ، وأثر ذلك في فهم المعنى وحسن بنائه ، فإن التفسير بالرأي وضع العلماء ضوابطه ولم يضعوا كيفيات محددة لدراسة المعنى ، فقد تجد عند هذا العالم من المداخل والخطوات والكيفيات ما ليست عند غيره ؛ ومن هنا كان لابد لمن يدرس التفسير اليوم أن يكون ملماً بتلك الجهود المباركة التي تكاملت عبر التاريخ من خلال

تلك الجهود المتنوعة ؛ ويحسن توظيفها اليوم في التفسير ؛ وهي جهود لم تجمع وتطبق في دراسة واحدة متكاملة . فجاء هذا البحث مستقرءاً للجهود السابقة في التفسير، وواقفاً على المتفق حوله والمختلف فيه من مداخل التفسير، وما أكد عليه العلماء من تلك المداخل وأولويتها وكيفياتها للتوصل إلى منهجية علمية في دراسة الآية أو السورة لعلها توصل إلى هدايات القرآن بصورة مثلى . فالأمة اليوم تبحث عن تفسير يحسن فيه مدخل التفسير، وتُحكم فيه خطوات الدراسة ، ويراعي فيه أولويات العلوم الخادمة للتفسير وحسن توظيف كل مدخل ، بما يخدم المعنى بصورة متكاملة، ولا يشتت الذهن أو يصرفه عن الهداية والعمل . مع علمي أن مداخل التفسير كثيرة ، وعلومه متنوعة ، والأولويات أحياناً متداخلة ، وأساليب توظيف المداخل متشعبة ، وانتقاء منهج متكامل متوازن أمر ليس بالسهل ؛ ولكنها رؤية نحو الأمثل وليس الأكمل .

ثانياً : مشكلة البحث :

لقد درس العلماء طرق تفسير القرآن الكريم من حيث : تفسير القرآن بالقرآن ، والقرآن بالسُّنة ، والقرآن بأقوال الصحابة والتابعين ـ وسمي فيما بعد بالتفسير بالمأثور ـ وتفسير القرآن باللغة والاجتهاد ـ وسمي التفسير بالرأي ـ وبينوا خصائص كل طريقة وضوابطها .

كما درسوا اتجاهات التفسير بالرأي من حيث: الاتجاه الفقهي، واللغوي، والاجتماعي، والكلامي وغيرها ، وتحدثوا عن خصائص كل اتجاه ومن اعتنى به من المفسرين ؛ لكن المداخل والخطوات التي تمَّ من خلالها تفسير

الآيات والسور لم تجد حظها الكافي من الدراسة ، خاصة وهي مداخل متعددة، وخطوات متباينة في أولوياتها وعددها ، وكيفية توظيف كل مدخل من مفسر لآخر ، ومن عصر لآخر ؛ لأننا من خلال دراستها نستطيع بناء رؤية علمية محكمة في التفسير، نستفيد من جميع المداخل التي سلكها العلماء، والطريقة المثلى في تطبيقها ؛ لأنه بقدر حسن اختيار مداخل تفسير الآية والسورة ، وإحكام أولويات خطوات الدراسة وعددها وحسن توظيف كل مدخل بقدر ما يحسن المفسر بناءه لتفسيره ، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لمعالجة السؤال العام عن : كيف يمكن من خلال استقراء الجهود السابقة تأصيل طريقة منهجية لتناول التفسير يحسن من خلالها المفسر المداخل ، وأولوياتها ، وعددها ، وحسن توظيف كل مدخل؟

ثالثاً : أهداف البحث :

هدف البحث هو دراسة مداخل التفسير عند المفسرين ؛ بهدف تأصيل رؤية علمية عن عناصر الدرس التفسيري تلبي حاجة اليوم ، بحيث تراعي حسن اختيار المداخل في تفسير الآية أو السورة التي أكد عليها العلماء من خلال دراساتهم المتنوعة في التفسير، وأولويات تناول عناصر الدرس التفسيري في أثناء دراسة الآية أو السورة ، وحسن توظيف كل مدخل للوصول لهداية القرآن الكريم بصورة مثلى ومتوازنة ، وحتى نحقق هذا الهدف جاء هذا البحث بعنوان: "مداخل التفسير عند المفسرين ، دراسة تحليلية تأصيلية ".

رابعاً : الدراسات السابقة:

لم أقف ــ في حدود علمي واطلاعي ــ على بحث أو كتاب تحدث عن مداخل التفسير عند المفسرين ، أو عالج فكرة هذا الموضوع وفق هذا المنهج الاستقرائي التأصيلي الذي سلكه هذا البحث ، الذي هدف الباحث منه دراسة المداخل والخطوات التي درس من خلالها علماء التفسير المعنى ، وأولويات تلك المداخل ، وحسن توظيفها .

وقد فتح الله تعالى عليّ بفكرة هذا البحث بعد قراءة متأنية في أغلب ما كتب في مقدمات التفسير ، ومن دراسات عن مناهج المفسرين ، وممارسة طويلة للتفسير تعلماً وتعليماً وقراءة واستماعاً قاربت ربع قرن من الزمان . وهو جهد متواضع في موضوع دقيق كبير آمل أن يسهم في خدمة الأهداف التي رسمت له ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

خامساً : منهج البحث وأداته :

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي والاستنباطي ، وكانت أداته تحليل المحتوى للأدلة ذات الصلة بالموضوع ، التي تم جمعها من خلال ما كتبه العلماء في هذا الفن بغية الوصول إلى أهداف البحث .

سادساً : منهج الباحث :

سلكتُ المنهج العلمي المتفق عليه ، إلا أني اكتفيت في كل نقطة بما يوضِّح فكرتها، وأعرضت عن التعريف بالعلوم والمداخل التي تمَّ التحدث عنها ؛ لأنها علوم ومداخل معلومة لا تخفى على أي مشتغل بالتفسير، كما أعرضت عن ترجمة الأعلام؛ لأن أغلبهم من أئمة التفسير المعروفين حتى

أوفر مساحة لأصل الموضوع الذي هدفت إليه، واكتفيت في كل فكرة بالأمثلة التي توضحها خشية الإطالة غير المرغوب فيها في مثل هذه البحوث .

ثامناً : هيكل البحث :

قسمت هذا البحث إلى مقدمة ، ومبحثين ، وخاتمة ، جاءت مباحثه على النحو التالي :

المبحث الأول: اتجاهات مداخل التفسير عند التفسير .

المبحث الثاني: المنهج المقترح في تناول مداخل التفسير .

وفي ختام هذه المقدمة فإني أسأل الله الإخلاص والتوفيق ، وأرجو بفضله البركة والقبول ، باسمه ابتدئ ، وعليه أتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

المبحث الأول

اتجاهات مداخل التفسير عند التفسير

المتتبع لمسيرة التفسير من حيث النشأة والتطور بعد القرون المفضلة التي تكاملت عندهم آليات الفهم ، يجد تطوراً ملوساً في طرق التفسير واتجاهاته ومداخله وخطواته ، حيث بدأ العلماء في التفسير ببيان المفردات والغريب والمعاني بالمأثور عن الصحابة والتابعين ، ثم مناقشة المأثور والإضافة عليه ، ثم توسع جانب الدراية شيئاً فشيئاً حسب مؤهلات كل مفسر وثقافته، ومؤثرات عصره، فأصبح في الغالب كل عالم يفسر القرآن بحسب العلم الذي برع فيه ، حتى أخذ التفسير اتجاهات متباينة بسبب اهتمام كل مفسر وثقافته الفكرية والمذهبية والعقائدية، فالنحوي اهتم بجوانب الإعراب ووجوهه ، والعقلي اهتم بأقوال الحكماء والفلاسفة ، والشبه التي يثيرونها والرد عليها ، والفقيه اهتم باستنباط الأحكام الفقهية من أدلتها ، والتاريخي اهتم بالقصص ، وأخبار الأمم السابقة ، وهكذا تباينت الاتجاهات وتنوعت.

كما اختلفت طرق التفسير واتجاهاته من مفسر لآخر بحسب اهتمام كل مفسر وأهدافه وثقافته ، كذلك اختلفت أساليب التفسير والخطوات العملية في دراسة الآية أو السورة من مفسر لآخر من حيث مداخل التفسير وأولوياته ، والتوازن في تناول عناصر التفسير، حسب نظرة كل مفسر للمداخل والأولويات التي يُدرس بها التفسير، مما جعل كل تفسير يتميز بمنهج خاص قلّ ما يتطابق مع غيره، وفي الغالب تجد من كتبوا عن مناهج

المفسرين يلاحظون على كل مفسر تميزه في جوانب من هذه العناصر ، وعدم استيعابه لبعض الجوانب الأخرى من خلال طريقته التي انتهجها في تفسيره . فبعد الاستقراء لكثير من التفاسير السابقة نجد أن جهود العلماء في كيفية دراسة الآية أو السورة في الجملة تنقسم من حيث المداخل إلى قسمين ، وهما :

القسم الأول : علماء حاولوا تفسير القرآن الكريم من خلال علم واحد من علوم التفسير، وهو المدخل الذي قصد المفسر خدمة علم التفسير من خلال دراسته .

والقسم الثاني : علماء فسروا القرآن من خلال علوم متنوعة ومداخل متباينة ؛ ولكن زاد اهتمامهم بعلوم دون أخرى ، وبمدخل دون آخر حسب ميول كل عالم وتخصصه ، فإليك الحديث عن بيان كل قسم بشيء من التفصيل .

القسم الأول : التفسير من خلال علم واحد من علوم التفسير :

جعل بعض العلماء دراستهم في التفسير قائمة على علم واحد من علوم التفسير ، كان هو مصدر اهتمامهم، وعليه تنبني دراستهم ومداخلهم في التفسير، كالكتب التي جعلت مدخلها في التفسير واهتمامها منصباً في دراسة غريب القرآن الكريم الذي يعتبر من أول علوم التفسير وأهمها وأكثرها تأليفاً، قال السيوطي ــ رحمه الله ــ: « أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون »(١) مثل ذلك كتاب: تفسير غريب القرآن " لابن قتيبة ، وكتاب

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٨٤) .

"المفردات في غريب القرآن " لأبي القاسم بن الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني ، وكتاب " تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب" ، للشيخ أبي حيان الأندلسي ، وكتاب "تذكرة الأريب في تفسير الغريب"، لأبي الفرج ابن الجوزي ، وكتاب "تفسير غريب القرآن" ، لسراج الدين أبي حفص عمر بن أبي الحسين بن أحمد المعروف بابن الملق ، وغيرها فهذه كتب في تفسير وشرح مفردات القرآن الكريم قلما تتعرض لغير بيان معاني المفردات. ومنهم من جعل دراسته في التفسير متعلقة بفرع من فروع علم الألفاظ ، وهي الكتب التي اختصت بدراسة الألفاظ القرآنية التي تعدد ذكرها في القرآن مع اختلاف معانيها بما يسمى بعلم الوجوه والنظائر، مثل كتاب: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم " لمقاتل بن سليمان البلخي ، والتصاريف : تفسير القرآن مما اشبهت أسماؤها وتنوعت معانيها " ليحيى ابن سلام ، والأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها " للثعالبي ، و" الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز" ، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني ، وغيرها .

ومنهم من جعل دراسته في التفسير مختصرة في المناسبات بين الآيات والسور ، وكشف ما في ذلك من لطائف وأسرار لها أثرها العظيم في فهم المعنى والربط بين الموضوعات المتنوعة في السورة الواحدة ، وبين السور ، مثل كتاب : " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور "، لبرهان الدين البقاعي ، وكتاب: البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي ، وكتاب : تناسق الدرر في تناسب السور ، لجلال الدين السيوطي .

ومنهم من جعل مدخله وهمه منصباً في دراسة المعنى العام بدون تعرض للجوانب الأخرى إلا بصورة نادرة مثل كتاب " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ، وزبدة التفسير، للأشقر ، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف .

ومنهم من جعل مدخله وجهده في التفسير متوجهاً نحو الأسئلة والأجوبة التي تتعلق بغرائب آي التنزيل مثل كتاب تفسير الرازي المسمى بـ "أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل"، لمحمد بن أبي بكر الرازي حيث ذكر فيه ما يزيد عن ألف ومئتي سؤال في التفسير مع إجابتها مرتبة حسب سور القرآن الكريم ، وكتاب فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن ، لشيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري وغيرها . وهكذا سار بعض العلماء فحاولوا أن يخدموا التفسير من خلال المدخل الذي سلكوه وأرادوا معالجته فقط دون التعرض للأوجه والمداخل الأخرى .

القسم الثاني: التفسير من خلال علوم متنوعة من علوم التفسير:

هنالك جهود للعلماء في تفسير القرآن الكريم اهتموا من خلالها بعلوم متنوعة من علوم التفسير حاولوا توظيفها في دراسة الآية أو السورة ، ولكن هؤلاء العلماء تباينوا في مداخلهم للتفسير من خلال تلك العلوم ، وفي حجم العناية بكل علم ، وكيفية توظيفه ، وفيما يقدم من مداخل التفسير وعلومه وما يؤخر في أثناء ممارسة دراسة الآية أو السورة ، حسب ما انطبعت عليه شخصية كل مفسر وثقافته ، والظروف التي أثرت عليه غالباً ، فنجد الزمخشري – رحمه الله – مع أن مدخله غالباً في التفسير يبدأ

بشرح الألفاظ وبيان معاني الكلمات ، ولكن همه كان متوجهاً نحو أسلوب الكلام وما اشتمل عليه من الجوانب البلاغية والدلالات الخفية التي يعرف من خلالها عظمة الكلام، وخصائصه التي تميزه عن غيره، مع تناوله لعلوم أخرى في التفسير . وفخر الدين الرازي - رحمه الله - مع أن مدخله غالباً ببيان مناسبة السورة مع غيرها أو الآيات بما قبلها[1] ، ولكن نجد همه كان متجهاً نحو بيان أصول العقائد ومقارعة الزائغين وإيراد أسئلتهم وإشكالاتهم والرد عليها ، والاستطراد في العلوم الكونية والرياضية والفلسفية وعلم الكلام . والقرطبي ــ رحمه الله ــ مع أن مدخله للتفسير حول النزول والفضائل كما يقول:« وأول مبدوء به الكلام في نزولها وفضلها وما جاء فيها ، وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك»[2]؛ ولكن كان همه إبراز الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات، مع اهتمامه بالعلوم الأخرى، قال في مقدمته: « وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ؛ إلا ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين ، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد ، مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكماً

---

(١) انظر مثال ذلك : بداية تفسير لسورتي الفلق والناس ، وكذلك في الربط بين الآيات سورة البقرة .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٥٢) .

ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل هكذا إلى آخر الكتاب»[١] ، وأبو حيان الأندلسي – رحمه الله – مع أن مدخله في التفسير دراسة الألفاظ حيث يقول:« وترتيبي في هذا الكتاب : أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب »[٢] ؛ ولكن كان همه جوانب الإعراب وبيان وجوهه المحتملة . ومحمد رشيد رضا – رحمه الله – في تفسيره المنار مع أنه جعل مدخله ببيان وقت نزول السورة ، وذكر خلاصة عن مضمونها ووجه اتصالها بما قبلها[٣]؛ ولكن كان همه منصباً نحو معالجة الواقع ، وبيان سنن الله تعالى في الخلق والاجتماع البشري ، وأسباب رقي الأمم وتدليها ، وقوتها وضعفها، مع التعرض للفوائد التي تلبي حاجة العصر من خلال التفسير، وفي هذا يبين بأنه استطرد في "تحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس، وأستحسن للقاري أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير، لتدبر القرآن في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته، وتجديد شباب ملته»[٤]، وابن

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (١/ ٣) .

(٢) تفسير البحر المحيط لمحمد الأندلسي (١/ ١٠٣).

(٣) انظر : مقدمة تفسيره لسورة البقرة ، وآل عمران والنساء والمائدة وغيرها .

(٤) تفسير المنار (١/ ٢٠) .

عاشور -رحمه الله - وإن كان مدخله بعد المقدمات التي تتعلق باسم السورة وفضلها وزمان نزولها يتكلم عن محتويات السورة وأغراضها ؛ ولكن كان مع اهتمامه بجوانب البلاغة اهتمامه الكبير بالمناسبات، فقد قال في مقدمة تفسيره: «وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع» [1]، وهكذا كان التباين بينهم في وجوه التفسير .

كما أن كيفية اختيار وتطبيق المداخل اختلفت من عالم لآخر، فمنهم من حدد طريقته ووصف منهجه في مقدمته ثم حاول تطبيقه من خلال تفسيره قدر الإمكان ، وهذا هو الغالب في كتب التفسير، وهنالك تفاسير لم تلتزم بطريقة واحدة في أسلوب التفسير، خاصة تلك التي جمعت من دروس بعض العلماء ، لأنها تأثرت بأحوال المستمعين ، واختلاف الأحوال التي فسر بها المفسر، ومن هنا تنوعت المداخل التفسيرية من موضع لآخر ، يقول الشيخ محمد عبده - رحمه الله -: « وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين ؛ لأنني لا أطالع عندما أقرأ لكنني ربما أتصفح

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨) .

كتاب تفسير إذا كان هنالك وجه غريب في الإعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فإذا حضرني جماعة من البلداء الخاملين الفكر أحُلُّ لهم المعنى بكلمات قليلة، وإذا كان هنالك من ينتبه لما أقول ويلقي له بالاً يفتح عليّ بكلام كثير» [(١)] .

كما أن هذه العلوم والمداخل التي استقرت اليوم في التفسير لم تجتمع كلها في عصر واحد ؛ بل هنالك علوم تخوف العلماء من طرح بعضها في فترة من الفترات، ثم برز ذلك العلم والمدخل في عصر آخر، وأصبح له مكانته وأهميته كما نقل صاحب البرهان عن القاضي أبي بكر بن العربي -رحمه الله- قوله في "سراج المريدين" وهو يتحدث عن دراسة وجوه المناسبات في عصره فيقول : «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله ﷻ لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»[(٢)]، وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني - رحمه الله - : « وهو أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة

(١) تفسير المنار (١/ ١٨) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٥٣) .

في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزدري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»[1]، ثم جاء الرازي – رحمه الله – فأظهره في تفسيره، وبيَّن أن أكثر لطائف القرآن مودعة فيه ، ثم جاء البقاعي – رحمه الله – فأفرده بالتأليف ، وجعله علماً بارزاً من علومه ، ووجهاً من أوجه تفسيره ، وما زال العلماء إلى يومنا هذا يكتشفون وجوهاً جديدة في التناسب حتى وصل الأمر إلى الاهتمام بالتناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة.

وكذلك هذه العلوم والمداخل كما اختلف العلماء في اهتمامهم بها وتناولهم لها في تفاسيرهم اختلفوا وتباينوا فيما يقدم من علم وما يؤخر في دراسة المعنى ، فمنهم من يقدم الفضائل ويجعله المدخل للتفسير ومنهم من يؤخرها ، قال الزركشي – رحمه الله –:«جرت عادة المفسرين ممن ذكر فضائل القرآن أن يذكرها في أول كل سورة لما فيها من الترغيب والحث على حفظها إلا الزمخشري فإنه يذكرها في أواخرها»[2]، ومنهم من يبدأ بسبب النزول؛ لأن السبب مقدم عنده على المسبب يقول الزركشي – رحمه الله –: «قد جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول»[3]، ومنهم من يبدأ بالمناسبات؛ لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة عليه، ومنهم من يرى أن المفسر يبدأ بالألفاظ، كما يقول السيوطي – رحمه الله –:«يجب عليه

(١) المصدر السابق (١/ ٥٣) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٣٢) .

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٤) .

البداءة بالعلوم اللفظية»[١]، وهكذا فيما يليه في الدراسة تجد اختلافاً وتبايناً كبيراً بين مفسر وآخر في أولويات المداخل وما يتبعها من خطوات الدراسة.

كما أن تلك الدراسات التي تمت من خلال بعض العلوم والمداخل لم تكن مستوفية للمطلوب أو متطابقة ، حتى من درس التفسير من خلال علم أو مدخل واحد من مداخل التفسير لم يستوعب ذلك المدخل بكل مكوناته ، فضلاً عمن درسه من مداخل متعددة ولم يستوعب عناصر وعلوماً مهمة في الدراسة ، مثال ذلك : كتب المفردات تباينت فيما بينها بصورة كبيرة في كيفية الدراسة من حيث الترتيب ، والمضمون ، والطريقة ، فمنهم من رتبها على حسب السور، ومنهم من رتبها على حسب حروف المعجم ، ومنهم من يشير إلى الآية التي وردت فيها الكلمة ، ومنهم من لم يشر، ومنهم من يذكر الشواهد واختلاف الآراء ومنهم من لم يذكرها ، ومنهم من ينسب الأقوال لقائليها ومنهم من لا ينسبها ، ومنهم من يتعرض لاختلاف القراءات المتواترة حتى أدخل القراءات غير المتواترة أحياناً ، ومنهم من لم يتعرض واكتفى بقراءة واحدة ، ومنهم مختصر مخل في اختيار الغريب ، أو شرحه بوجه واحد من أوجه معاني اللفظة ، ومنهم مطول حتى أسهب في شرح المفردات ، أو في الجمع والاستيعاب واستقصاء الأقوال ، أو أدخل أموراً ليست متعلقة بدراسة الألفاظ ، ومنهم من جعل دراسة الغريب فقط

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٨) .

في غريب اللفظ ، ومنهم من تناول غريب اللفظ والمعنى حتى تناولوا غريب الأسلوب والإعراب ، وهكذا تجد التباين الكبير في الأسلوب الواحد من مصنف لآخر، والتميز في جانب آخر في كل كتاب ، فكل كتاب تميز في الجوانب التي كانت هدفاً لمؤلفها ، وأصبح مرجعاً مهماً في مجاله ، ونقص في الجوانب الأخرى لم تكن مقصداً لمؤلفها ولا موضع اهتمامه عند تأليفه ، ولكن نجد أن هذه التفاسير بمجموعها استوعبت الكثير من علوم القرآن ومداخل تفسيره ، والذي ينقصها اليوم هو محاولة جمعها في مشروع يكامل بينها ، فإن جهود البشر يكمل بعضها بعضاً؛ خاصة في مجال علوم القرآن الذي لا يمكن أن يحيط بها أحد حتى في الوجه الواحد ، قال سهل ابن عبد الله التستري ــ رحمه الله ــ: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة»[1].

كما أن التباين بين العلماء في كيفية تناول مداخل التفسير مع ما حققه من خدمة كبيرة للعلوم الشرعية واللغوية من جهة ؛ فقد كان من جهة أخرى عبئاً كبيراً على التفسير ، بسبب ما صحبته تلك الدراسات من توسع وتفريعات في جوانب ليس مكانها كتب التفسير ؛ وإنما مكانها كتب الفقه

(١) البرهان في علوم القران (١/ ٩) .

واللغة والعقيدة وغيرها ، فقد كان نتيجة هذا التوسع من بعض العلماء في طرح بعض العلوم والمداخل على حساب التفسير والمعنى الذي ينبغي أن يستقر في القلوب ، فتجد النحوي توسع في مباحث الإعرابِ وما يحتملُه اللفظُ من وجوهٍ نحويةٍ حتى كأن القرآنَ نزلَ لهذا كما فعلَ أبي حيان الأندلسي في تفسيره "البحر المحيط". وتجد الفقيه توسع في استنباط الأحكامِ الشرعيةِ من عباداتٍ ومعاملاتٍ ، ودخل في خلافات المذاهب، وإيراد الفروع الفقهية وفق مذهبه مع الرد على من خالفه من أصحاب المذاهب الأخرى كما فعل الجصاص الحنفي - رحمه الله - في "أحكام القرآن"، والقرطبي المالكي في "الجامع لأحكام القرآن" حتى أخذ التفسيرُ طابع الفقه، وكذلك التاريخي اهتم بالقصص ، وأخبار الأمم السابقة ،كما فعل الثعلبي والخازن -رحمهما الله - حتى أخذ تفسيرهما طابع الروايات التاريخية ، حتى أصبح هنالك عدم توازن في تناول العلوم والعناصر التي يتم من خلالها دراسة التفسير ، وأصبح ملحظاً يحتاج إلى دراسات لمعالجته . يقول الأستاذُ محمد رشيد رضا: « كان من سوءِ حظِ المسلمين أن أكثرَ ما كُتبَ في التفسيرِ يشغلُ قارئَه عن هذهِ المقاصدِ العالية، والهداياتِ السامية، فمنها ما يشغلُه عن القرآنِ بمباحثِ الإعراب وقواعدِ النحو ونكتِ المعاني ومصطلحاتِ البيان، ومنها ما يصرفُه عنه بجدلِ المتكلمين، وتخريجاتِ الأصوليين، واستنباطاتِ الفقهاءِ المقلدين وتأويلاتِ المتصوفين، وتعصبِ الفرقِ والمذاهبِ بعضُها على بعض، وبعضُها يلفته عنه بكثيرِ الروايات، وما مزجت به من خرافاتِ الإسرائيليات، وقد زادَ الرازيُّ صارفاً آخر عن

القرآنِ هو ما يورده في تفسيرهِ من العلومِ الرياضية والطبيعيةِ وغيرِها من العلومِ الحادثة في الملةِ على ما كانت عليه في عهده»[1] .

فهذا التباين الكبير في مداخل التفسير وأولوياتها فيما يقدم ويؤخر من مداخل ، وفي حجم العناية بكل مدخل ، وفي كيفية توظيفه جعل الدارس اليوم والناهل من علم التفسير يبحث عن رؤية علمية مؤصلة يسير عليها في التفسير تراعى فيه الصورة المثلى لمداخل التفسير من خلال علومه ، وأولويات تلك المداخل والعلوم في ما يقدم وما يؤخر منها في دراسة الآية أو السورة للوصول إلى الهدايات، كقولنا على المفسر أن يبدأ بدراسة المفردات، ثم يتكلم عن المعنى العام، ثم يبين الأحكام وفق منهجية مرتبة حسب الأولويات، ومتوازنة بحيث لا يطغى فيها جانب على جانب ، فهذا هو الذي هدفنا إلى معالجته من خلال المبحث القادم بإذن الله تعالى .

(١) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (١/ ١٣) .

المبحث الثاني
المنهج المقترح في تناول مداخل التفسير

بعد الاستقراء لجهود العلماء التي بذلت عبر التاريخ في كيفية تناول تفسير القرآن الكريم عبر مداخلهم المختلفة ، وكيف تطورت تلك الجهود وتكاملت ، وتنوعت ، توصل الباحث إلى عشرة عناصر إجمالية تمثل المنهج الأمثل في تناول التفسير من حيث المداخل في أولويتها وتسلسلها ، وتكاملها ، وتوازنها ، حتى يكون المفسر مستوعباً لكل عنصر الدرس التفسيري ، وتعين على فهم متجدد لمعاني القرآن الكريم الذي أمر الله العالمين بتدبره ، لما فيها من معانٍ لا تنضب وحكم لا تنقضي، فإن هدايات القرآن كلما تدبرها العبد بدقة وشمول يجد العقل بغيته ، والسقيم شفاءه ، والضال هديه .

وقد بينت باختصار كل عنصر ينبغي أن يتبع في الدراسة ، وأهميته ، وكيفية تطبيقه ، مع ذكر نماذج تطبيقية له، مرتبة حسب الأولويات، في صورة أقرب إلى الإجمال في المطالب التالية حتى نعطي صورة كلية للموضوع ، مع أن كل عنصر يحتاج أن يفرد بدراسة خاصة تستوعبه من كل الأوجه .

المطلب الأول : دراسة أسماء السورة وفضائلها وأحوال نزولها :

هنالك مقدمات ثلاث درج العلماء على دراستها قبل الحديث عن ما ورد في السورة من معان وأحكام ، وهي دائماً تأخذ أولوية متقدمة في الدراسات التفسيرية للسورة ، وقلّ ما تجد من لم يقدمها ويبدأ بها في تفسير السورة ، وهي تتلخص في ثلاثة أمور :

أولها: الحديث عن أسماء السورة: لقد اختصت كل سورة من القرآن باسم خاص[1] ، أو بعدد من الأسماء ، تميزها عن غيرها ، وقد تشترك عدد من السور في اسم واحد كالبقرة وآل عمران تسميان "الزهراوين" ، والفلق والناس تسميان "المعوذتين" ، وهي أسماء توقيفية ليس للاجتهاد في ذلك مجال ، قال السيوطي - رحمه الله -: « وقد ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك» [2].

وهي أسماء لها ارتباط وثيق بما دلت عليه السورة أو ما حوته من معان وهدايات، وهي تترجم في الغالب عن مضمونها ؛ ولذلك كانت أسماء السور موضع اهتمام العلماء في دراستهم للسورة؛ بل تعددت أسماء السور بحسب شرفها، فالفاتحة تعددت في أسمائها لشرفها وفضلها ، وقد جاءت

(١) جمهور العلماء يرون أن أسماء سور القرآن الكريم توقيفية عن النبي ﷺ ، حيث جعل النبي ﷺ لكل سورة اسماً خاصاً بها ، والروايات الكثيرة تشير بذلك . انظر : أسماء سور القرآن وفضائلها ، د . منيرة محمد ناصر الدوسري (ص :٧٣) .

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٦٦) .

أسماؤها مرتبط بمعانيها وأحكامها ، وقد حاول العلماء الربط بين معاني السورة وأسمائها، مثال ذلك من أسماء سورة الفاتحة "أم القرآن" كما جاء عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:(لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْتَرِئْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ)(١)، قال الطبري – رحمه الله – : « وسمّيت "أم القرآن" لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخُّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب ، وإنما قيل لها –بكونها كذلك– أمَّ القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمرًا –أو مقدِّمٍ لأمر إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامع– "أمًّا"»(٢). وقال البيضاوي – رحمه الله – : «وتسمى أم القرآن لأنها مفتتحه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمى أساسا. أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء »(٣).

ومن أسمائها "القرآن العظيم" كما جاء عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا ، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ)(٤) . قوله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ، باب : وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ح رقم ٩٠١ .

(٢) جامع البيان في تأويل أي القرآن (١ / ١٠٧).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي (١ / ٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ح رقم ٨٦٦٧ ، والنسائي في السنن الكبرى ح رقم ٤٣١٦ ، =

ﷺ عن الفاتحة:(الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)[1]. قال العلماء: وسميت "القرآن العظيم": لأنها أعظم سورة فيه ، ولاشتمالها على مقاصده الأساسية ، قال القرطبي : «سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ؛ وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله ﷻ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم وكفاية أحوال الناكثين وعلى بيانه عاقبة الجاحدين»[2]، وقال السيوطي - رحمه الله -: «وسميت بذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن»[3]. وهكذا يحاول العلماء الربط بين أسماء السور ومضامينها ، وهو موضوع يحتاج أن يفرد بالدراسة والبحث لبيان جهود العلماء في محاولة الربط بين أسماء السور ومضامينها.

ثانيها: ما صح في فضل الآية أو السورة : هنالك آيات وسور ورد فيها بعض الفضائل في أحاديث صحيحة ، على المفسر ذكرها والاستفادة منها في بيان معنى الآية أو السورة في موضعها ، فمن عرف فضل سورة الفاتحة أو

= والترمذي ح رقم ٢٨٧٥ ، والبيهقي في السنن الكبرى ح رقم ٤١٢٤ ، والحاكم في المستدرك ح رقم ٢٥٨ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن ، باب : فاتحة الكتاب ح رقم ٤٤٧٤ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن الجوزي (٤ / ٤١٣) .

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٣٤) .

الإخلاص جد في حفظها وفهمها لما نالتاه من خصوصية ، قال الزركشي ـ: « قد جرت عادة المفسرين ممن ذكر الفضائل أن يذكرها في أول كل سورة لما فيها من الترغيب والحث على حفظها »(١) ، والعلماء دائماً يحاولون الربط بين ما ورد من فضائل ومعاني السورة، مثال ذلك ما ورد عن فضل سورة الفاتحة كما جاء في حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى ﷺ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِّ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِّ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: (أَلَمْ يَقلْ اللهُّ ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ لِي: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ : أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : (الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)(٢). قال ابن حجر العسقلاني ـــ رحمه الله ـــ: "والمراد بالعِظَم عظم القدر بالثواب المترتب على قراءتها ؛ وإن كان غيرها أطول منها ؛ وذلك لما اشتملت عليه من المعاني المناسبة لذلك"(٣)، وقال القرطبي: « والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها لا من حيث الصفة وهذا هو الحق"، وأن ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾(البقرة:١٦٣)، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر،

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب : فاتحة الكتاب ح رقم ٤٤٧٤ .

(٣) فتح الباري (٩ / ٥٤).

وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجوداً مثلاً في ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾(المسد:١) وما كان مثلها» [(١)].

ثالثها : أحوال نزول السورة :

المفسر لكلام الله في حاجة مستمرة إلى استصحاب الأحوال والقرائن التي نزل فيها القرآن، ومعايشة تلك الأحوال ، خاصة وقد كان نزوله متوافقاً مع ظروف وحاجات الدعوة والوقائع والأحوال التي مرت بها، وبذلك يحسن فهم الآية وإنزالها في الواقع ، فمعايشةُ أحوال نزول القرآنِ الكريمِ مِنْ أعظمِ السُّبُلِ إلى فهمه وإدراك معانيه وحِكَمِهِ . قال الواحدي – رحمه الله –: « يمتنع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[(٢)]. وهو من الأسباب التي بها تقدم فهم الصحابة للقرآن الكريم. وقال الشاطبيُّ– رحمه الله – في بيان سبب نبوغ الصحابة في التفسير أنه يرجع إلى أمرينِ : «أحدهما: معرفتهم باللسان العربي فإنهم عرب فصحاء لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم ...والثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة ، فهم أقعدُ في فهمِ القرائنِ الحاليَّةِ وأعرفُ بأسبابِ التنزيلِ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائبُ...»[(٣)]. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا

(١) الجامع لأحكام القرآن (١ / ١١٠) .

(٢) أسباب النزول، الواحدي (ص : ٢) .

(٣) الموافقات ، الشاطبي (٣ / ٣٣٨) .

- رحمه الله -: «فيجب على المفسر: أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم ؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال ، وأن النبي ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه » [(١)].

ولفهم أحوال النزول أكد العلماء على دراسة وقت نزول السورة خاصة قبل الهجرة أم بعدها؛ لأن لكل فترة خصائصها الموضوعية، وأكدوا على معرفة أسباب النزول لأن بعض الآيات متوقف معرفتها في كثير من الأحيان على معرفة مقتضيات الأحوال ، وحال المخاطب والخطاب، والجهل بأسباب النزول يوقع المفسر في الإشكالات، سأل بُكير نافعًا مولى ابن عمر: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية ؟ قال: «يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين»[(٢)]، فمعرفة سبب النزول يدلك على المعنى الصحيح ، ويدفع ما يقع من إشكال. كما أكدوا على أهمية دراسة سيرة النبي ﷺ في أحواله المختلفة في السلم والحرب وغيرها للمفسر لمعايشة أحوال النزول، قال السعدي - رحمه الله-: « فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع

(١) تفسير المنار (١/ ٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب: استتابة المرتدين ، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، وقال ابن حجر: وسنده صحيح. انظر الفتح (٨/ ٣) .

أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها »[1].

وقال في تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام:« اعلم أن سيرة نبينا محمدﷺ أعظم عون على معرفة تفسير كتاب الله، والقرآن إنما كان ينزل تبعا لمناسبات سيرته، وما يقوله للخلق، وجواب ما يقال له ، وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به، وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها، وهذا من حكمة إنزاله مفرقاً، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾(الفرقان:٣٢ ـ٣٣). وقال تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(هود:١٢٠). فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات ، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون عونا في هذا المقام»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٣٠) .

(٢) (٢/ ١) .

المطلب الثاني : الكشف عن مقاصد السورة وأغراضها وموضوعاتها[(١)]:

الكشف عن مقاصد السورة وأغراضها والموضوعات التي تتناولها ، من المداخل المهمة والمفاتيح الأساسية في فهم السورة القرآنية ؛ فعلى المفسر أن يستجمع معاني السورة للوصول إلى مقاصدها وأهدافها، وموضوعها البارز، ومحاورها المتعددة ، فالسورة «مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل ببعض في القضية الواحدة »[(٢)]. فدراسة نظم السورة ، ووحدتها الموضوعية من أعظم الأسباب المعينة على دقيق الفهم « فكلُّ من غفل عن نظام الآيات أو تناولها تناولاً قاصراً عابراً لا يمكنه أن يستمتع بجمال القرآن، ولا يمكنه أن يدرك ميزته التي تخصه من بين سائر أنواع الكلام»[(٣)] ، ولذا قال ابن عاشور - رحمه الله -: « ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه

---

(١) هذا المحور من حيث الدراسة يؤخره العلماء لحين استيفاء معاني السورة كما نصوا على ذلك ، ومن حيث الكتابة والتأليف يقدمه العلماء بعد الحديث عن أسماء السورة وفضائلها وأحوال نزولها .

(٢) النبأ العظيم ، الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٩٩ .

(٣) البرهان في نظم القرآن ، محمد عناية الله أسد سبحاني ص٢٢ .

وتحجب عنه روائع جماله » [1].

ومقاصد السور يراد به: الموضوعات التي تدور عليها آيات السورة ؛ فكل سورة في القرآن الكريم لها موضوعها البارز الذي في الغالب تدور حوله الآيات والمعاني التي في السورة ، فإذا عُلم موضوع السورة ، ومحاورها التي تشمل موضوعات السورة الأخرى ؛ سهل فهم السورة وتفسيرها، وظهرت دلالات أخرى من المعاني لا يمكن الوصول إليها إذا درست الآيات مجردة عن مقاصد السورة وأغراضها وموضوعاتها. وهو من العلوم التي يعرف بها عظمة السورة ومكانتها ؛ فعلى قدر مقاصد كلّ سورة تكون عظمتها ، فالفاتحة أعظم سورة في القرآن ؛ لأن مقصدها "تحقيق العبودية لله" وهو أعظم مقصود ، ومن فهم محاورها سهل عليه فهم معانيها ، حيث تدور في ثلاثة محاور : الأول في التعريف بالمعبود الحق ﷻ في قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، والمحور الثاني : معرفة كيفية عبادته من الإخلاص والاستقامة على الصراط المستقيم الذي بهما يكون القبول ، والاستعانة بالله التي بها يكون التوفيق ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وأن المحور الأخير جاء في عاقبة من عبده ومن عصاه ممن أنعم الله عليهم وممن غضب عليهم في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨) .

وهو علم لا يمكن التوصل إليه إلا بعد استيفاء دراسة آيات السورة، ومعرفة مناسباتها، وموضوعاتها ، يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله –: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها»[1]. فالسورة أحياناً تكون عدة صفحات في قصة معينة تحمل دلالات متنوعة لكنها تخلص في نهايتها إلى هدف محدد. وقد أفرد برهان الدين أبو الحسن إبراهيم ابن عمر البقاعي الشافعي هذا الموضوع بالدارسة في كتابه " مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ" ، يمكن الرجوع إليه.

المطلب الثالث : دراسة مفردات القرآن الكريم وغريبه :

علم مفردات القرآن وغريبه، هو العلم الذي يعتنى فيه فيما يشكل من القرآن ويحتاج فهمه إلى شيء من العناء ، وهو العلم الذي يبدأ به المفسر فهم كلام الله ، ولا يمكن فهم المعاني الأولية في الآية بدون معرفته ، فمن قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ (المعارج :٣٦ – ٣٧) فلا يمكن أن يفهم معنى هاتين الآتين ما لم يعرف معنى "مهطعين" و"عزين"، ولأهميته وأثره كثرت فيه مصنفات

(١) الموافقات ، الشاطبي (٣/ ٤١٥) .

فحول العلماء . قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله -: « إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبين »[1]، وفي هذا يقول أبو حيان الأندلسي - رحمه الله - في شرحه لمنهجه في تفسيره : « وترتيبي في هذا الكتاب أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه ثم أشرع في تفسير الآية »[2] ، وقال السيوطي - رحمه الله - وهو يتحدث عن العلم الذي يبدأ به المفسر فقال:« ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة فيتكلم عليها من جهة اللغة ثم التصريف ثم الاشتقاق»[3].

وقد بين أبو حيان - رحمه الله - أهمية هذا العلم للمفسر، وأن من عرفه فتح عليه باب التفسير فقال: «ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسن

(١) المفردات في غريب القرآن (١/ ١٠) .

(٢) البحر المحيط (١ / ٥) .

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٧).

تركيبها وقبحه فلن يحتاج في فهم ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهم ولا معلم ،وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه فلذلك اختلفت أفهامهم وتباينت أقوالهم »[١] .

والمفسر في دراسته لعلم المفردات ينبغي أن يسير على المنهج القويم الذي رسمه العلماء لكل مفسر ، فإذا جاء في معنى لفظة عن النبي ﷺأو الصحابة معنى لا يعدل إلى غيره من أقوال أهل اللغة ، فنجد ابن جرير الطبري -رحمه الله – وغيره إذا ذكروا تفسيراً للفظة يستشهد على ذلك بما يرويه عن الصحابة والتابعين ، وإذا رجع إلى أهل اللغة لابد أن يلاحظ المعنى المشهور والأظهر والأفصح في اللغة وأساليب العرب في الخطاب ، ولذلك تجد المفسرين يستشهدون بالشعر العربي ليثبتوا استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه ، مع مراعاة موافقة المعنى المختار للسياق الذي ورد فيه ، لأن اللفظ قد يستعمل في معانٍ مختلفة يميزه السياق الذي ورد فيه ، وإذا اختلف المعنى الشرعي والمعنى اللغوي فيقدم المعنى الشرعي أولاً ويحمل عليه ما لم تقم قرينة تحمله على المعنى اللغوي ، قال ابن تيمية – رحمه الله-: « ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺلم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس

(١) البحر المحيط (١ / ٦) .

والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(النساء:١٩) ونحو ذلك ... فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول ﷺما يراد بها في كلام الله ورسوله، وكذلك لفظ الخمر وغيرها ، ومن هناك يعرف معناها ، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبيﷺ لم يقبل منه ، وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام ، وهو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا»[١] .

المطلب الرابع : دراسة وجه التناسب بين الآيات :

من العلوم المهمة المقدمة في دراسة التفسير التي تكشف للدارس الكثير من معاني القرآن ولطائفه وروائعه النظر في وجه التناسب بين الآيات سابقها ولاحقها ، بل بين فقرات الآية الواحدة ، فهو خير معين في فهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه استنباطاً، أو اختياراً، أو ترجيحاً؛ ولذلك قال الزركشي : «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[٢] ،

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية (٧/ ٢٨٧) .

(٢) البرهان في علوم القرآن (١ / ٣٧) .

وقال ابن القيم – رحمه الله – في بيان أهمية السياق في فهم المعنى :« السياق يرشد إلى بيان المجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير »(١).

فالنظر في سياق الآية ومناسباتها لما قبلها وما بعدها من الأمور المهمة للمفسر «فمن خلاله يستعين على فهم المعنى ، أو الترجيح بين الآراء في ضوء السياق ، أو إزالة لبس أو إشكال ، أو دفع إيهام ، أو معرفة الحكمة من إيراد القصص القرآني ، أو غير ذلك من الفوائد»(٢)، فهو خطوة مهمة للوصول إلى معاني الآية أو السورة ، وإهماله يؤدي إلى دراسة تفسيرية يشوبها النقص والخلل ، كما جاء عن عكرمة أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوماً يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا ﴾(المائدة:٣٧) فقال: ويحك ، اقرأ ما فوقها. هذا للكفار)(٣) .

وهو علم في الدراسة يقدم في الأصل حتى على سبب النزول ، قال

(١) بدائع الفوائد (٥/ ١١) .

(٢) موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات (١ / ١٥) .

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٠/ ٢٩٤) .

الزركشي : « قد جرت عادة المفسِّرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول ، ووقع البحث في أنه : أيهما أولى بالبداءة؟ أيُبدأ بذكر السبب ، أو بالمناسبة لأنها المصحِّحة لنظم الكلام ، وهي سابقة على النزول ؟ قال: والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفاً على سبب النزول كآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨) فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب ، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد ، وإن لم يتوقف على ذلك ، فالأَوْلى تقديم وجه المناسبة»[(١)].

ودراسة علم المناسبات باب واسع بعضه متعلق بموضوع السورة ، وبعضه بين اسم السورة وموضوعها أو موضوعاتها ، أو فاتحة السورة لخاتمتها ونحو ذلك من الوجوه الكثيرة التي تكلم عنها العلماء ؛ ولكن نحن هنا نتكلم عن الحد الذي لابد من دراسته في أثناء دراسة الآية ، وهو التناسب بين الآيات الذي من خلالها يضبط فهم الألفاظ والمعاني والأحكام ، وذلك لأن «الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض ، أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل»[(٢)].

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٧٩) .

المطلب الخامس : دراسة المعنى العام للآية أو السورة :

إذا درس المفسر الألفاظ وفق السِّياق الذي وردت فيه ، فإنه ينطلق إلى فهم المعنى العام للآية ، وهو ما يسمى بالتفسير الإجمالي ، ملتزماً للمعنى المختار في دلالة الألفاظ ، ويكون هدف المفسر الوصول للمعاني الكلية للآية بدون تفصيلات فيما يتعلق بالأحكام ، أو ما يستنبط من الآية من فوائد ، ولهذا عرف العلماء التفسير الإجمالي بقولهم:« هو التفسير الذي يكتفي المفسر فيه بعرض المعنى للآية أو الآيات عرضاً إجمالياً موجزاً دون توسع أو تفصيل »[١].

والمعنى العام للآية هو وجه من وجوه التفسير المهمة الذي مارسه العلماء في تفاسيرهم ، كابن جرير وابن كثير ، فكثيراً ما يذكرون المعنى الإجمالي للآية، فنجد غالباً ما يبدأ ابن جرير تفسيره بذكر المعنى العام فيقول : القول في تأويل قوله جل ثناؤه كذا وكذا ثم يذكر ما يؤيده مما ورد عن الصحابة والتابعين ، ومنهم من جعله وجهاً لتفسيره ، فبنى تفسيره على المعنى الإجمالي مثل: كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن ابن ناصر السعدي ، وزبدة التفسير، للأشقر، والتفسير الميسر لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة النبوية ، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف. ومنهم من جعله وجهاً بارزاً ضمن الأوجه التي سلكها في تفسيره وأفرده بعنوان خاص ، حيث اتبع دراسة المفردات ببيان المعنى العام قبل

(١) انظر : التفسير والتأويل في القرآن الكريم ، د . صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص:١٣).

دراسة الأحكام كالجزائري في تفسيره "أيسر التفاسير" ، ومثل التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم الذي نفذته جامعة الشارقة تحت إشراف مصطفى مسلم ، والطنطاوي في تفسيره الوسيط .

وأهمية هذا النوع من وجوه التفسير تكمن في عدة جوانب من ذلك : أنه يجعل معاني القرآن الكريم في متناول الجميع ، وهو يبرز المعنى الأول الذي صيغت الألفاظ من أجله، قال الشاطبي ــ رحمه الله ــ: « الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم ؛ بناءً على أن العرب كانت عنايتها بالمعاني ، وإنَّما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنَّما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضاً كل المعاني ، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوماً دونه »[1]. كما هو يمثل الحد الأدنى المطلوب فهمه من خطاب القرآن الذي جعله الله للناس جميعاً، يقول الأستاذ محمد رشيد رضا : «فالتفسير مراتب أدناها: أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير . وهذه التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد"»[2] ، وهو يمهد لما يستتبع من دراسات تفصيلية للآية أو السورة للتدرج بالفهم حتى لطلاب العلم ، يقول الشيخ سيد طنطاوي في تفسيره "هذا هو المعنى الإِجمالي للآيات الكريمة سقناه قبل

(١) الموافقات (٢/ ٣٩٦) .

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٣) .

تفصيل القول في تفسيرها حتى يتهيأ الذهن لفهمها بوضوح"[١]، كما أنه يعطي خلاصة الآراء والأفكار وفق الراجح والمختار بدون تطويل أو دخول في تفاصيل وفرعيات، وهو من أنسب أوجه التفسير للترجمة، وعامة الناس.

فيكفي المسلم وهو يقرأ في مقدمة سورة البقرة أن يعلم أنها حوت خمسة أوصاف للمتقين تتلخص في الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق، والإيمان بالقرآن وما أنزله الله من كتب سابقة، مع اليقين بالآخرة، وأن الذين اجتمعت فيهم تلك الصفات هم المتقون الذين منَّ الله عليهم بالهداية والفلاح في الدنيا والآخرة.

وفهم المعنى العام يسهل فهم القرآن للناس، ويسهل على كل مسلم معرفته إذا كان له علم باللسان الذي نزل عليه القرآن الكريم، ومن هنا اعتنى به العلماء وجعلوه وجهاً مهماً من وجوه التفسير التي لها دورها وأثرها في فهم القرآن الكريم.

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي (١/ ١٣٩٨).

المطلب السادس : دراسة الأحكام[1] الشرعية التي دلت عليها الآية:

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول وأساس الهدى والرحمة ، ومن أهم ما يجب على كل مسلم تعلمه وفهمه من كتاب الله تعالى تعلم أحكام دينه التي يتعبد الله تبارك وتعالى من خلالها ، ومن هنا كانت دراسة وإبراز الأحكام الشرعية التي وردت في الآية دائماً في أولويات المفسر فيما يقصده لنفسه ويقدمه للناس « ليعبدوا ربهم باعتقاد الحق ، وبالعمل بما شرُع دون ما ابتُدع ، مُزكّين نفوسهم بذلك مكملين آدابهم مهذبين أخلاقهم بما أودع الله جل جلاله كتابه من مناهج التربية الروحية والأخلاقية والآداب النفسية »[2] ، وهو وجه من أوجه التفسير التي لم يختلف العلماء في أهميته ، بل اعتنوا به عناية خاصة في تفاسيرهم ابتداء من جامع البيان لابن جرير، إلى أضواء البيان للشنقيطي ، ومنهم من جعله الوجه البارز في تفسيره ، كما فعل القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن ، ومنهم من أفرده بالتصنيف في مؤلفات خاصة جاءت تحمل مسمى أحكام القرآن ، اهتم من خلالها العلماء بآيات الأحكام الشرعية المتعلقة بأحكام المكلفين ،كأبي الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي الشافعي ، وأبي بكر الرازي المعروف

---

(١) يقصد الباحث بالأحكام عموم الأحكام " الأحكام الاعتقادية والفقهية والسلوكية والأخلاقية" .

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، أبو بكر الجزائري (١/ ٥) .

بالجصاص الحنفي ، وأبي بكر بن العربي المالكي ، وهي كتب تأثرت بمذاهب مؤلفيها ، وهنالك كتب حديثة كتبت في دراسة آيات الأحكام عموماً دون الالتزام بمذهب معين في تقرير الأحكام مثل : تفسير آيات الأحكام، للشيخ محمد على السايس ، وروائع البيان بتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي الصابوني ، وآيات الأحكام للشيخ محمد بن صالح العثيمين . وقد توسع هذا النوع من الدراسة حتى مثل اتجاهاً في التفسير ، عرف بالتفسير الفقهي .

وهذا الوجه من التفسير تأثر في امتداده التاريخي بحركة الفقه وأصوله ، فلم ينفك عن طريقة الفقهاء في تقرير واستنباط الأحكام ، ولم يخل من شوائب التعصبات المذهبية التي شابت تلك الفترات ، كما فيه استطرادات وتفريعات حرفت التفسير عن مساره ، وذلك بدراسة مسائل ليس لها تعلق وارتباط بالآية بصورة مباشرة ، وكثرت من خلاله الأقوال والخلافات المذهبية ؛ حتى سمي بالتفسير المقارن ، لأن الدارس يحتاج إلى معرفة كيفية التعامل مع هذا النوع من الخلافات التي لا بد أن يراعي فيها ضوابط الترجيح .

والمفسر وهو يدرس في علم الأحكام لابد أن تكون له قدرة على الترجيح بين الأقوال المتعارضة ، والموازنة بين الآراء المختلفة ، لأنه لا يجوز تفسير الآية بالقول المرجوح وترك الراجح. كما على المفسر أن يعرف كيف يجمع بين الأدلة ، وكيف يميز بين اختلاف التنوع والتضاد وفق ما قرره العلماء من منهجية في الدراسات المقارنة وساروا عليها في كتبهم ؛ للتوصل للحق والصواب بأقصر الطرق بدون تعصب لمذهب أو شيخ أو طريقة وفق

قواعد الترجيح أو الاختيار؛ لأنه جانب تأثر باختلاف مذاهب العلماء . قال الزركشي وهو يبين المنهجية التي تدرس بها الأقوال المختلفة فيها ما ملخصه : « وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي ، فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي ، وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة ؛ لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية ، وفي الآخر شرعية فالحمل على الشرعية أولى إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية ،كما في قوله تعالى ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾(التوبة:١٠٣) ، ولو كان في أحدهما عرفية والآخر لغوية فالحمل على العرفية أولى ؛ لأن الشرع ألزم ، فإن تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كـ"القرء" للحيض والطهر اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه ، وإن لم يظهر له شيء فهو يتخير في الحمل على أيهما شاء، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما»[1].

ومن هنا ظهر علم في الدراسات القرآنية يدرس ترجيحات واختيارات واستدراكات العلماء ويحكم من خلالها على المفسر وقوته العلمية وتجرده للحق. وعلى المفسر عدم التوسع في المسائل الفقهية التي ليس لها ارتباط

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٦ـ ١٦٨) ، هذا ملخص قوله .

بالآية حتى لا نبعد عن دلالات النص القرآني وإخراج الدراسة عن روح التفسير، وإنما يقرر المفسر الرأي الراجح بأقصر الطرق وأيسرها كما هو نهج القرآن الكريم .

المطلب السابع : استنباط الفوائد واللطائف:

على المفسر بعد معرفة الأحكام الظاهرة أن يهتم باستنباط المعاني الخفية التي تحتاج إلى نظر واجتهاد قد تخفى على غير مستنبطها ، مع معرفة أنواع الدلالة من نص ، وإشارة ، وإيماء ، وغيرها . فعلم الاستنباط هو علم «زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ فَهْمِ اللَّفْظِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ طَرِيقَةَ الِاسْتِنْبَاطِ ؛ إذْ مَوْضُوعَاتُ الْأَلْفَاظِ لَا تُنَالُ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَإِنَّمَا تُنَالُ بِهِ الْعِلَلُ وَالْمَعَانِي وَالْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ وَمَقَاصِدُ الْمُتَكَلِّمِ ... وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْفَهْمَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَعْرِفَةِ مَوْضُوعِ اللَّفْظِ وَعُمُومِهِ أَوْ خصُوصِهِ ، فَإِنَّ هَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ سَائِرِ مَنْ يَعْرِفُ لُغَةَ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا هَذَا فَهْمُ لَوَازِمِ الْمَعْنَى وَنَظَائِرِهِ، وَمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ، وَمَعْرِفَةِ حُدُودِ كَلَامِهِ، بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ فِيهَا غَيْرُ الْمُرَادِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ الْمُرَادِ»[1] ، وهو علم مهم ؛ لأننا متعبدون إلى الله بما دلت عليه الآية بمنطوقها أو مفهومها ، فكما لا يجوز تجاوز ألفاظ القرآن ومعانيه ، كذلك لا يجوز قصرها بل يجب أن يعطى كلٌ حقه . وهو علم يزيد من وجوه المعنى ، ويكشف المزيد من أسرار هذا الكتاب التي لا تنقضي ، ويظهر جماليته التي لا تنتهي ، خاصة الفوائد التي لها تعلق

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية (١ / ٣٠٧) .

بالحكم، أو تعمق فهم المسلم في عقيدته وعبادته وأخلاقه ، فإن آيات القرآن ذات أفانين عميقة مترامية الأطراف ، تنقطع فيها الطاقات ، ولا تبلغ غورها الأفهام ، فليس في المقدور استيفاء جميع أسرار هذا الكتاب المصون، الذي حوى من الحكم المكنونة الشيء العظيم؛ ولذا جعله العلماء آخر الكلام الذي ينتهي عنده حديثهم ، ولا ينتهي نظرهم فيه ، بل دائماً يسألون الله المزيد فيه. يقول السيوطي ــ رحمه الله ــ: «ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلم عليها من جهة اللغة، ثم التصريف، ثم الاشتقاق ، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم يبين المعنى المراد ، ثم الاستنباط ، ثم الإشارات»[1].

وينبغي أن يراعى في المعنى المستنبط عدم معارضته لأدلة الشرع ، أو اللغة، ويكون له ارتباط بالنص القرآني ، فلا يكون هنالك تكلف فيما ليس له ارتباط بالنص ولو كان المعنى المذكور صحيحاً فإنه يرفضه لأن في ذلك خطأ في الاستدلال[2]، وكذلك يكون فيما للرأي فيه مجال، ليس مما استأثر الله بعلمه ، وأن لا يكون مما يشتت الذهن أو يصرف عن العمل إلى الجدل ، فمثل هذه الاستنباطات الأولى تركها، لأن مقصد التفسير الأول هو الهداية.

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٧) .

(٢) انظر : منهج الاستنباط من القرآن الكريم ،الشيخ د. فهد الوهبي (ص: ٢٦٨) لمزيد الفائدة .

المطلب الثامن : دراسة خصائص الأسلوب وأوجه الإعجاز :

القرآن أنزله الله تعالى للهداية والإعجاز قال تعالى عن مقصد إنزاله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾(البقرة:١٨٥)، فهو الآية والمعجزة الكبرى الخالدة الدالة على صدق الرسالة مدى الدهر المسجل من خلاله عجز الخلق في الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(البقرة:٢٣ - ٢٤).

وهو معجز من حيث ألفاظه ومعانيه معاً، فأوجه إعجازه كثيرة منه ما هو متمثل في كمال بلاغته، وروعة بيانه، وسعة دلالاته ، وتفنن أسلوبه ، ووفاء معانيه لحاجات البشرية ، ومنها ما هو متعلق بصدق إخباره عن المغيبات ماضي وحاضر ومستقبل ، ومنه ما هو متمثل في عدالة وشمولية وكمال تشريعاته ، ومنه ما هو متعلق بمنهجه وعظم أثره في تربية وتزكية النفوس ، وقوة حجته في إقناع العقول وهدايتها ، بل نجد الإعجاز ماثلاً حتى في نظمه وترتيبه ، وما فيه من تناسق وتناسب في الألفاظ والآيات والموضوعات ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢). قال فخر الدين الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: « ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي

بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور» [1]. وغير ذلك من أوجه الإعجاز الأخرى التي تفيض في كل جوانبها بالجلال والجمال ، وتشهد بعجز الإنسان من الإتيان بمثله أبدا.

والمفسر وهو يفسر في كلام الله تعالى ينبغي له أن لا يغفل عن دراسة وجوه إعجازه، لاحتوائها على حِكَم وأسرار بديعة ؛ فمن خلاله تظهر براهين الرسالة، وينفي عن كتاب الله الريب ، ويرتقي المسلم في مدارج اليقين درجات ؛ ويتعمق نظره للقرآن الكريم ، وكيف أحكمت آياته ، واستقامت معانيه ، وتوافقت هدايته ، وتوسعت علومه بدرجة عجزت العقول عن الإحاطة بها ، وكيف سما في ألفاظه وأسلوبه وتفنن في روعة خطابه ، وتناسب وتناسق في نظمه وترتيبه ، وصدق بعضه بعضا بما ليس هو معتاد في كل كلام البشر. ومن هنا اهتم العلماء بهذا الوجه في التفسير وأكدوا على أهميته، قال الزركشي: « واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله»[2].

وقد جعله بعض العلماء من الدراسات المتأخرة ؛ لأن أوجه الإعجاز

(١) مفاتيح الغيب ، أبو عبد الله الرازي (٤/ ٦٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٢٩) .

كثيرة يصعب الإحاطة بها ، وهم يريدون الوقوفَ على ما يستطيعونه عند دراسة الآيات ، قال أبو حيان ــ رحمه الله ــ : « ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها إفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً»[١] ، كما هنالك أوجهاً من الإعجاز لا تظهر إلا من خلال استيفاء جميع السورة بالنظر، « فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود ، كما أنَّ الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلاَّ بعد كمال النَّظر في جميعها »[٢] .

وإن إغفال هذا الجانب وعدم إدخاله واستصحابه ضمن التفسير أضعف من مكانة وجلالة القرآن في نفوس بعض المسلمين ، وقلل من درجات اليقين ، وهو وجه مهم حاول العلماء قديماً وحديثاً إدخاله ضمن التفسير أمثال الزمخشري والرازي وأبي السعود وابن عاشور وغيرهم.

المطلب التاسع : ربط الواقع بهدايات القرآن الكريم :

القرآن جاء لهداية الناس للتي هي أقوم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، في كل زمان ومكان ؛ ولكن "أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن"[٣]. ولذلك كان

(١) البحر المحيط (١/ ٥ ، ٦) .

(٢) الموافقات للشاطبي (٣/ ٤١٥) .

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣) .

من أعظم ما يقوم به المفسر ربط معاني القرآن بالواقع ، والعمل على تنزيل قيمه على الحياة من خلال تفسيره ، بما يحقق للأمة صلاحها ويعيد مجدها، ويكشف مخططات عدوها، وذلك من خلال الدعوة للعمل بهدايات القرآن الكريم ، وتصحيح ما في الواقع من مفاهيم ونظريات خاطئة ، وبيان ضلال الدعوات المنحرفة ، ويعالج الصفات والعادات الذميمة التي عالجها القرآن ، ويؤكد على طرق النهوض بالأمة التي أبرزها القرآن ، ويكشف عن أسباب الضعف والخلل ، وسنن التمكين والتخلف، ويرد على الشبه المثارة حول تعاليم القرآن الكريم وأحكامه، ويبرز العلاج لمشكلات الواقع المتنوعة، وهو مما يسهل فهم القرآن للناس ويحببهم إليه، فإن أمتنا اليوم تعيش فتناً متلاحقة، ومشكلات معقدة أصبح الحليم فيها حيران بسبب بعدها عن كتاب الله، مصدر الهدى ومورد الشفاء، فالواجب على علماء التفسير فحص قضايا أمتهم وفق هدايات القرآن، فهو كتاب نزل معايشاً ومعالجاً لقضايا الأمة في كل فتراتها، وهو سر من أسرار نزوله منجماً، حيث عايش الأمة في سلمها وحربها، وفي مشاكلها الفردية والجماعية ، فليس التفسير مجرد معانٍ تجمع ، أو كلمات توضح ، أو جمل تعرب ؛ وإنما هو حكم وهدايات تستجمع لتستنير بها الأمة في مسيرتها، وتعالج به واقعها . فلابد أن يواكب التفسير روح عصره، ويعالج الكثير من قضايا الأمة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، بعيداً عن الحلول المستوردة التي لا تتوافق مع هدي الكتاب المجيد ، وهكذا كان الجيل الأول يتعامل مع القرآن وفهمه ، بل ينبغي توظيف هدايات القرآن الكريم

في تزكية العلوم الإنسانية كعلم التربية، والاجتماع، والنفس وغيرها، فنحن ندرس التفسير ليلبي حاجة عصرنا، ويسهم في إصلاح واقعنا، لا تفسيراً لا يضيف لحياتنا جديداً، وهذه تعتبر ميزة خاصة يتميز بها المفسر المصلح عن غيره.

فمهمة المفسر أن يصنع من خلال تفسيره آليات العلاج، وينزلها قوالب عمل تترجم المعاني في واقع الحياة، فنحن لا نريد قرآناً يتلى في افتتاح المجالس تبركاً فحسب؛ وإنما نريد قرآناً يفتتح المجالس والمحافل والمصانع والمدارس بهديه ونوره وتعاليمه، ولتحقق مقاصده ومبادئه وقيمه الأخلاقية.

إن انفصال المفسر عن واقعه وقضايا أمته ومتطلباتها خلال ممارسته للتفسير يجعل مهمته تنحصر في استنباط الحكم، وتجعله مقصراً في جعل القرآن واقعاً معاشاً، أو شفاء لواقع عليل، فالقرآن عندما يحكي واقعاً لأمة فإنما يريد منا أن نعتبر وأن نأخذ بسنن النصر ونتجنب سنن الهلاك ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(الأعراف:١٧٦)، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١).

فبعد التتبع والاستقراء لكثير من كتب التفسير وجدت كثيراً من علماء التفسير قديماً وحديثاً قد بذلوا جهوداً كبيرة لربط معاني القرآن بالواقع، وحاولوا أن يقدموا لأمتهم نصائح وتوجهات وحلولاً من خلال

تفاسيرهم ، وحذروا من مخاطر مهلكة ؛ وفتن قادمة ؛ ولكن حجم هذا الاهتمام يختلف من عالم لآخر، كما اختلفت طريقة كل عالم في محاولات الربط وطريقة التعبير في التأصيل أو الرد والتصدي للانحرافات الموجودة والشبه المثارة، مثال ذلك: عندما انتشر التعصب المذهبي ، واستحكم الغزو الفكري في عالمنا الإسلامي ، وصعد من وسائله ، وحكمت القوانين الوضعية بدلاً عن الشريعة الإسلامية ، ونشأت مناهج الحياة في بلاد المسلمين على أسس غير إسلامية ، حاول بعض علماء التفسير تناول هذا الموضوع من خلال تفاسيرهم وتفنيد أفكارهم الضالة ، ومواجهتهم ، ووقاية المسلمين من شرورهم ، يقول الشنقيطي ــ رحمه الله ــ: «اعلم يا أخي أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عمَّ جُل من في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسي والمصائب، والدواهي التي دهت المسلمين من مدة قرون عديدة . ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافية لأصل الإسلام، لأن الكفار إنما اجتاحوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام. ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصنا منيعا لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال ، لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله

والاعتصام بالقرآن ، وكلام النبي ﷺ والتحصن بسنته. ولذلك وجد الغزو الفكري طريقا إلى قلوب الناشئة من المسلمين ، ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلا...وبالجملة فمما لا شك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيان المسلمين ، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم ، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحورا في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم»[1]، ويقول كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾(الفرقان : ٦٧)، بعد كلام طويل جميل: « ولا شكّ أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض، على لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعًا؛ لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئًا منها يجوز شرعًا، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئًا منها سالمًا من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبيّ ﷺ، ومن المعلوم أن من يدّعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك، ولأنه لا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٧٨).

دليل معه بل الأدلّة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند اللهّ تعالى»[1] ، وقد جمعت عشرات الأمثلة ثم تركتها خشية الإطالة ، وقد رأيت أنه موضوع يحتاج أن يفرد بعدد من الدراسات يبرز من خلال كل دراسة جهود كل مفسر في هذا المجال ما تميز به [2].

المطلب العاشر : الأسئلة والإشكالات التفسيرية :

وهي طريقة من طرق البيان المشوقة استخدمها القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾(الفرقان:٣٣) قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : «﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي: ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم»[3]، فمنهج القرآن رد الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام ، والإجابة على ما يطرأ من أسئلة وإشكالات .

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ١٩٩).

(٢) وقد وقفت أخيراً على رسالة علمية قيمة يمكن الاستفادة منها ، فازت بجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، بعنوان " تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين ، دراسة وتطبيق " للشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر ؛ وهي رسالة ماجستير نوقشت في قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى .

(٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٦/ ١٠٩) .

وهـي طريقـة اسـتخدمها علـماء التفـسير كثـيراً في تفاسـيرهم مـنهم : الزمخشري، وابن العربي ، والرازي ، والقرطبي ، وابن تيمية ، وابـن القـيم ، وابن كثير، والسمين الحلبي ، والألـوسي والـشنقيطي وغـيرهم ، وفائـدتها تـسهم في ترسـيخ المعـاني ، وإزالـة الإشـكالات التـي قـد تطـرأ بعـد دراسـة المعنى.

والمفسر يوفق من خلاله مـا يطـرح مـن تـساؤلات وإشـكالات بـين معـاني الآية أو الـسورة ومـا يطـرأ مـن أسـئلة وإشـكالات لهـا أسـباب كثـيرة ، فقـد يكون سـبب الإشـكال متعلـق بالـسياق، مثـال ذلـك قـول ابـن العـربي بعـد تفــسيره لقولـــه تعـــالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾ (الطـلاق:٤) «فـإن قيـل: المـراد بقولـه تعـالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾ المطلقات؛ لأنه فـيهن ورد، وعـلى ذكـرهن انعطـف . قلنـا: عطفه على المطلقة لا يسقط عمومه ، ويشهد له ما بيناه من الحكمة في إيجاب العدة من براءة الرحم ، وأنها قد وجدت قطعا »[(١)] .

وقد يكون سبب الإشكال ما دل عليه معنى الآية ، يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾(البقرة:١٤٤) «يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ يعني تحويل القبلة مـن بيـت المقـدس . فـإن قيل: كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم؟ قيل عنه جوابان : أحدهما : أنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا ﷺ نبي علمـوا أنـه لا يقـول إلا

(١) أحكام القرآن ، ابن العربي (١/ ٤١٣).

الحق ولا يأمر إلا به . الثاني : أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم ، فصاروا عالمين بجواز القبلة »[1] ، وكقول ابن القيم في قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾(الفاتحة:٦) «فإن قيل كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قلنا لقد أجيب عنها بأن المراد التثبيت ودوام الهداية»[2] ، وكقول ابن الجوزي ــ رحمه الله ــ في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾(الناس:١) «فإن قيل لم خص الناس هاهنا بأنه ربهم وهو رب كل شيء؟ فعنه جوابان: أحدهما: لأنهم معظمون متميزون على غيرهم . والثاني: لأنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم أعلم أنه ربهم ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم »[3] .

وقد يكون سبب الإشكال بما يظهر من مخالفة بين المعنى والواقع، يقول البغوي ــ رحمه الله ــ : «فإن قيل فما وجه قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(البقرة:١٨٦)، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (غافر:٦٠) وقد يدعى كثيرا فلا يجيب؟ قلنا: اختلفوا في معنى الآيتين قيل: معنى الدعاء ههنا الطاعة ، ومعنى الإجابة الثواب ، وقيل : معنى الآيتين خاص وإن كان لفظهما عاماً، تقديرهما: ﴿ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ ﴾ إن شئت، كما قال: ﴿ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ ﴾ (الأنعام:٤١) أو أجيب دعوة الداعي إن

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي (٢/ ١٦١) .

(٢) التفسير القيم ، ابن القيم (١/ ١٣٣) .

(٣) زاد المسير في علم التفسير ،عبدالرحمن الجوزي (٩/ ٢٧٨) .

وافق القضاء أو: أجيبه إن كانت الإجابة خيرا له أو أجيبه إن لم يسأل محالا»[١]، وكقول أبي حيان في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأنعام:٢٧)، قال: «وأورد بعضهم هنا سؤالاً فقال: فإن قيل كيف يتمنون الرّد مع علمهم بتعذر حصوله؟ وأجاب بقوله: قلنا لعلهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل. والثاني: أن العلم بعدم الرد لا يمنع من الإرادة كقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٧)»[٢] .

وقد يكون سبب الإشكال ما يظن من تعارض مع آية أخرى أو حديث كقوله تعالى عن يوم بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(الأنفال:٩) مع قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾(آل عمران: ١٢٤)، قال ابن كثير – رحمه الله –: «فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية –على هذا القول–وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٩–١٠) فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة

(١) معالم التنزيل ، البغوي (١/ ٢٠٥) .

(٢) البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي (٤/ ٨٣) .

الآلاف فما فوقها لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى يَرْدَفُهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أخر مثلهم»[1]، وهذا الموضوع وجد عناية كبيرة عند علماء التفسير يحتاج أن يفرد برسائل علمية .

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١١٢) .

الخاتمة :

من خلال الدراسة السابقة للموضوع توصل الباحث إلى النتائج والتوصيات التالية:

أ/ نتائج البحث :

من أبرز النتائج التي خرج بها هذا البحث ما يلي :

١. القرآن الكريم هو الذي بنى حضارة الأمة ومجدها يوم أن أحسنت التعامل معه فهماً وعملاً، وهو الذي سيبني مجدها في حاضرها ومستقبلها متى ما أحسنت الأمة التعامل معه.

٢. المداخل التي درس من خلالها العلماء معاني الآية أو السورة كثيرة ومتنوعة، والوقوف عليها وتطبيقها مطلب مهم للمفسر؛ لأنه كلما أحسن المفسر مداخل التفسير ، وحسن تطبيقه لخطواته ، وتوسعت ثقافته زاد فهمه للقرآن الكريم وعلومه.

٣. إنَّ مداخل وعناصر التفسير التي استقرت اليوم مع تنوعها تطورت بصورة مطردة ، فلم تجتمع كلها في عصر واحد ، بل كانت هنالك عناصر ومداخل مُنكرة في بعض الفترات، وكان هنالك تخوف في طرحها، ثم أصبحت عنصراً مهماً في التفسير له مكانته وأهميته في عصر آخر مثل علم المناسبات.

٤. التفسير اليوم بحاجة إلى دراسات تأصيلية، ليس فقط في الطرق والاتجاهات بل في المداخل والخطوات التفسيرية ، وأولوياتها ، وطرق توظيفها فهي لم تحظ بدراسات كافية .

٥. تناول العلماء للتفسير انقسم في جملته إلى: تفسير القرآن من خلال مدخل واحدٍ من مداخل التفسير، والآخر: تفسير القرآن من خلال مداخل متنوعة من علوم التفسير ، وبقدر تعدد المداخل تنوعت وتعددت الخطوات.

٦. العلماء الذين فسروا القرآن من خلال مداخل متعددة، تباينوا فيما بينهم بصورة كبيرة في حجم العناية بمدخل دون آخر، وفيما يقدم ويؤخر من مداخل حسب ثقافة كل مفسر وميوله واهتمامه وأهدافه التي أراد أن يخدمها من خلال تفسيره .

٧. العلماء الذين درسوا التفسير من خلال مدخل واحد تباينوا بصورة كبيرة من حيث استيعاب المدخل بكل مكوناته ، فتجد عند كل واحد تميزاً من جهة ونقصاً وعدم استيعاب لبعض الأوجه من جهة أخرى ، وذلك لاختلاف مقاصدهم من التأليف .

٨. المصنفات التي تناولت مداخل متعددة في التفسير صحبها نقص في مكونات تلك المداخل، وكفايتها، وأولوياتها ، كما أن التوسع والتفريع والإسهاب في تناول بعض المداخل مع ما أفاده من ثروة علمية أصبح بعضها عبئاً على التفسير وصارفاً عن هدايات القرآن الكريم.

٩. الدراسة لأي سورة من سور القرآن ينبغي أن تُسبق بمدخل عن اسم السورة وما ورد في فضلها وأحوال نزولها فإنها مفتاح عام لفهم السورة.

١٠. دراسة مقاصد السورة وأهدافها، ومحاورها وموضوعاتها ، عنصر

مهم من مداخل التفسير عند بعض المفسرين ؛ وهو يعين على فهم السورة ويوصل لدلالات دقيقة في المعاني.

١١. من أوائل المداخل لتفسير الآية أو السورة دراسة "المفردات والغريب"؛ لأنه لا يمكن فهم المعنى العام ، أو دراسة الأحكام التي وردت في الآية ، أو استنباط ما فيها من فوائد بدون معرفته.

١٢. دراسة التناسب بين الآيات من العلوم المهمة المقدمة في مدخل التفسير؛ لأنها تكشف للدارس الكثير من معاني القرآن ولطائفه وروائعه، وإهمالها بصورة عامة يؤدي إلى دراسة تفسيرية يشوبها النقص والخلل ، وهو يقدم في الأصل حتى على معرفة سبب النزول .

١٣. بيان المعنى العام للآية أو السورة من عناصر التفسير المهمة التي اعتنى به العلماء ؛ وذلك لأنه يجعل معاني القرآن الكريم في متناول الجميع ، ويمثل الحد الأدنى المطلوب فهمه من القرآن ، وهو يمهد لما يستتبع من دراسات تفصيلية للآية أو السورة ؛ كما أنه يعطي خلاصة الآراء والأفكار وفق الراجح والمختار، وهو أنسب أساليب التفسير للترجمة ، وعامة الناس.

١٤. دراسة ما ورد في الآية من أحكام عنصر مهم من مداخل التفسير اعتنى به عامة المفسرين ، وتوسعت فيه الدراسات حتى مثلت اتجاهاً في التفسير عرف بالاتجاه الفقهي .

١٥. استنباط المعاني الخفية التي تحتاج إلى نظر واجتهاد من المداخل المهمة التي وجدت حظها عند عامة المفسرين ؛ وهو علم يكشف المزيد من

أسرار هذا الكتاب التي لا تنقضي ، ويظهر جماليته التي لا تنتهي .

١٦. إظهار أوجه إعجاز القرآن الكريم وأساليبه البيانية التي حوتها الآية أو السورة من مداخل التفسير المهمة التي اعتنى بها بعض علماء التفسير؛ لأنها تظهر براهين الرسالة، وتنفي عن كتاب الله الريب ، وترقي المسلم في مدارج اليقين درجات ؛ وتعمق بصيرة المؤمن بالقرآن الكريم.

١٧. ربط الواقع بمعاني القرآن ، وجعل التفسير يقدم العلاج الشافي لمشكلات الأمة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الأهمية بمكان، لأننا في حاجة إلى تفسير يلبي حاجة العصر، ويسهم في إصلاح واقعنا، لا تفسيراً لا يضيف لحياتنا جديداً .

١٨. طرح الأسئلة والإشكالات التفسيرية ثم الرد عليها بصورة شافية ؛ من عناصر التفسير المهمة التي اعتنى بها العلماء ، لأنها ترسخ المعاني ، وتسهم في إزالة الإشكالات التي قد تطرأ بعد دراسة المعنى .

١٩. والخلاصة : أن تفسير القرآن الكريم ينبغي أن يتم وفق الخطوات العشر التالية: أن يبدأ مدخله للتفسير بدراسة أسماء السورة وفضائلها وأحوال نزولها ، ثم يبين مقاصدها وأغراضها وموضوعاتها ، ثم يدرس المفردات ومعاني الكلمات، ثم يبين المعنى العام ، ثم يدرس وجه التناسب بين الآيات، ثم يدرس الأحكام ، ثم يستنبط الفوائد والهدايات ، ثم يبين أوجه الإعجاز، ثم يربط المعاني بواقع حياة الناس، ثم يدفع ما يظهر له من أسئلة أو استشكال له تعلق بالآية أو السورة .

ب / توصيات البحث :

من خلال تلك النتائج السابقة يوصي الباحث بما يلي:

١. توجيه مؤسسات التعليم والتربية والدعوة ووسائل الإعلام على تصميم وتنفيذ البرامج المكثفة التي تسهم في ربط الأمة بالقرآن الكريم؛ حتى يكون حاكماً وموجهاً للحياة كلها.

٢. إنشاء مؤسسة علمية عالمية للقرآن الكريم تعمل على إعداد تفسير للقرآن وفق الخطوات السابقة التي تم التأصيل لها من خلال هذا البحث مع مراعاة أصح الطرق ،حتى نستطيع بناء تفسير فيه الدقة والشمول والتوازن ، ويستفيد من كل الجهود السابقة.

٣. إقامة دراسات وبحوث متعمقة عن كل عنصر من مداخل التفسير التي ذكرناها خلال هذا البحث ، يوضح من خلالها مفهومه ، وطرق تناوله، ودراسة تطبيقات العلماء له ، وما فيه من إيجابيات وسلبيات، مع طرح صورة مثلى لتطبيق كل عنصر .

٤. إعادة النظر في كثير من الأساليب التي يُدرس بها تفسير القرآن الكريم اليوم في مؤسساتنا التعليمية ـ خاصة المعاهد والجامعات ـ لتكون على أفضل طريقة تليق بمكانة القرآن ومنزلته وأهميته في حياتنا، فلا يقف المفسر عند حدود الأدوات أو يبعد الدارس عن هداية القرآن.

٥. إقامة مراكز تدريب للأساتذة والدعاة وطلاب العلم ليحسنوا التعامل مع طرق وخطوات التفسير، وكيف نحبب ونسهل تعلم القرآن للناس جميعاً .

وفي الختام نسأل الله الكريم أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وقائدنا إلى الخير ،وأن يرزقنا فهمه والعمل به ، وأن ينفع بهذا الجهد كاتبه وقارئه في الدنيا والآخرة .

تم هذا البحث بفضله الله الكريم

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

فهرس المراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق مركز البحوث والدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز، ط:مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ط١/ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.
- أحكام القرآن ، لابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط: دار الفكر للطباعة ، بيروت ، بدون.
- أسباب نزول القرآن لأبي الحسن على بن أحمد الواحدي، ط:دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م .
- أسماء سور القرآن وفضائلها، للدكتورة منيرة محمد ناصر الدوسري ، ط: دار ابن الجوزي ، الدمام ط١ ١٤٢٦هـ .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ، ط: دار الفكر للطباعة ، بيروت ، ١٤١٥هـ .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، ط: دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ، ط: دار صادر ، بيروت ، ط١/ ٢٠٠١م .
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ، ط : مكتبة العلوم الحكم ، المدينة المنورة ، طبعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ،ط٣ .
- البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، طبعة

جديدة بعناية زهير جعيد ، ط: دار الفكر ، بيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .
- البداية والنهاية ،إسماعيل بن عمر بن كثير، ط: مكتبة المعارف، بيروت ، بدون تاريخ .
- بدائع الفوائد ، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ، تحقيق علي بن محمد العمران ، ط : دار عالم الفوائد ، مكة ، ط١/ ١٤٢٥هـ.
- البرهان في علوم القرآن ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، ط / ١٣٩١م .
- البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، للدكتور محمد عناية الله أسد سحاني، ط: دار عمار ، عمان ، ط١ / ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
- التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور، ط : دار سحنون ، تونس ، بدون .
- تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن كثير الدمشقي، ط: دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ .
- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، تعليق وتصحيح سمير مصطفى رباب، ط : دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط١/ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .
- التفسير والتأويل في القرآن الكريم ، د . صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ط: دار النفائس ، الأردن ، طبعة ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م .
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين ، د . عبد العزيز عبد الرحمن

الضامر ، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، ط١، ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠ م.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، ط : إدارة المطبوعات القصيم ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، ط : دار الفكر ، بيروت ١٤٠٥هـ .
- الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق محمد إبراهيم الحفناوي ومحمود حامد عثمان ، ط: دار الحديث ، القاهرة ، طبعة : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .
- زاد المسير لعبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: المكتب الإسلامي،بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ .
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون .
- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي ، المؤلف : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني ، الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد ، ط١ / ١٣٤٤ هـ .

- سنن النسائي،أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي،ط: دار البشائر الإسلامية ، ط:١٩٨٦م.
- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض ١٤٠٠هـ .
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط:رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض ١٤٠٠هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق علي بن عبد العزيز الشبل، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار السلام ، الرياض ، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميّة ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، طبعة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق : محمد حامد الفقي، ط: دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٣ ه– ١٩٧٣م
- المستدرك على الصحيحين، الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري،

ط:دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ .

- مسند الإمام أحمد ، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ط : المكتب الإسلامي - بيروت ، ط/ ١٩٨٥م .
- مفاتيح الغيب للإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م .
- المفردات في غريب القرآن ، أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني، ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله نمر، ود. عثمان جمعة، وسليمان مسلم، ط: دار طيبة، الرياض ، ط١/ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- منهج الاستنباط من القرآن الكريم ، للشيخ فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي ، الناشر : مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي ، جدة ، ط١/ ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .
- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ، دراسة وتحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، ط : دار ابن عفان ، ط١ / ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات ، أحمد بن محمد الشرقاوي ، صدر هذا الكتاب آليا بواسطة الموسوعة الشاملة ، المصدر : موقع شبكة

مشكاة الإسلامية .

- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ،اعتنى به وخرج أحاديث عبد الحميد الدخاخني ، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

صفات النبي ﷺ في سورة الأحزاب

إعداد

د. يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل

د. يوسف بن عبدالعزيز بن عبدالله الشبل

- الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته (غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني لأحمد بن إسماعيل الكوراني من أول سورة النساء إلى آخر سورة الأعراف دراسة وتحقيق).
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته (الأمر في القرآن الكريم مفهومه ومجالاته وثمراته).

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان واهتدى بهداهم إلى يوم الدين. أما بعد .

فإنَّ نبينا محمداً ﷺ أرسله الله ﷻ بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وإنَّ كتاب الله الكريم قد أنزله ﷻ على قلب سيد المرسلين هادياً للناس ومنيراً لهم طريق السعادة ، فكان لعلماء الإسلام على مرِّ القرون عناية متميزة ، واهتمام عظيم بهذا الكتاب الكريم ، يتأملونه و يتدبرون آياته، ويستخرجون حكمه، ويستنبطون أحكامه، ويكشفون ما قد يخفى من ألفاظه ومعانيه ، ويظهرون أسراره الكامنة وكنوزه المغمورة ، وكأنهم أمام بحر موّاج ،لا يُدرك غوره ،ولا يتوصل إلى أعماقه،ولا يُحاط بأسراره وعجائبه.

هذا وإنَّ من وسائل تدبره واستخراج حكمه واستنباط أحكامه وكشف أسراره الكتابةَ في التفسير الموضوعي سواء كان ذلك من خلال

موضوع في القرآن الكريم ، أو في سورة معينة منه، وهو مما ظهر مؤخراً خدمة لكتاب الله ﷻ وإبرازاً لهداياته، وقد جاءت هذه الدراسة التي بين أيدينا لإبراز مكانة النبي ﷺ بما أشادت به سورة الأحزاب من بيان صفاته ﷺ، والتي وسمتها بعنوان:[**صفات النبي ﷺ في سورة الأحزاب دراسة موضوعية**].

أسباب الكتابة في الموضوع:

كان من أسباب اختياري هذا الموضوع هو تجلية مقام النبي ﷺ وبيان مكانته وفضله وذلك ليزداد المؤمن محبة لنبيه، وتعظيماً له، وتأسياً به، ولتكون وسيلة لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام ليعلموا حقيقة رسالته وأنه جاء رحمة للعالمين.

كما أن هذه الدراسة جاءت إسهاماً في الدفاع عن شخص النبي ﷺ أمام تلك الإساءات والممارسات الآثمة التي نالت من شخصه .

ففي هذه الدراسة تعريفٌ بصفات نبينا محمد ﷺ التي أشادت بها سورة الأحزاب والتي تنير لنا القلوب وتبصرها وتزيدها إيماناً ومحبة وتعظيماً له ﷺ.

وهذا التعرف له ثمرته في شحذ الهمم ودفعها لتعظيمه وتوقيره والاقتداء به والسير على نهجه والتمسك بسنته واقتفاء أثره.

وإنما وقع الاختيار على دراسة هذا الموضوع في سورة الأحزاب دون غيرها من سور القرآن الكريم لأنَّ سورة الأحزاب تميزت عن غيرها من سور القرآن بالإشادة بذكر نبينا محمد ﷺ بصفاته الجليلة، فأحببت أن

أشارك في إبراز هذه الجوانب المتميزة خدمة لكتاب الله ﷻ ووقوفاً على هداياته، وتوقيراً لنبينا محمد ﷺ، وإبرازاً لشيء من حقوقه.

الكتابات السابقة:

لقد كُتبت في نصرة نبينا محمد ﷺ كتابات عديدة ومختلفة الجوانب إلا أنني لم أقف على من كتب في بيان صفاته ﷺ من خلال ما جاء في سورة الأحزاب،وآياتها الكريمة التي تضمنت ذلك ، ودراستها دراسة تفسيرية وإبراز هداياتها القرآنية .

ومن هذه الكتابات المتعلقة بالقرآن الكريم :

- مكانة النبي ﷺ عند ربه كما يصورها القرآن الكريم ، د.عبد الرحمن هوساوي .

- صفات النبي ﷺ في القرآن الكريم ، رسالة ماجستير، للطالبة: إيمان العمودي، وقد تقدمت بها إلى قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين في جامعة الإمام ونوقشت في ٢٨/ ٢/ ١٤٣٢هـ

- شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم ،محمد علي الهاشمي .

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد واثني عشر مبحثاً وخاتمة وفهارس.

المقدمة وفيها: أهمية البحث وسبب الكتابة فيه، والدراسات السابقة،وخطته، ومنهج البحث.

التمهيد وفيه: التعريف بسورة الأحزاب.

المبحث الأول: صفة النبوة.

المبحث الثاني: صفة الرسالة.

المبحث الثالث: صفة التبليغ.

المبحث الرابع: صفة الخشية.

المبحث الخامس: صفة الحياء.

المبحث السادس: صفة الولاية.

المبحث السابع: صفة الصدق.

المبحث الثامن: صفة الشهادة.

المبحث التاسع: صفة البشارة.

المبحث العاشر: صفة النذارة.

المبحث الحادي عشر: صفة الدعوة إلى الله.

المبحث الثاني عشر: صفة السراج المنير.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

الفهارس.

منهج البحث:

يخضع البحث لمنهجين:

١ - المنهج الاستقرائي: ومن خلاله تم تتبع الآيات المتصلة بصفات النبي ﷺ والواردة في سورة الأحزاب وحصرها.

٢-المنهج التحليلي: وتمثل في دراسة الآية أو الآيات المتعلقة بصفات النبي ﷺ والواردة في كل مبحث ،وبيان معناها ووجه الدلالة منها، وإبراز ما فيها من الأسرار البلاغية والهدايات القرآنية مما يذكره أهل التفسير.

طريقة الدراسة في هذا البحث تتمثل في النقاط التالية:

١- كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، مع عزوها إلى سورها بأرقام آياتها.

٢- تخريج الأحاديث من مظانها، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فأكتفى بذلك. وإن كان في غيرهما أخرجه من مظانه، وأحكم عليه مستعيناً بحكم العلماء.

٣- توثيق ما أنقله من نصوص بوضع النص المنقول بين علامتي تنصيص « »، مع الإحالة إلى مصادره في الحاشية. فإن تصرفت فيه نبهت على ذلك في الحاشية.

٤- ترجمة الأعلام ترجمة موجزة- عند ورود ذكرهم لأول مرة – عدا المشهورين ، ومن كان حياً من العصريين إن ذكروا.

٥- وضعُ ثبت للمصادر والمراجع في ختام البحث.

آمل أن أكون قد وفقت في الإسهام في خدمة كتاب الله،وفي إبراز شيء من هداياته،

وأن أكون جمعت فيه ما تفرق وقربت منه ما بعد . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

التمهيد:

التعريف بسورة الأحزاب:

أولاً:اسم السورة:

هذه السورة تسمى بسورة الأحزاب،وقد وردت هذه التسمية في بعض الآثار، فعن زِرٍّ بن حبيش قال:قال لي أُبي بن كعب ﷺ:كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها ؟ قال: قلت: ثلاثا وسبعين آية: فقال: قَط! لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ،ولقد قرأنا فيها:«الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله،والله عزيز حكيم».(١)

وعن حارثة بن مضرِّب قال:كتب إلينا عمر بن الخطاب ﷺ:« أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور ». (٢)

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥/ ١٣٤)،والنسائي في السنن الكبرى،كتاب الرجم، باب نسخ الجلد عن الثيب (٤/ ٢٧١)، برقم (٧١٥٠)،والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٠) كتاب التفسير،تفسير سورة الأحزاب، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وحسن إسناده ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٧٥)، وزر بن حبيش بن حباشة الأسدي: تابعي،أدرك الجاهلية والإسلام،ولم ير النبي ﷺ ،كان عالماً بالقرآن،توفي (٨٢هـ)،ينظر:سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٨٢)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/ ٣٢١)،وأُبي بن كعب الأنصاري، من أجلاء الصحابة،وسيد القراء شهد المشاهد كلها، توفي (٢٠هـ)،ينظر: الاستيعاب لابن عبد البر(١/ ٢٧)، الإصابة لابن حجر(١/ ٣١).

(٢) رواه أبو عبيد في فضائله (٢/ ٤٤)، وحارثة بن مضرب العبدي الكوفي، قيل إنه أدرك النبي ﷺ ، روى عن عمر وغيره،ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير =

وهذه التسمية هي المثبتة في المصاحف وكتب التفسير، ولا يعرف لها اسم آخر، ووجه تسميتها بذلك ذكر غزوة الأحزاب فيها، فإن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب [١] على حرب المسلمين، ولكن الله ﷻ ردَّهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال.[٢]

ثانياً: نوع السورة:

سورة الأحزاب مدنية، حكى الإجماعَ على ذلك جمع من المفسرين.[٣] وقد دل على ذلك ما جاء عن ابن عباس ﵄ أنه قال: « نزلت سورة الأحزاب بالمدينة ».[٤]

ومن تأمل آياتها جزم بأن السورة مدنية ، لما فيها من خصائص السور المدنية حيث جاء فيها الحديث عن غزوة الأحزاب (الخندق) وقد وقعت في شوال من السنة الخامسة من الهجرة، ثم حصار بني قريظة الذين ظاهروا

= (١/ ٦٥٥)، تهذيب التهذيب (٢/ ١٦٦).

(١) غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان بطن متسع كثير الشعوب والبطون، منازلهم مما يلي وادي القرى وجبل طيء،ينظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٢٤٨، وبنو قريظة: قبيلة من يهود خيبر،وقد دخلوا في العرب. ينظر: أسماء القبائل وأنسابها للقزويني ص٢٣٠، وأوباش العرب: جموعها، ينظر: لسان العرب (٦/ ٣٦٧).

(٢) ينظر: صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ٥١٠)،التفسير المنير د.وهبة الزحيلي (٢١/ ٢٢٥)،

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٣٦٧)، التفسير الكبير للرازي (٢٥/ ١٨٩)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/ ٧٦).

(٤) ينظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٢١٢

المشركين ثم قتالهم، وقد وقع بعد وقعة الأحزاب، وذكر شيء من أحوال المنافقين وإيذائهم النبي ﷺ، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها، وذكر بعض التشريعات المتعلقة بالنبي ﷺ كإحلاله الزواج بأكثر من أربع والموهوبة، وجواز القسم بين نسائه،وإبطال التبني، وإبطال تحريم مطلقة الابن الدَّعي على من تبناه. (١)

ثالثاً:مناسبة السورة لما قبلها:

وجه اتصال هذه السورة بما قبلها وهي سورة السجدة تشابه مطلع هذه السورة ومقطع سورة السجدة ، فإن سورة السجدة ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم ،قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾،(٢) وهذه السورة بدئت بأمره ﷺ بالتقوى والإعراض عن الكافرين والمنافقين وعدم طاعتهم، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾.(٣)

رابعاً:مقصد السورة :

مقصد السورة نصرة النبي ﷺ وتأييده بالأمر بالثبات على تقوى الله ﷻ ولزوم طاعته وتأدية واجبات رسالة ربه ﷻ على أكمل وجه ، مع الحذر

---

(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٩٤-١١٨)،وينظر:صفوة التفاسير (٢/ ٥٠٩)، التفسير المنير (٢١/ ٢٢٦)

(٢) سورة السجدة، الآية (٣٠).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (١)،وينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٥/ ٢٧٣)، تناسق الدرر للسيوطي ص١١٢

من أن يفسد عليه أعداؤه من الكافرين والمنافقين دعوته ، وهذا النصر والتأييد يتمثل في النقاط التالية:

١) نصرتُه ﷺ على قوى البغي والشر الذين تحزبوا حول المدينة لقتاله وتأييدُهُ بجنود من الله ﷻ .

٢) نصرته وتأييده ﷺ بدفع أذى أعدائه من اليهود والمنافقين وخذلانهم وكشف عوار المنافقين ، وتسليطه ﷺ على اليهود بإخراجهم من المدينة.

٣) تأييده وإعزازه ﷺ بما ورد في السورة من أوصاف حميدة وصف بها ﷺ وخصائص جليلة لم تكن لغيره ، وأمر الأمة بالقيام بحقوقه ووجباته ﷺ.(١)

خامساً:أبرز موضوعات السورة:

اشتملت هذه السورة على موضوعات عديدة ، ففيها أحكام تشريعية،وآداب إسلامية، ودروس وعبر، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

أولاً: تعرضت السورة الكريمة إلى بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار، والتبني ، والإرث، والطلاق والعدة ، وتعدد زوجات النبي ﷺ الطاهرات والحكمة منه ، وفرضية الحجاب على نساء المؤمنين وبيان الحكمة منه ، وغير ذلك.

ثانياً: تعرضت السورة الكريمة إلى بعض الآداب الاجتماعية من توقير النبي ﷺ وتبجيله والحذر من إيذائه أو إيذاء المؤمنين، واحترام أمهات

(١) ينظر: تفسير سورة الأحزاب للغزالي خليل عيد ص٣.

المؤمنين وتوقيرهن وعدم نكاحهن،وكآداب دخول بيوت النبي ﷺ وآداب الوليمة،وإبطال التبني بالقول والفعل بإيراد قصة النبي ﷺ وزواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد طلاقها من زيد بن حارثة رضي الله عنه.

ثالثاً: تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الأحزاب (غزوة الخندق) ،فبدأت بتذكير المؤمنين بنعمة النصر، حيث تكالبت عليهم قوى البغي والشر من كفار مكة وغطفان وبني قريظة وأوباش العرب من الخارج، وتمالأ عليهم المنافقون من الداخل ، فكان ذلك امتحاناً شديداً من الله للمؤمنين ، فانكشف الغطاء عن خفايا المنافقين وطويتهم ، من الخيانة والمكر والتخذيل والكيد للإسلام وأهله ، وعن اليهود ونقضهم العهد ، فكان النصر من الله لنبيه ﷺ والمؤمنين على أعدائهم بإرسال الريح والجنود ، فكانت تلك معركة مليئة بالدروس والعبر والتوجيهات.

رابعاً: ختمت السورة الكريمة ببيان عظم أمانة التكليف وثقلها، وأنها ناءت بحملها السموات والأرض والجبال ، ثم حملها هذا الإنسان بضعفه وجهله، وأن الله ﷻ سيجازي كل عامل بعمله. (١)

(١) ينظر:صفوة التفاسير (٢/ ٥٠٩)،تفسير سورة الأحزاب للغزالي خليل عيد ص٧

المبحث الأول: صفة النبوة

قـــال تعـــالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.(١)

افتتح الله ﷻ سورة الأحزاب بنداء نبينا محمد ﷺ موصوفاً بصفة النبـوة التي هي من أجل صفاته ﷺ وأكملها، وأرفع مقاماته. وذلـك إشـارة إلى أن الهدف من سياق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ.

والنبوة من النبأ وهو الخبر،أو النَّبْوَة بمعنى الرفعة والعلو،أو النبي وهو الطريق، لأنها طريق موصلة إلى الله ﷻ.(٢)

والنبوة الشرعية « خبر خاص يكرم الله به أحداً مـن عبـاده فيميـزه عـن غـيره بإيحائـه إليـه ويوقفـه بـه عـلى شريعتـه بـما فيهـا مـن أمـر ونهـي ووعـد ووعيد».(٣)

وقد ورد وصف نبينا محمد ﷺ بالنبوة في القرآن الكـريم ثـمان وعـشرين مرة،(٤) منها ثنتا عشرة في سورة الأحزاب، وأما نداؤه ﷺ بوصف النبوة فقد

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (١).

(٢) ينظر:معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٣٨٤ ، ٣٨٥)، لسان العرب (١/ ١٦٢- ١٦٣) مادة(نبأ).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٤٩).

(٤) وذلـك في سـورة آل عمـران، الآيـة (٦٨)، وفي الأعراف،الآيتـان): ١٥٧، ١٥٨)،وفي الأنفال، الآيات: (٦٤،٦٥،٧٠)، وفي التوبة، الآيات: (٦١،٧٣،١١٧)، وفي الأحزاب، الآيـات: (١، ٦، ١٣، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٥٩) ، وفي الحجـرات، =

ورد في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة [١]،خمسٌ منها في سورة الأحزاب، جاءت لأغراض متنوعة تتعلق بالتشريع بعضها خاص به ﷺ ، وبعضها عام يتعلق به وبغيره،ولعلي أقف مع نداءاته ﷺ الواردة في هذه السورة ونتأملها:

النداء الأول: ما ورد في بيان واجبات رسالة نبينا محمد ﷺ نحو ربه ﷻ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.[٢]

وافتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ وندائه بوصف النبوة إشارة إلى أن الأهم من سياق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ ، وأن الهدف الأساس منها هو بيان واجبات رسالة النبي ﷺ وتأديتها على أكمل وجه ، مع الحذر من أن يفسد عليه أعداؤه من الكافرين والمنافقين دعوته، وهذا ما يسمى ببراعة الاستهلال. [٣]

وأمرُهُ ﷺ بتقوى الله ﷻ التي حقيقتها امتثال أوامره واجتناب نواهيه

= الآية:(٢)، وفي الممتحنة، الآية:(١٢)، وفي الطلاق، الآية: (١)، وفي التحريم الآيات: (٩،٨،٣،١) .

(١) وذلك في سورة الأنفال، الآيات:(٦٥،٦٤،٧٠)، وفي التوبة، الآية:(٧٣)، وفي الأحزاب، الآيات: (٥٩،٥٠،٤٥،٢٨،١)، وفي الممتحنة، الآية: (١٢)، وفي الطلاق، الآية: (١)، وفي التحريم الآية(٩،١).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (١).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢١/ ٢٤٩).

يقصد به المداومة والثبات عليها، وهو أمر له ولأمته بطريق الأولى. [(١)]

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره:« هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى ». [(٢)]

ولما أمره ﷺ بتقواه أتبعه بالنهي عن الالتفات إلى أعدائه من الكافرين والمنافقين فقال ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وذلك لأن تحقيق هذا النهي من صميم التقوى، فاجتماع الأمر بالتقوى والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ، واستهلال السورة بذلك يشعر بأنَّ تشريعاً عظيماً سيُلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه، وأنه سيَلقى مطاعنَ من الكافرين والمنافقين. [(٣)]

النداء الثاني: ما جاء بقصد التنويه بمقام أزواجه ﷺ.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[(٤)] .

هذه الآية تسمى بآية التخيير، تخيير نسائه ﷺ بين ملك الدنيا ونعيم

---

(١) ينظر :الكشاف (٣/ ٥١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٧٥).

(٣) ينظر : التفسير الكبير(٢٥/ ١٩٠)، نظم الدرر (١٥/ ٢٧٥)، التحرير والتنوير (٢١/ ٢٥٠).

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان (٢٨،٢٩).

الآخرة، ولقد اخترن رضي الله عنهن جميعاً اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة .

وافتتاح الآيات بندائه ﷺ بوصف النبوة تشريف له وتكريم، وهذا النداء الثاني في هذه السورة، ووجه ارتباطه بالنداء الأول الذي افتُتحت به السورة هو أن فضائل الأخلاق تكاد تنحصر في شيئين: التعظيم لأمر الله ﷻ وهو المتمثل في النداء الأول، والشفقة على الخلق، وقد بدأ فيه بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة،(١) فجاءت الآية مبينة تحديد سيرة أزواجه رضي الله عنهن معه ﷺ بما يتناسب مع مرتبة النبوة « فأمره الله ﷻ بأن يُخيّر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة».(٢)

وإنما وجِّه الخطاب في هذه الآيات لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن، وعظيم قدرهن عند الله تعالى،ورفعةً لمرتبتهن لقربهن من النبي ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله. (٣)

النداء الثالث: ما يتعلق بشؤون رسالته:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا

---

(١) ينظر: التفسير الكبير(٢٥/ ٢٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٠١).

(٣) ينظر:تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي ص٦٦٢، تفسير سورة الأحزاب للغزالي خليل عيد ص٦٤

﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾.[١]

هذا هو النداء الثالث لنبينا محمد ﷺ في هذه السورة ، وذلك بعد أن أمره ﷻ في النداء الأول بما يكون عليه مع ربه، ثم بما يكون عليه مع نسائه أمره هنا بما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق.[٢] وافتتاح الآية بندائه ﷺ بوصف النبوة تشريف له وتكريم ، وإشارة إلى بيان مهمته في رسالته التي بعثه الله بها إلى الخلق ، ثم وُصف بالشهادة بأنه شاهد لمن صدَّقه، وعلى من كذَّبه ، ثم بالبشارة ، بأنه يبشر من آمن به بما يسرهم في الدارين ، ثم بالنذارة، بأنه ينذر من كفر وعصى بالوعيد الشديد والعذاب في النار ، ثم بالدعوة ، بأنه يدعو الخلق إلى عبادة ربهم بأمره وقدرته ، ثم بالسراج المنير الوقَّاد المضيء للخلق يستضيئون بالنور الذي جاء هم به من عند الله، وباتِّباعه ﷺ والاقتداء بسنته.[٣]

النداء الرابع: ما يتعلق بأحكام تزوِّجه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٤٥،٤٦).

(٢) ينظر: التفسير المنير (٢٢/ ٤٧).

(٣) ينظر:تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧

أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.(١)

هذا النداء الرابع من النداءات التي نودي بها نبينا محمد ﷺ في هذه السورة بوصف النبوة تشريفاً له وتكريماً ، حيث افتُتحت الآية بندائه ﷺ بوصف النبوة ليرتب عليه ما أُبيح له من النساء توسعة عليه وتيسيراً له في تبليغ الرسالة ، وهن على وجه الإجمال:أربعة أصناف: أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، وما أحل له من الإماء من السبي مما فتح الله عليه، ثم ما أحل من الأقارب من بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات ممن هاجرن معه، وهو قيد، دون من لم تهاجر لأن الهجرة شرف عظيم ومنقبة كبرى، ثم ما أحل له من نكاح الهبة الذي خُص به دون غيره من المؤمنين توسعة عليه وتيسيراً له. (٢)

النداء الخامس: ما ورد في تبليغه ﷺآداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات :

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣)

هذا النداء الخامس من النداءات التي نودي بها نبينا محمد ﷺ بوصف

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

(٢) ينظر:تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٤١)،إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٢٥) .

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٥٩).

النبوة تشريفاً له وإجلالاً لقدره،حيث افتُتحت الآية بندائه ﷺ بوصف النبوة وذلك ليشعر أنَّ ما بعده أمر عظيم من أمور الشريعة ينبغي الاهتمام به وتبليغه للأمة، وهو ما فرضه الله من الحجاب على النساء بأن يسدلن عليهن ما يسترهن من اللباس الشرعي الساتر لجميع الجسد، لما فيه من البعد عن مواطن الريب ومظان التُّهم وأذى الفساق . (١)

فبدأ بأزواجه بأمرهن بالحجاب لأن الغيرة عليهن أشد، ومسؤولية الزوج عنهن أعظم، ثم بناته لأن مسؤولية الوالد عن أولاده أعظم ،ثم عامة نساء المؤمنين. (٢)

فعلم مما تقدم عظيم وصف نبينا محمد ﷺ بالنبوة وأن ذلك تشريف له وإجلال لقدره، فعلينا نحن المسلمين توقيره وإجلاله ﷺ واحترامه وتوقير سنته قولاً وفعلاً وامتثالها في حياتنا.

---

(١) ينظر:التفسير الكبير (٢٥/ ٢٣٠)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/ ١٥٦).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٧١

المبحث الثاني: صفة الرسالة.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١).

وصف الله نبينا محمداً ﷺ في هذه الآية ونحوها بوصف الرسالة وأنه رسول الله وأن رسالته خاتمة لجميع الرسالات.

والرسالة من أجل صفاته، وهي مشتقة من الرِّسل، وهو الانبعاث على تؤدة ، يقال: ناقة رِسْلَة ،أي:سهلة السير،ويقال على رِسْلك ،أي:رفقاً، فلفظ الرِّسل يتضمن الانبعاث والرفق،وكلاهما متحقق في معنى الرسول، وهو يدل عليهما فالرسول هو المبعوث من قبل الله ﷻ وأن رسالته جاءت لإنقاذ الخلق رفقاً بهم. (٢)

وكما وصف الله ﷻ نبينا محمداً ﷺ بصفة النبوة وناداه بها كذلك وصفه بصفة الرسالة وناداه بها، فالنبوة والرسالة صفتان جمع الله تعالى بينهما لنبينا محمد ﷺ .

والنبوة والرسالة بينهما خصوص وعموم فكل رسول نبي ولا عكس، وأحسن ما قيل في الفرق بينهما ما اختاره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أن النبي من يعمل بشريعة من قبله والرسول هو الذي يأتي بشرع جديد. (٣)

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٠).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص١٩٥ (رسل).

(٣) ينظر: النبوات لابن تيمية ص٦٦

وقد وُصف نبينا محمد ﷺ بالرسالة ونودي بها في مواضع عديدة من كتاب الله ﷻ، حيث ورد وصفه ﷺ بالرسالة في القرآن الكريم في أكثر من مائتي موضع، معرفاً ومنكراً ومضافاً ومجرداً عن الإضافة [١]، مما يدل على عظم هذا الوصف وأهميته،أربع عشرة منها في سورة الأحزاب[٢].

وأما نداؤه ﷺ بوصف الرسالة فقد ورد في القرآن الكريم في موضعين في سورة المائدة[٣]، ولم يرد نداؤه بوصف الرسالة في سورة الأحزاب البتة، بل جاء وصفه ﷺ بالرسالة في سورة الأحزاب في مواضع متعددة ولأغراض متنوعة على النحو التالي:

أولاً: جاء وصفه ﷺ بالرسالة في الأمر بالتأسي به والاقتداء بشمائله،قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٤].

والآية جاءت في سياق ما جرى في غزوة الأحزاب ، وفي ثنايا عرض مواقف كل من المنافقين ومؤيديهم من رسول الله ﷺ ، والمؤمنين الصادقين، حيث أرشدت الآية إلى ضرورة التأسي به ﷺ في أقواله وأفعاله وأخلاقه وأحواله على وجه العموم، وفي صبره وجهاده وبذل نفسه وشجاعته وثباته ومقاساته الشدائد على وجه الخصوص.

(١) ينظر: المعجم المفهرس ص ٣١٤-٣١٨

(٢) وذلك في الآيات: (١٢،٢١،٢٢،٢٢،٢٩،٣١،٣٣،٣٦،٣٦،٤٠،٥٣،٥٧،٦٦،٧١).

(٣) وذلك في الآيتين:(٤١،٦٧).

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٢١).

ووصفه ﷺ في هذا المقام بصفة الرسالة تذكيراً للمؤمنين بمسارعة التأسي به ﷺ بأنه مرسل من عند الله ﷻ وأنه يوحى إليه، وأن أقواله وأفعاله وتصرفاته جميعاً بوحي من الله ﷻ الذي أرسله بالحق،وقد جاء عنه أنه قال: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعضوا عليها بالنواجذ».(١)

وأنَّ مما يدفع إلى التأسي به ﷺ الرغبةَ والأملَ فيما عند الله ﷻ من الأجر والثواب بلقائه وجزائه، والإكثارَ من ذكره ﷻ في جميع الأحوال حباً لله وتعظيماً له، ولذا ربطت الآية بين التأسي برسول الله والإيمان بالله واليوم الآخر، فمن يرجو ما عند الله يحقق التأسي برسوله ﷺ.(٢)

ولذا بيّن موقف المنافقين ومؤيديهم، وكشف عن حالهم وطويتهم المرتابة بأن ما وعدهم الله ﷻ من النصر وظهور الدين، ورسولُه ﷺ الذين أُمروا باتباعه والتأسي به وعودٌ كاذبة لا حقيقة لها،فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٣) فوصفُهُم النبيَّ ﷺ بصفة الرسالة التي تعني أنه لا يخبر إلا بحق لأنه يوحى إليه ، على سبيل الاستهزاء والتهكم، أي: رسولكم الذي تزعمون ويزعم ، ولو اعتقدوا أنه رسول من عند الله حقيقة ما قالوا تلك المقالة. (٤)

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦) قال شعيب الأرنؤوط:حديث صحيح ورجاله ثقات.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٠٢)، نظم الدرر(١٥/ ٣٢٢)،التفسير المنير (٢١/ ٢٧٣).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (١٢).

(٤) ينظر: نظم الدرر (١٥/ ٣٢٤)، التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٤).

ويأتي في المقابل موقف المؤمنين المصدقين بوعد الله ورسوله ،الذين أخلصوا القول والعمل،الذين عرفوا رسولهم ﷺ فتأسوا به في أقواله وأفعاله، وفي صبره وجهاده وثباته، قال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(١) .

وذلك أن المؤمنين لما رأوا أحزاب الكفار واليهود والمنافقين قد تحزبوا لمقاتلة رسول الله والمؤمنين أجابوا بكل ثقة وثبات أنَّ ما هم فيه من البلاء والفتنة في مجابهة العدو ثم النصر القريب هو وعد الله الحق ورسوله ﷺ المؤيد بالآيات الذي لا ينطق عن الهوى في أخباره ووعوده ، وصدق الله ورسوله ، فكل ما شاهدوه وما نزل بهم من الرعب وما أُخبروا به من النصر القريب لم يزدهم إلا تصديقاً ويقيناً وانقياداً. (٢)

ثانياً: جاء وصفه ﷺ بالرسالة في وجوب تقديم قضاء الله وقضائه على كل أمر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(٣) .

أي: لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بمن اتصف بالإيمان إلا أن يبادر إلى

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٢٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر (١٥/ ٣٢٥)، تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦٠ ، التفسير المنير (٢١/ ٢٧٤).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٦).

مرضاة الله ﷻ ورسوله ﷺ ، وأن يبعد عن سخط الله ورسوله، فلا يحل له إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء ، بل الواجب أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله ورسوله عليه.

وإنما جاء ذكر الله تعالى في الآية تعظيماً لأمره ﷻ،وذكر الرسول ﷺ موصوفاً بصفة الرسالة إشارة إلى أنه ﷺ بمنزلة من الله تعالى بحيث تُعدُّ أوامره أوامر الله ، وقضاؤه قضاء الله، وأن ما يفعله ﷺ إنما يفعله بأمره ،لأنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى. (١)

فمن خالف أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ الذي أرسله الله لخلقه ليبلغهم عنه ، فقد انحرف عن طريق الهدى والرشاد،ووقع في متاهات الضلال.

فذِكر الرسول ﷺ موصوفاً بصفة الرسالة في جانب المعصية إشارة إلى أن معصيته ﷺ معصية لله ﷻ لكونه بينه وبين خلقه في بيان ما أوحي إليه وأرسل إليهم. (٢)

ثالثاً: جاء وصفه ﷺ بالرسالة في وجوب طاعته وامتثال أمره وثمرة ذلك .

وكما دلت الآية السالفة على أنَّ معصيته ﷺ معصية لله ﷻ ، دلت آيات أخر من هذه السورة على أنَّ طاعته ﷺ وامتثال أمره طاعة لله ﷻ ، قال تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾(٣) والآية

(١) ينظر:فتح القدير (٤/ ٢٨٣)، روح المعاني (٢٢/ ٢٢).

(٢) ينظر:نظم الدرر (١٥/ ٣٥٦)، تفسير سورة الأحزاب للغزالي خليل عيد ص٩٠

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).

جاءت في سياق توجيه شيء من الآداب والأوامر والنواهي لأزواج النبي ﷺ ونساء المؤمنين ، ومنها الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله التي هي امتثال ما أمر به وترك ما نهى عنه.

والتصريح بصفة الرسالة لنبينا محمد ﷺ في مقام الأمر بطاعته دليل على أن طاعته ﷺ طاعة لله ﷻ لكونه بينه وبين خلقه في بيان ما أوحي إليه وأرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١) .

بل جاء التعبير بما هو آكد من الطاعة وهو القنوت لله ولرسوله، إذ القنوت يعني لزوم الطاعة والاستمرار عليها، (٢) قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾(٣) .

فالقنوت لله ﷻ قنوت عبادة وتذلل وخشوع وامتثال لما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ، والقنوت للرسول ﷺ قنوت طاعة له فيما يأمر به أو ينهى عنه. (٤)

ويدخل في ذلك طاعة زوجاته له ﷺ ورضي الله عنهن بأداء حقوقه التي يجب عليهن وعدم مطالبته بما يشق عليه من النفقة ونحوها.

ثم أكد ذلك القنوت بالعمل الصالح بأن تعمل عملاً صالحاً خالصاً وموافقاً للشرع، وأنه إن امتثلن ذلك فإن الله بواسع فضله وعظيم إحسانه

(١) سورة النساء، الآية (٨٠).

(٢) ينظر: المفردات ص٤٢٨ (قنت)

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣١).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٢٢٧)، روح المعاني (٢/ ٢٢).

يجازيهن ثواباً مضاعفاً، ويزيدهن الرزق الواسع المبارك، وإنما أسند فعل إيتاء أجرهن إلى ضمير الجلالة تشريفاً لإيتائهن الأجر، بخلاف العذاب في الآية قبلها: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾، (١) فلم يصرح به إشارة إلى كمال فضله وسعة رحمته، (٢) فذكر الرسول ﷺ موصوفاً بصفة الرسالة في مقام الأمر بالقنوت له ﷺيدل على أن طاعته طاعة لله، والقنوت له قنوت لله، لكونه بينه وبين خلقه في بيان ما أوحي إليه.

وفي آية تخيير النبي ﷺ نساءَه رضي الله عنهن بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة، وقد اخترن جميعاً الله ورسوله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (٣) يأتي التصريح بذكر الرسول ﷺ موصوفاً بصفة الرسالة في تخييرهن فاخترن البقاء مع رسول الله الذي ائتمر بأمر الله وبلَّغ ما أمره الله به عبادَه، لكونه بينه وبين خلقه في تبليغ ما أوحي إليه.

وجاء التصريح أيضاً بذكر الرسول ﷺ في السورة موصوفاً بصفة الرسالة في سياق تحسُّر الكفار وتندمهم غير المفيد بأنهم لو أطاعوا الله فيما أمرهم به وأطاعوا الرسول ﷺ الذي أرسل إليهم بما أوحي إليه، وفي هذا دلالة على أن طاعته ﷺ طاعة لله ﷻ لكونه بينه وبين خلقه في بيان ما أوحي

(١) الآية (٣٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/ ٥)، منحة الكريم الوهاب ص٥٢

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٢٩).

إليه وأرسل إليهم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾(١).

كما جاء التصريح بصفة الرسالة لنبينا محمد ﷺ في مقام الأمر بطاعة الله، وطاعة الرسول في بيان ما تحققه تلك الطاعة من سعادة في الدارين ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

رابعاً: جاء وصفه ﷺ بالرسالة في نفي أبوَّته لأحد و بيان أنه خاتم النبيين.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(٣).

وقد سيقت الآية للرد على توهُّم من توهَّم أن يكون النبي ﷺ أبا أحد من الرجال ولادة ونسباً، لأن أبناءه ماتوا صغاراً ، أو ادعاءً وتبنياً ، حيث كان ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فليس ﷺ أباً على الحقيقة لأحد من الرجال، ولكن رسول الله، أرسله ليبلغ رسالته للناس ، وهو خاتم النبيين وآخرهم، وبرسالته ختمت الرسالات فلا نبي بعده، فلذا وصف ﷺ بصفة بالرسالة في هذا المقام لإثبات أنه مرسل من عند الله عز وجل يوحى إليه وأنه عز وجل أرسله للناس مبلغاً عنه وأن طاعته وتعظيمه واجب عليهم .(٤)

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٦٦)، وينظر: التفسير المنير (٢٢/ ١١٩).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٧١)، وينظر: منحة الكريم الوهاب ص٢٥٢

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٤٠).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٨)، التحرير والتنوير (٢٢/ ٤٤).

خامساً: جاء وصفه ﷺ بالرسالة في التحذير من إيذائه بأي نوع.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1].

فتصريح الآية بوصف نبينا محمد ﷺ بصفة الرسالة في مقام تحريم إيذائه بأي وجه فيه دلالة واضحة على عظم هذا الأمر عند الله ﷻ لأنه ﷺ رسوله المبعوث من عنده الموحى إليه المؤيد بالدلالات والمعجزات،وأن من آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

قال ابن سعدي: « فأذيته ﷺ ليست كأذية غيره، لأنه ﷺ لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله ﷺ ،وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره».[2]

وقال الطاهر ابن عاشور: « والقرن بين أذى الله ورسوله للإشارة إلى أن أذى الرسول ﷺ يُغضب الله تعالى فكأنه أذى لله ».[3]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧١ وابن سعدي عبدالرحمن بن ناصر السعدي من علماء القصيم برع في فنون شتى وألف مؤلفات عديدة، توفي سنة ١٣٧٦هـ، ينظر: مشاهير علماء نجد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص٢٩٢، معجم المفسرين عادل نويهض (٢٧٩/١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٠٤)،والطاهر ابن عاشور: من علماء تونس ولد ونشأ بها، ودرَّس في جامع الزيتونة، له عدة مؤلفات ، توفي:(١٣٩٣هـ)،ينظر:الأعلام (٦/ ١٧٤)،معجم المفسرين (٢/ ٥٤١).

ولذا جاء الوعيد الشديد لهم بالطرد والإبعاد من رحمته في الدنيا والآخرة وبالعذاب المهين لأن الذي دفعهم إلى الإيذاء هو الاستهانة والاحتقار فأُهينوا بالعذاب المهين .[١]

بل جاء النهي عن إيذاء الرسول ﷺ بأسلوب أشد وأقوى وهو أسلوب النفي بأنه غير جائز ولا واقع من المؤمنين أن يؤذوا نبيهم بأي نوع من أنواع الأذى في أي وقت من الأوقات، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[٢] .

فوصف النبي ﷺ بصفة الرسالة في هذين الموضعين للتحذير من أذيته، وللتعظيم من شأنه، والإجلال من قدره، وأنه أرسل من عند الله ﷻ يوحى إليه ويبلغ ما أرسل به إليهم.

قال البقاعي: « وذكَّرهم -أي المؤمنين- بالوصف الذي هو سبب لسعادتهم واستحق به عليهم من الحق ما لا يقدرون على القيام بشكره فقال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ،أي: الذي له جميع الكمال فله إليكم من الإحسان ما يستوجب منكم به غاية الإكرام والإجلال ، فضلاً عن الكف عن الأذى ».[٣]

---

(١) نظم الدرر (١٥/ ٤١٠).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

(٣) نظم الدرر (١٥/ ٣٩٤)، والبقاعي:إبرهيم بن عمر بن حسن،مؤرخ مفسر محدث، ولد =

فوصف نبينا محمد بوصف الرسالة حتى نعلم جميعاً أن أفعاله وأقواله وتقريراته كلها تنبعث عن كونه رسولاً يوحى إليه قائماً بحق الرسالة ، فعلينا أن نستحضر وصف الرسالة ونفهم كونه رسول الله وأن نتأسى به في حياتنا وفي جميع أحوالنا.

= ونشأ بالبقاع، وسكن دمشق توفي بها :(٨٨٥هـ)،ينظر:البدر الطالع للشوكاني (١/ ١٩)، التاج المكلل لصديق خان ص٣٥٨.

المبحث الثالث :صفة التبليغ .

التبليغ من بلَّغ بلاغاً وتبليغاً، إذا أوصله الأمر وانتهى، والتشديد للكثرة، وبالغ في الأمر مبالغة ، وبلاغاً: إذا اجتهد في إيصاله ولم يألُ فيه. (١)

والرسولُ هو من يوحى إليه بتبليغ أمر ما وإيصاله إلى البشر، ولا يعرف وحي الله وشرعه لعباده إلا بواسطته،فليس ثمة سبيل يعرف به شرع الله وأحكامه وفرائضه إلا سبيله. ونبينا محمد ﷺ من أجل صفاته صفة التبليغ عن الله تعالى، فكان أحرص الناس بلاغاً لرسالة ربه وهداية الناس.

وإذا تأملنا في آيات سورة الأحزاب وجدنا أن نبينا محمداً ﷺ قد وصفه الله ﷻ بصفة التبليغ وبأنه مبلغ للوحي ولرسالة ربه ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾(٢).

ففي الآية امتداح من الله تبارك وتعالى للذين يبلغون رسالته إلى خلقه ويؤدُّونها بأمانة ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، وسيدُ المرسلين في هذا المقام، بل وفي كل مقام أشرفهم وأفضلهم فإنه قام بتبليغ الوحي فأدى رسالة ربه ونصح أمته وجاهد في الله حق جهاده ، وأظهر الله كلمته وشريعته على جميع الأديان والشرائع . (٣)

وقد أمر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ في مواطن متعددة من كتابه العزيز بأن

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٠١)، لسان العرب (٨/ ٤١٩)،(بلغ).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٤٠).

(٣) ينظر:تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٧).

يبلغ ما أوحي إليه البلاغ المبين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾[3].

فهذا أمر من الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ وحث على تبليغ ما أوحي إليه وما أنزل إليه، وقد امتثل ﷺ أمر ربه فبلغ أكمل تبليغ بقوله وفعله، بل حرص غاية الحرص على إبلاغ ما أوحي إليه دون أن تأخذه في الله لومة لائم، فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «من حدَّثك أن النبي ﷺ كتم شيئاً من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾»[4].

وجاء عنها رضي الله عنها أنها قالت: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ ﴾»[5].

(١) سورة المائدة، الآية (٦٧).

(٢) سورة النحل، الآية (٨٢).

(٣) سورة الشورى، الآية (٤٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٨٥)،كتاب التفسير باب (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)، برقم (٤٣٣٦).

(٥) وهي الآية (٣٧) من سورة الأحزاب، وقد روى هذا الأثر الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٣).

وقد جاءت هذه الآية لإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من جعلهم الدَّعي في حكم الابن،وتحريم زوجة الدَّعي على من تبناه، وأنَّ ما أخفاه النبي ﷺ هو أنه لو طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه لتزوجها ﷺ .

قال ابن القيم: « وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد ، وكان يخشى من قالة الناس: أنه تزوج امرأة ابنه ، لأن زيداً كان يُدعى ابنه ، فهذا الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له ، ولهذا ذكر -سبحانه وتعالى- هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه، لا يعاتبه فيها ، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له ، وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج مما أحله له لأجل قول الناس ».[١]

ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن النبي ﷺ موصوف بأنه بلغ ما أوحي إليه البلاغ المبين مراقباً الله وحده في ذلك لا يخشى لومة لائم .

ومن خلال معرفة صفة التبليغ لنبينا محمد ﷺ الواردة في سورة الأحزاب فإننا ندرك أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلغه، حتى ما تعلق في عتابه، وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه. [٢]

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٦٦)، وابن القيم: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، من علماء الحنابلة وممن تتلمذ على شيخ الإسلام ،توفي (٧٥١هـ)، ينظر:طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٩٣)، كتاب ابن قيم الجوزية حياته وآثاره د.بكر أبو زيد ص٧

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦٥

المبحث الرابع: صفة الخشية.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾(١).

صفة الخشية من الصفات الجليلة والشمائل الكريمة التي وصف بها نبينا محمد ﷺ في سورة الأحزاب، وأنه ﷺ كان أشد الناس خشية لربه ﷻ،وأنَّ هذه الصفة من الصفات الثابتة له ﷺ ، فقد جاء عنه أنه قال: « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له».(٢)

وخشية الله ﷻ صفة جليلة ، من أجل مقامات الدين وأعظمها،وأجمع أنواع العبادة.

وقد عُرِّفت بأنها:خوف يشوبه تعظيم ، وأكثره يكون عن علمٍ بما يخشى منه،وهي أخص من الخوف، لأنها خوف مقرون بمعرفة. (٣)

والخشية أساس طالب العلم، فعلامة العلم خشية الله تعالى، لأن الخشية تدفع إلى العمل بالعلم، حتى قال بعض السلف: « الخشية أن تخشى الله ﷻ حتى تحول خشيته بينك وبين معصية الله ».(٤)

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٢٩) كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح،برقم (٥٠٦٣) عن أنس ﷺ.

(٣) ينظر:المفردات ص ١٤٩ التعريفات للجرجاني ص١٣٣(مادة خشي)، وينظر:مدارج السالكين (١/ ٥١٢)

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٦/ ٥٤٥) عن سعيد بن جبير رحمه الله.

ولهذا خص الله العلماء بها فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: « إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر ». (٢)

وفائدة تقديم المفعول – لفظ الجلالة (الله)– في الآية هو حصر الفاعلية، أي: أن الله تعالى لا يخشاه إلا العلماءُ ، ولو قُدم الفاعل لاختلف المعنى ولصار: لا يخشى العلماءُ إلا اللهَ، وهذا غير صحيح فقد وُجد من العلماء من يخشون غير الله،(٣)

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الآية: « وهذا يدل على أن كل من خشي الله فهو عالم، وهو حق ، ولا يدل على أن كل عالم يخشاه ».(٤)

هذا وإذا تأملنا آية الخشية التي جاء فيها وصفُ نبينا محمد ﷺ في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(٥)، وجدناها قد سيقت على سبيل الامتداح من الله ﷻ لرسله الكرام الذين قاموا بمهمتهم من تبليغ

(١) سورة فاطر، الآية (٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٤).

(٣) ينظر:أنوار التنزيل (٢/ ٢٧٢) ، فتح القدير (٤/ ٣٤٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٩).

(٥) سورة الأحزاب، الآية (٣٩).

رسالات ربهم وشرائعه للناس من غير تقصير، وأنهم أدَّوا ذلك بأمانة،وهم يخشون ربهم حق خشيته، فيراقبونه في أقوالهم وأعمالهم ، ويحذرونه ،لأنهم يعرفون عظمته ﷻ فيعظمونه حق التعظيم ، ولا يخافون أحداً سواه ، فلا يخشون أحداً في تبليغ رسالات ربهم ، وسيدُ الناس في هذا المقام ، بل وفي كل مقام وأشرفهم وأفضلهم نبينا محمد ﷺ ، فإنه قام بمهمته من تبليغ الوحي فأدى رسالة ربه ، ونصح أمته، وجاهد في الله حق جهاده ، وهو يخشى ربه ويراقبه ، ويعظمه حق التعظيم،ولا يخشى أحداً سواه. (١)

ولما كانت خشية الله ﷻ ومراقبته حذراً من محاسبته ومجازاته ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾، أي: يكفي أن يكون الله ﷻ محاسباً عباده، مراقباً أعمالهم ، وكافياً من أراد كفايته ، فهو الذي له الخشية وحده.(٢)

ففي الآية ثناء من الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ بكونه موصوفاً بالخشية، وأنه أشد الناس خشية لربه ، فيراقبه في أقواله وأعماله فهو ﷺ أعلم الناس بربه، وأشدهم له تعظيماً وتبجيلاً.

ولما خشي النبي ﷺ الناس وتحرج منهم في شيء قد أباحه الله له ، وهو زواجه من مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهي زينب بن جحش رضي الله عنها(٣)، فخشي أن يقول الناسُ: تزوج محمد حليلة ابنه، أعلمه الله ﷻ أنَّ

(١) ينظر:تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٧).

(٢) ينظر:نظم الدرر (١٥/ ٣٦٢) ، تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٦

(٣) زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، أمها عمة النبي ﷺ ، تزوجها النبي بعد طلاقها من زيد رضي الله عنه سنة خمس من الهجرة وتوفيت سنة (٢٠هـ)، ينظر:الاستيعاب (٤/ ٣٠٦)، =

الأولى بالخشية والأحق بها هو الله ، فقال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ (١).

وهذه الآية جاءت لإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من أن الأدعياء في حكم الأبناء وأن أزواجهم لا يحل لمن تبناهم نكاحهن ، فأحلت أزواج الأدعياء لمن تبناهم نكاحهن.

فالخطاب في الآية للنبي ﷺ ، والمنعَم عليه هو زيد بن حارثة رضي الله عنه ، أنعم الله عز وجل عليه بالإسلام وأنعم عليه النبي ﷺ بالعتق ، قال له النبي لما جاءه يستأذنه في فراق زوجه زينب بنت جحش رضي الله عنها: أبق عليك زوجك ولا تطلقها ، واتق الله، وقد أخفى النبي ﷺ ما أُوحي إليه من أنه سيتزوجها بعد فراق زيد لها ، والله عز وجل مظهر ما أخفاه النبي ﷺ مخافة قالة الناس أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، والله تعالى وحده هو الأحق بالخشية ، فلما قضى زيد منها حاجته، وطلقها، وانقضت عدتها، زوجها الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ،ليكون أسوة في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المتبنى بعد طلاقها. (٢)

= الإصابة (٤/ ٣٠٧)، وزيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي، تبناه النبي ﷺ وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ شهد بدراً وما بعدها واستشهد في غزوة مؤتة،ينظر: الاستيعاب (١/ ٥٢٥)،الإصابة (١/ ٥٤٥).

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٧).

(٢) ينظر:أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٤٢)، فتح القدير (٤/ ٢٨٤)،تيسير الكريم =

فالأحق بالخشية هو الله ﷻ ، وهو الأجل في أن يراقبه العباد في أقوالهم وأفعالهم ، ويحذروه ، ويقدموا خشيته على خشية غيره من الخلق ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[1]، وقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] .

فهذا التوجيه من الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ بأن يكون متصفاً بالخشية لربه ،والتي هي من أعلى المقامات وأشرفها وأسمى الصفات وأعلاها، وأنه يجب أن يقدم خشية ربه ﷻ في كل الأحوال والأزمان على خشية الناس، فكان نبينا محمد ﷺ أول الممتثلين أمر ربه ، المسارعين للاستجابة له، بصيراً بأمر دينه ، مداوماً على عبادة ربه ، متصفاً بخشيته في كل أحواله ﷺ. فعلى المسلم أن يتخلق بهذا الخلق وأن يتصف بصفة الخشية التي هي من أجل صفات نبينا محمد ﷺ وأن يخشى الله حق خشيته فيكون ذلك دافعاً له في المسارعة للعمل الصالح والاستمرار على طاعة الله حتى الممات والحذر من كل معصية وآثارها السيئة .

= الرحمن ص٦٦٥

(١) سورة المائدة ، الآية (٤٤).

(٢) سورة التوبة ، الآية (١٣).

المبحث الخامس :صفة الحياء

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ (١) .

الحياء من الصفات الجليلة والشمائل الكريمة التي وصف بها نبينا محمد ﷺ في سورة الأحزاب، فهو ﷺ أكمل الناس حياءً ، وأعظمهم اتصافاً به،وأشدهم تمسكاً ، فقد ورد أنه كان ﷺأشدَّ حياءً من العذراء في خِدرها،(٢)

وحقيقة الحياء: خُلُق يبعث على فعل كل مليح ، وترك كل قبيح. (٣)

فالحياء خلق رفيع ، يحمل صاحبه على تجنب القبائح والرذائل، ويأخذ بيده إلى فعل المحاسن ، وهو مجمع الفضائل ، ورأس مكارم الأخلاق ، وزينة الإيمان، يدعو إلى كل فضيلة ، ويرشد إلى كل خلق (٤)، ولذا جاء في

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٠٦) كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ،برقم (٣٣٦٩) ،ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٠٩) كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ برقم (٢٣٢٠).

(٣) ينظر :الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٣٩).).

(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٨٥)،الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٣٩).

الحديث: « إنَّ لكل دين خُلُقاً، وخُلُق الإسلام الحياء».[(١)]

وهذه الآية التي بين أيدينا كان سبب نزولها هو ما جاء في قصة زواج النبي ﷺ بـ زينب بنت جحش رضي الله عنها، فبعد أن تناول الصحابة رضي الله عنهم طعامهم تفرق أكثرهم، وبقي ثلاثة منهم في البيت يتحدثون، والنبي ﷺ يرغب في خروجهم،ولكن لشدة حيائه ﷺلم يقل لهم شيئاً،وتركهم وشأنهم،حتى تولى الله ﷻ بيان ذلك، فأنزل عليه الآية.[(٢)]

فالآية الكريمة تبين ما كان عليه نبينا محمد ﷺ من الخلق الرفيع والأدب الجم وأنه ﷺ أكمل الناس حياءً ، وأعظمهم اتصافاً به ،وأشدهم تمسكاً ، فقد كره ﷺ صنيع بعض أصحابه، وكره أن ينهاهم عن ذلك ، أو يأمرهم بالانصراف ، وذلك لشدة حيائه ﷺ ، ولخلقه الرفيع ، وقلبه الرحيم ، فسجل له القرآن هذا الخلق: ﴿فَيَسْتَحْيِ مِنكُمْ﴾ .

فالآية فيها ثناء على النبي ﷺ بأنه شديد الحياء منعه خُلُقُه الكريم أن يقابلهم بما يكرهون مهما بلغ به الضرر، بل لا يصدر منه إلا ما يسرهم .[(٣)]

ومما ورد في السورة من حيائه ﷺ ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٩٩)كتاب الزهد،باب الحياء برقم (٣٣٩٠) عن ابن عباس ﷺ،وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٨٩).

(٢) روا البخاري في صحيحه(٤/ ١٧٩٩) كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب (٤٥١٤) ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٤٦) كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش (١٤٢٨)، عن أنس ﷺ.

(٣) ينظر:روائع البيان (٢/ ٣٤٢)، التفسير المنير (٢٢/ ٨٧).

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾(١).

فشدة حيائه ﷺ جعله يخشي الناس في إخفاء ما أُوحي إليه من أنه سيتزوج بزينب بنت جحش رضي الله عنها بعد فراق زيد بن حارثة ﷺ لها، فأظهر الله ﷻ ما أخفاه النبي ﷺ مخافة قالة الناس أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه ، فوقع ذلك منه لخُلُقه الكريم،وحيائه الجم ، وبُعْده ﷺ عن كل ما ينتقص حسن فضائله ومكارم أخلاقه من سيء الفعال ، فكان ﷺ أكمل الناس حياءً ، وأعظمهم اتصافاً به ،وأشدَّهم تمسكاً به. (٢)

فالحياء من صفات نبينا محمد ﷺ الجليلة وشمائله الكريمة التي كان يتخلق بها ، وهو أسوتنا في هذا فلنقتد به في خلقه ولنتصف بهذا الخلق ولنعلم أن الحياء شعبة من شعب الإيمان.

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٧).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٥

المبحث السادس: صفة الولاية.

قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[1].

من الصفات الجليلة والأخلاق الفاضلة التي وصف بها نبينا محمد ﷺ في سورة الأحزاب ولايته على أمته في كل شيء من أمور الدين والدنيا وشدة نصحِهِ لها واهتمامِهِ بأمرها ومصالحها.

والولاية تعني: النصرة والتأييد والأحقية بالشيء والمتولي أمره وشأنه،[2] وكلها يصدق عليها ذلك الوصف الوارد في الآية.

قال ابن كثير في تفسيره للآية: « قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحَه لهم،فجعله أولى بهم من أنفسهم،وحكمه فيهم مُقدَّماً على اختيارهم لأنفسهم».[3]

ففي الآية التي بين أيدينا عظيم مكانة النبي ﷺ عند ربه ﷻ ،حيث بوَّأه هذه المنزلة، وفضَّله بها على سائر خلقه، فجعله أولى بالمؤمن وأقرب من نفسه، وأبرَّ به منها، وأحب إليه منها من جميع الوجوه، ولذا قال ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ،أي: على الإطلاق ولم يقيّد.

فهذه الولاية عامة في كل شيء من أمور الدين والدنيا، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة

(١) سورة الأحزاب، الآية (٦).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٤٠٥)،(مادة ولي).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٨٠).

،اقرؤوا إن شئتم: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾». [١]

فالله سبحانه وتعالى رفع مكانة نبيه ﷺ ومنزلته في قلوب المؤمنين حيث إنه ﷺ أولى بكل مؤمن ومؤمنة من نفسه وما يملك ، وأقرب إليه منه، وجعل هذا الأمر من صميم الإيمان وأصلاً من أصوله ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنه أن يكون ﷺ أحبَّ إليهم من أنفسهم ، ولذا جاء عنه ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » ، [٢]

ولما قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، فقال: يا رسول الله والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ : « الآن يا عمر ». [٣]

فعلى كل مؤمن ومؤمنة أن يعرف مكانة النبي ﷺ ، و يعلم أنَّ نبيه محمداً ﷺ أولى به من نفسه ، وأن كل ما يملك فداء له وملكٌ له ، وأنه يجب التسليم الكامل والانقياد التام لأمره ولما جاء عنه ﷺ ، قال تعالى: ﴿وَمَا

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٩٥)كتاب التفسير، باب ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾برقم (٤٥٠٣)عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) كتاب الإيمان،باب حب الإيمان برقم (١٥)، ومسلم في صحيحه (١/ ٦٧) كتاب الإيمان باب وجوب محبة الرسول ﷺ برقم (٤٤) عن أنس ﷺ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٤٤٥)كتاب الأيمان والنذور،باب كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم (٦٢٥٧).

كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾[1] وألاّ يرغب بنفسه عن نفس نبيه ﷺ الزكية الكريمة حفاظاً عليها وعلى راحتها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، [2] بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مؤمن أن يفديه بنفسه، ويقدمه عليها، تعظيماً لرسول الله ومحبة له وإيماناً به.

وإنما استحق ﷺ هذه المرتبة العظيمة والمكانة العالية بفضل من الله ﷻ ثم لعظم شفقته على أمته ورأفته بهم، وكمال نصحه لهم، وحرصه على هدايتهم، وشدة رحمته بهم، فإنه ﷺ ما ترك طريقة تهدي إلى الصواب إلا وشرعها لهم ودلّهم عليها بفعله وقوله.

فلا ريب أن يكون ﷺ بهذه المكانة من الشفقة على أمته والنصح لها والحرص عليها والرأفة والرحمة بها، ولذا وصفه القرآن الكريم بذلك فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾،[3] فكان ﷺ يعزُّ عليه ويشق عليه ما يشق على أمته، كما أنه كان حريصاً يحب الخير للمؤمنين ويسعى جهده في إيصاله إليهم شديد الرأفة والرحمة بهم،أرحم بهم من والديهم، فكان حقاً ولياً وشفيقاً على أمته ناصحاً لها . [4]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٦).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٠).

(٣) سورة التوبة، الآية (١٢٠).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٥٩

المبحث السابع: صفة الصدق

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[١].

« أصل الصدق يدل على قوة في الشيء قولا وغيره. من ذلك الصدق: خلاف الكذب، سمي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له، هو باطل. وأصل هذا من قولهم شيء صدق، أي صلب ».[٢]

والصدق من الصفات النبيلة والشمائل الكريمة التي كان يتصف بها نبينا محمد ﷺ ويتحلى ويتخلق بها ،فكان صادقاً في وعوده وأخباره، بل إنه ﷺ كان المثَلَ الأعلى في الاحتذاء به في صدقه في أقواله وأفعاله، ووفائه بوعوده .

وقد كان هذا الخُلُق من صفات نبينا محمد ﷺ في الجاهلية والإسلام ، فقد كانت قريش تصفه قبل أن يتنزل عليه الوحي بالصادق الأمين ، وحتى مع بدء الدعوة ، اعترفت قريش بصدقه قبل أن يتكلم عن دعوته،وذلك أنه لما صعد الصفا فهتف: « يا صباحاه »، فقالوا:من هذا ؟ فاجتمعوا إليه قال: « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ »،قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ».[٣]

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٢٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٠٢) كتاب التفسير،باب تفسير سورة المسد، برقم =

وصفة الصدق من صفات الأنبياء وأخلاق المرسلين ، فقد أشاد القرآن الكريم بهذا الخلق الحميد حيث وصف نبي الله ﷻ ورسوله إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد تشريفاً له وإكراماً، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾[1] .

قال ابن جريج في تفسير الآية: «لم يَعدْ ربَّه عدة إلا أنجزها، يعني: ما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها ».[2]

وسورة الأحزاب قد كشفت لنا هذا الخلق النبيل لنبينا محمد ﷺ من خلال موقف أصحابه رضوان الله عليهم حينما رأوا أحزاب الكفار واليهود والمنافقين قد تحزبوا لمقاتلة رسول الله ﷺ والمؤمنين أجابوا بكل ثقة وثبات أنَّ ما هم فيه من الابتلاء والفتنة في مجابهة العدو ثم النصر القريب هو ما وعد الله ﷻ بوعده الحق الذي لا يخلفه، ورسولُه ﷺ الصادقُ في وعوده وأخباره ،الذي لا ينطق عن الهوى،المؤيدُ بالآيات والمعجزات،قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾[3].

= (٤٦٨٧)،ومسلم في صحيحه (١/ ١٩٣)كتاب الإيمان، باب باب في قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين)، برقم (٣٥٥)،عن ابن عباس رضي الله عنه .

(١) سورة مريم ، الآية (٥٤).

(٢) ينظر:جامع البيان (١٦/ ٧٢)،وابن جريج: عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، رومي الأصل من موالي قريش، كان إماماً فقيهاً،مات بمكة سنة (١٥٠هـ)،ينظر:تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٠/ ٤٠٠)، طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٥٨).

(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٢٢).

وقد صدق اللهُ ورسولُه ، فإنَّ كل ما شاهده المؤمنون ، وكل ما حصل لهم من الزلزال وتعاظم الأهوال ، وما نزل بهم من الرعب وما أُخبروا به من النصر القريب لم يزدهم إلا تصديقاً ويقيناً وانقياداً. [١]

ولما عرضت السورة موقف المؤمنين الصادقين المصدقين بوعد الله ورسوله عرضت بالمقابل موقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض من وعد الله ورسوله بنصر المؤمنين على من تحزب لمقاتلتهم وإظهار دينه بأنه وعد كاذب لا حقيقة له ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢].

فهذا موقف المنافقين ومرضى القلوب من وصف الرسول ﷺ بأنه غير صادق في وعوده ،وأنَّ وعوده وعودٌ كاذبة لا حقيقة لها ، فشتان ما بين الفريقين:

المؤمنون الذين صدقوا الله وقاموا بما عاهدوا الله ووفوا بوعدهم ولم ينقضوه ، وقالوا مقالتهم بكل ثقة وثبات أنَّ رسول الله ﷺ ذا الخلق الكريم صادقٌ في وعوده وأخباره ، والمنافقون ومرضى القلوب الذين كشفت هذه المواقف عن حالهم وطويتهم المرتابة بأنَّ رسول الله ﷺ كاذب في وعوده وبأنَّه قد غرَّ أصحابه بتلك الوعود الكاذبة من النصر والظفر والتمكين ،

(١) ينظر :نظم الدرر (١٥/ ٣٢٥)، تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٠ ، التفسير المنير (٢١/ ٢٧٤).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (١٢).

حتى قال قائلهم: يعدنا محمد بفتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته. (١)

فمما تقدم تبين لنا أنَّ من صفات نبينا محمد ﷺ الكريمة التي كان يتحلى بها ، وشمائله الطيبة التي حرص على التخلق بها وغرسها في نفوس أصحابه الصدق وأنه كان صادقاً في وعوده وأخباره ، وأن حياته العملية كانت مثالاً في الصدق في القول والعمل، والوفاء بالوعد.

فكان حقاً على أمته وأتباعه أن يتحلوا بصفة الصدق ويتخلقوا بها في وعودهم وأخبارهم، وفي أقوالهم وأفعالهم .

(١) ينظر: جامع البيان (٢١/ ٨٤).

المبحث الثامن: صفة الشهادة

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[١].

معنى الشهادة: الحضور والإعلام والاطلاع على الشيء والإشراف عليه [٢]، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[٣].

ومن صفات النبي الكريم ﷺ التي وصف بها في سورة الأحزاب صفة الشهادة، وذلك أنه ﷺ شاهد لله ﷻ بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، وشاهد على أمته وعلى أعمالهم خيرها وشرها. [٤]

وقد نقل لنا القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بالشهادة في أكثر من موضع غير ما ذكر في سورة الأحزاب، منها:

أولاً: جاء وصفه ﷺ بأنه شاهد على الناس بتبليغ ما أمره الله ﷻ به، وبإجابة من أجاب دعوته، وامتناع من امتنع، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾[٥].

ومجيء هذا الوصف بصيغة اسم الفاعل في زمن الحال، أي: هو شاهد عليكم الآن، لإفادة استمرار الدعوة وتكررها. [٦]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٥)، وورد مثلها في سورة الفتح، الآية (٨).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٧٢)، ،المصباح المنير للفيومي ص ٤٤٣ (مادة شهد)

(٣) سورة البروج، الآية (٩).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧، ص٧٩٢

(٥) سورة المزمل، الآية (١٥).

(٦) ينظر: جامع البيان (٢٩/ ٨٦)، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٧٣).

ثانياً:جاء وصفه ﷺ بأنه شهيد ، بمعنى الحاضر الرقيب، أو القائم بالشهادة ،[1] قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2].

والآية في سياق تعداد نعم الله ﷻ العظيمة ومنحه الجليلة التي تفضل بها على هذه الأمة والتي منها، جَعْلُهُم أمة خياراً عدولاً ، وسطاً في كل أمور الدين ، وذلك ليكونوا شهداء على الأمم السابقة بأنَّ رسلهم قد بلغوهم رسالات ربهم. [3]

ثم وُصف الرسول ﷺ بأنه شهيد عليهم حيث بلَّغهم البلاغ المبين ، وكان لهم إماماً وقدوة ومثلاً أعلى في الوسطية ، فإن ساروا عليها كانت شهادته ﷺ تزكية لهم ، وإعلاماً لهم بعدالتهم، وإن حادوا عنها شهد عليهم بأنهم ليسوا من أمته ، فخرجوا من الوسطية إلى الانحراف. [4]

وهذه الشهادة الموصوف بها نبينا ﷺ إنما تتجلى يوم العرض على الله

---

(١) ينظر: الكشاف (١/ ١٢٩)،البحر المحيط (١/ ٣٦٧).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

(٣) يوضح ذلك ما جاء في صحيح البخاري (٣/ ١٢١٥) كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى (إنا أرسلنا نوحا) برقم (٣١٦١) عن أبي سعيد ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: "يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته" قال: فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.

(٤) ينظر: الكشاف (١/ ٢٣٥)،البحر المحيط (١/ ٣٦٦)، التفسير المنير(٢/ ٩).

ﷻ عندما يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم، ويؤتى بنبينا ﷺ شهيداً على أمته بما عملت من خير أو شر، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾(١)، وشهادة الأنبياء على أقوامهم ونبينا ﷺعلى أمته إنما كانت قطعاً للحجج والمعاذير، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.(٢) أي: لا يسمح للذين كفروا بالاعتذار عن أنفسهم ، ولا يطلب منهم العتاب. (٣)

ولما كان بعث الشهداء من كل أمة عاماً مع جميع الأقوام جاء تأكيده مرة أخرى بذكر شيء من التخصيص في موقف خاص لنبينا محمد ﷺ في وصفه بالشهادة مع قومه، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾(٤) .

وشهادة الأنبياء عليهم السلام على أقوامهم خاصة، وشهادة نبينا ﷺ عامة، وبعثته لجميع الأمم، ولذا قيّدها بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، أي: منهم يعرفونهم قطعاً للمعذرة.(٥)

وفي سياق ما ورد في سورة الحج من الأوامر الشرعية التي قصد منها

(١) سورة النساء، الآية (٤١).

(٢) سورة النحل، الآية (٨٤).

(٣) ينظر:التفسير الكبير(٢٠/ ٩٥).

(٤) سورة النحل، الآية (٨٩).

(٥) ينظر:ملاك التأويل للغرناطي (١/ ٣٤١).

توثيق صلة المؤمن بربه وتهذيب نفسه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١) يأتي التذكير بشهادة نبينا محمد ﷺ على أمته بأعمالهم خيرها وشرها ، فإن حققوها كانت شهادته ﷺ تزكية لهم ، وإن أهملوها شهد عليهم بأنهم ليسوا من أمته ، وأن هذه الأمة شاهدة على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم البلاغ المبين،(٢) قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾(٣) .

وتأمل في هذه الآية كيف قدمت شهادة الرسول ﷺ على شهادة الناس بخلاف آية البقرة المتقدمة ، وذلك أن هذه الآية في مقام الثناء والتنويه بهذا الدين العظيم الذي جاء به الرسول ﷺ ، فلذا قدم الرسول فكان ذكر شهادته هو الأهم ، وأما آية البقرة فقد صُدِّرت بالثناء على هذه الأمة فكان ذكر شهادتها هو الأهم، وهذا سرٌ من أسرار هذا الكتاب العظيم والله أعلم.(٤)

(١) سورة الحج، الآية (٧٧).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٤ ، التفسير المنير (١٧/ ٢٨٩).

(٣) سورة الحج، الآية (٧٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير(١٧/ ٣٥٢).

المبحث التاسع :صفة البشارة

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾(١) .

البشارة:الإخبار بشيء مغيب ،مما يُسعد ويَسرُّ، لظهور السرور في بشرة الوجه ، وقد تستعمل في الشَّرِّ ولكن بِقَيْد ،(٢) كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٣).

وصفة البشارة من الصفات الكريمة التي وُصف بها نبينا محمد ﷺ في سورة الأحزاب، فقوله: ﴿وَمُبَشِّرٗا ﴾، وصف للنبي ﷺ، وهو عام يدخل فيه البشارة بالثواب العاجل والآجل، والبشارة بالأعمال الموجبة لذلك، والبشارة بصفة العاملين بها. (٤)

وجاء وصف نبينا ﷺ أيضاً بصفة البشارة بأسلوب الأمر ، وأنها تدل على أن بعثته ورسالته إلى الناس جاءت لتحقيق تلك الغاية المذكورة ، وذلك تكريماً لشأنه ورفعاً لقدره ﷺ، وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته. (٥) قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾(٦).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٥)، وورد مثلها في سورة الفتح، الآية (٨).

(٢) ينظر: المفردات ص٤٦، اللسان (٤/ ٦١)، (مادة بشر).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٢١).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧).

(٥) ينظر:التحرير والتنوير(٢/ ٥٧).

(٦) سورة الأحزاب، الآية (٤٧).

فذكر في الآية المبشَّر، وهم المؤمنون، ثم ذكر المبشَّر به، وهو الفضل الكبير، وهذا الفضل أمرٌ لا يقدر بقدر، فيدخل فيه هدايتهم، وتولي أمرهم، وغفران ذنوبهم، وكشف كروبهم، وتيسير أمورهم، ثم الفوز برضا الله وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، ثم ذكر جزاءهم على أعمالهم وما أعده لهم من الثواب، وهو مما ينشط العاملين على سلوك الصراط المستقيم، والتزود من الصالحات. (١)

ومجي البشارة في الموضع الثاني بأسلوب الأمر: (بشِّر) مراد به الثبات عليها والدوام والاستمرار،لأنه ﷺ متصف بها كما في الموضع الأول.

فتبين أن سورة الأحزاب ذكرت وصف نبينا الكريم ﷺ بصفة البشارة وأنها تدل على أن بعثته ورسالته إلى الناس جاءت لتحقيق تلك الغاية المذكورة، وذلك تكريماً لشأنه ورفعاً لقدره ﷺ، وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته. (٢)

ومن تأمل الآيات القرآنية عموماً الواردة في وصف نبينا محمد ﷺ بالبشارة وجدها قد جاءت بصور متعددة وأساليب مختلفة منها:

أولاً: جاء وصفُهُ ﷺ بأنه مبشِّر، بصيغة اسم الفاعل على سبيل الإخبار،كما، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾(٣)، أو

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧

(٢) ينظر:التحرير والتنوير(٢/ ٥٧).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٤٥)، ومثلها سورة الفتح، الآية (٨).

بأسلوب الحصر،في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾،[١] أي:ما كان إرسالك للناس إلا لأجل بشارة من أطاعك بثمرات الطاعة وأثرها الحسن من الثواب العاجل والآجل، وتحذير من خالفك وعصاك بثمرات المعصية وأثرها السيء من العقوبة العاجلة والآجلة. [٢]

ثانياً: جاء وصفه ﷺ بأنه بشير، بصيغة المبالغة على سبيل الإخبار، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾،[٣] أي: أنك بشارةٌ لكل من آمن بك واتبع أمرك، ونذارة لكل من عصاك وخالف أمرك، وهذا فيه تسلية له ﷺ عما يصيبه من الغم والضيق لإصرار قومه على الكفر. [٤]

وبأسلوب الحصر،كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾،[٥] أي:ما كانت رسالته ﷺ إلا بشارة لجميع الناس بثواب الله، وإنذاراً لهم عقاب الله.

فتبين مما تقدم أنَّ البشارة من صفات نبينا محمد ﷺ الكريمة التي وصف بها في سورة الأحزاب خاصة ،وفي القرآن الكريم عامة، وذلك تكريماً لشأنه ورفعاً لقدره ﷺ، وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته.

(١) سورة الإسراء، الآية (١٠٥)، ومثلها في سورة الفرقان، الآية (٥٦) .

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٦٨

(٣) سورة البقرة، الآية (١١٩)، ومثلها في سورة فاطر، الآية (٣٤) .

(٤) ينظر: الكشاف (٣/ ٦٠٨).

(٥) سورة سبأ، الآية (٣٨)

المبحث العاشر: صفة النذارة

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(١) .

النذارة :الإعلام بالأمر والتخويف في إبلاغه،(٢) وهي تقابل البشارة، إذ البشارة- كما تقدم- هي الإخبار بالخبر السارِّ الذي يُسعد ويَسرُّ، فالنذارة إخبار بالمكروه ،والبشارة إخبار بالمحبوب .(٣)

وصفة النذارة من صفات نبينا محمد ﷺ الكريمة التي وُصف بها في سورة الأحزاب، وأنه ﷺ جاء منذراً الناس ، محذراً من عصاه بالعقوبة العاجلة والآجلة .

والنذير وصف من أوصاف النبي ﷺ ، فهو نذير لكل من أعرض وأسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي، فمن كان كذلك فله النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على طغيانه وبغيه وإسرافه على نفسه، وفي الآخرة بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾(٤).

واللُّد:جمع ألدّ، وهو الشديد الخصومة بالباطل ، اللَّجوج المعاند. (٥)

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٥).

(٢) ينظر: المفردات ص ٥٠٨ (مادة نذر).

(٣) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/ ١٥).

(٤) سورة مريم، الآية (٩٧).

(٥) ينظر: المفردات ص٤٦٩ (مادة لدد).

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم وجدنا أن نبينا محمداً ﷺ قد وصف بالنذارة تارة،و بالبشارة تارة، وتارة جُمع له الوصفان في مقام واحد، ولا تعارض بينها، فإنه ﷺ جاء بالوعد والوعيد، وأرسل بشيراً و نذيراً،ولذلك جاءت الآيات المتوالية في الجمع له بين الوصفين،كما في آية الأحزاب: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[1]، وغيرها من الآيات ، فالبشارة للمتقين بثمرات التقوى من الثواب العاجل والآجل، والنذارة للمخالفين العاصين من العقوبة العاجلة والآجلة.

وإذا وردت الآيات القرآنية تصف النبي ﷺ بالإنذار وحده فإن ذلك يعني أن المقصود الأعظم من الدعوة هو الإنذار، ولذلك ورد في القرآن الكريم ما يوضح أن النبي ﷺ جاء لإنذار العالمين عموماً بأمر الآخرة، وتحذيرهم من التفريط فيه،قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2]، فهو نذير للعالمين بعموم مكانهم وزمانهم وأجناسهم.

وتأتي الآيات القرآنية تارة لتحصر وظيفة النبي ﷺ بأنه نذير للناس عموماً لأجل تحذيرهم من عاقبة مخالفة أمر الله، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾،[3] فالنذارة وصف للنبي ﷺ وهي لعموم

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٥).

(٢) سورة الفرقان، الآية (١) .

(٣) سورة الحج، الآية (٤٩) .

الناس ،والبشارة للمؤمنين خاصة، قال تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾(1).

ولا يقصد دائما وصفه ﷺ بإنذار المخالفين والمكذبين فحسب ،بل قد يوصف بإنذار المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده، الخائفين وقوفهم بين يدي الله ﷻ المستعدين له،(2) قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(3) .

فتبين مما تقدم أنَّ صفة النذارة من صفات نبينا محمد ﷺ الكريمة التي وصف بها في سورة الأحزاب ، وفي القرآن الكريم عامة ،وذلك تكريماً لشأنه ورفعاً لمكانته ﷺ ، ورحمة من الله ﷻ حيث جعل النذارة من أسمى المقاصد في رسالة نبينا محمد ﷺ ، وذلك لإنذار الناس بأمر الآخرة وتحذيرهم من التفريط فيه ، وذلك حرصاً منه ﷺ على نجاة أمته ، وإنقاذاً منه لهم من الهلكة.

---

(1) سورة يونس ، الآية (2) .

(2) ينظر:جامع البيان (7/ 127).

(3) سورة الأنعام، الآية (51) .

المبحث الحادي عشر: صفة الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾[١].

الدعوة من الفعل دعا، وهي المرة الواحدة من الدعاء، والدعاء إلى شيءٍ ما هو الترغيب فيه والحث عليه،[٢] وعرف شيخ الإسلام ابن تيمية الدعوة إلى الله بأنها: « الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله وبتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا». [٣]

والدعوة إلى الله ﷻ من أشرف العبادات وأسمى المهام، وهي مهمة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إلى الناس من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ الذين جعلهم الله تعالى واسطة بينه وبين خلقه يبلغون عنه شرعه إليهم، ليكونوا بدعوتهم سبباً في إخراج الناس من الظلمات إلى النَّور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن النار إلى الجنة، ويكفي شرفاً في هذا الجانب قول المولى ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾،[٤] أي: لا أحسن من ذلك على الإطلاق، وهذا ثناء من الله ﷻ للدعاة المصلحين الذين يدعون إلى توحيد الله وعبادته. [٥]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٦).

(٢) ينظر: اللسان (١٤/ ٢٥٧)، (مادة دعا).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٧).

(٤) سورة فصلت، الآية (٣٣).

(٥) ينظر:تيسير الكريم الرحمن ص٧٤٩

وفي سورة الأحزاب يأتي وصف النبي ﷺ بصفة الدعوة إلى الله ﷻ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[(١)] .

أي: داعياً الخلق إلى عبادة ربهم وطاعته بأقرب الطرق الموصلة إليه، وتعريفهم بربهم وبأسمائه وصفاته، وتوضيح أمور دين الله وشرعه ، وغير ذلك مما تشمله الدعوة إلى الخير ، والترهيب من الشرِّ ، وربط الخلق بالحق ، فهذه الدعوة دعوة إلى الله ﷻ وإلى دينه وشرعه الذي شرعه وأمر به،ولذا جاء تقييده بقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، تحذيراً ممن يدعو الناس إلى منهج محدث ،أو إلى طريقة مبتدعة.[(٢)]

ولما كانت الدعوة إلى الله ﷻ في غاية الصعوبة والتعذر، لا تتأتى إلا بتيسير من المولى وتوفيق منه جاء التقييد بقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، أي: بإذن الله تعالى له ﷺ في الدعوة وأمره وإرادته.[(٣)]

وقد أوضح القرآن الكريم ما كان عليه ﷺ من المنهج في الدعوة إلى الله ﷻ بأنه يسير في دعوته على بصيرة وعلى حجة واضحة وعلم ويقين ،لا على جهل وضلال،[(٤)] قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٤٦).

(٢) ينظر:تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٧

(٣) ينظر: الكشاف (٣/ ٥٤٧).

(٤) ينظر: جامع البيان (١٣/ ٥٢).

(٥) سورة يوسف ، الآية (١٠٨).

كما أوضح القرآن الكريم ما كان عليه ﷺ من كيفية دعوته ﷺ وتعامله مع المدعوين، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾(١).

وذلك بأن تكون الدعوة بالحكمة، كلٌ على حسب حاله وفهمه وانقياده، وكذلك من الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين.

وأن تكون الدعوة بالموعظة الحسنة وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب و الترهيب ، وبالنذارة والبشارة.

وأن يكون جداله ﷺ للمدعوين ممن احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، بالوجه الحسن والأسلوب اللَّين. (٢)

هكذا كانت دعوة نبينا محمد ﷺ التي اتصف بها ، والتي عُلم منهجه فيها، وهو يدل على أن للدعوة إلى الله ﷻ أهمية بالغة في دين الله، وأثراً كبيراً في إصلاح البشرية، فلذلك جعل الله ﷻ لأصحابها شرفاً عظيماً، ومقاماً رفيعاً، وإمامة للناس، قال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٣).

ونبينا محمد ﷺ الموصوف بالدعوة إلى الله ﷻ قد قام بهذه الدعوة على

---

(١) سورة النحل ، الآية (١٢٥).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٣)،تيسير الكريم الرحمن ص٤٥٢

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).

أكمل وجه، فأمر الخلق بكل ما أمره الله به،ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه،قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[1] .

فالدعوة إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ من أشرف العبادات وأسمى المهام ، وهي مهمة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إلى الناس من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، فكان حرياً بأتباع سيد المرسلين أن يتأسوا به وأن يسلكوا منهجه في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وأن يسيروا في دعوته على بصيرة وعلى حجة واضحة وعلم ويقين كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٥٧).

(٢) سورة يوسف ، الآية (١٠٨).

المبحث الثاني عشر: صفة السراج المنير

قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (١).

السراج المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل والجمع سُرُجٌ، والمسرجة التي فيها الفتيل.(٢) ويعبر بالسراج عن كل مضيء فالشمس سراج والنهار سراج، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (٣).

ونبينا محمد ﷺ لما كان هو السفير من الله ﷻ إلى عباده، وحامل وحيه، ومهمته إبلاغ الرسالة التي أرسله الله تعالى بها وإخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية، ودعوتهم إلى الخير وصفه الله تعالى في الآية بكونه سراجاً منيراً، والسراج المنير الذي يضيء في الظلمات، قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (٤)؟

ولما كانت رسالته ﷺ بالهدى ودين الحق، وإنزال الكتاب عليه هداية ورحمة للعالمين وقد دعا به الناس إلى الدخول في دين الحق، فاهتدى من اهتدى بهداه، واستنار من استنار بنوره، وكانت وظيفته ﷺ هداية الخلق، وإنارة الطريق لهم، وإزالة الظلمات عنهم، وكشف الشبهات لهم،لما معه من النور والعلم والبيان،وصفه الله تعالى بالهداية قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤٦).

(٢) ينظر: المفردات ص٤٧١ ،اللسان ٢/ ٢٧٦ (مادة سرج).

(٣) سورة نوح، الآية (١٦).

(٤) سورة الأحزاب، الآية (٤٦).

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

قال ابن سعدي في تفسيره: «كونه سراجاً منيراً، وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها حتى جاء الله ﷻ بهذا النبي الكريم ﷺ، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلّم به من الجهالات، وهدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام ﷺ وعرفوا به الخير والشر، وأهلَ السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به،لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة».(٢)

ولما كان المقام مقام دعوة وإرشاد إلى الهداية واستنارة من الظلمات وُصف ﷺ بأنه سراج، والسراج المصباح الزاهر نورُه الذي يوقد بفتيلة في الزيت فيُضيء إضاءة بليغة، وهذا الوصف من التشبيه البليغ، والقصد منه تقريب المشبَّه من إدراك السامع، فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل وكان من مقتضى هذا التشبيه شدة الإضاءة، ولذا وصفت الشمس بالسراج في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(٣).

ولما كان من السُرُج ما لا يضيء جاء التأكيد بقوله: ﴿مُّنِيرًا﴾، ولأن

---

(١) سورة الشورى، الآية (٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦٧

(٣) سورة نوح، الآية (١٦).

التصريح به يفيد أنه ينير لمن اتبعه ليسير في أعظم ضياء،ومن تخلف عنه كان في ظلمات مدلهمة.[١]

وكما وُصف نبينا محمد ﷺ بالسراج المنير الذي ينير في الظلمات ويسترشد به المسترشدون طريقهم فقد وُصف بأنه النور الذي يشرق ويضيء للناس طريقهم ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[٢].

فالنور هو الرسول ﷺ أنار الله ﷻ به الحق،والكتاب المبين هو القرآن العظيم بيِّنٌ في نفسه مبيِّنٌ للحق، [٣]

يقول الطبري في تفسيره: « يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: ﴿قَدْ جَآءَكُم ﴾، يا أهل التوراة والإنجيل، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾، يعني بالنور: محمدًا الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبيِّن الحق، ومن إنارته الحق تبيينُه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب.

وقوله: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾، يقول جل ثناؤه: قد جاءكم من الله تعالى النور الذي أنار لكم به معالم الحق، وكتاب مبين، يعني: كتاباً فيه بيان

---

(١) ينظر: روح المعاني (٢٢/ ٤٦)، التحرير والتنوير(٢٢/ ٥٤).

(٢) سورة المائدة ، الآية (١٥).

(٣) وهذا هو القول الراجح في معنى الآية، وعليه جمع من المفسرين، لأن العطف يقتضي المغايرة ، وقيل:النور هو القرآن، وقيل هو الإسلام، ينظر: التفسير الكبير (١١/ ١٨٩).

ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله ».[1]

وعندما يصف القرآن الكريم نبينا محمداً ﷺ بأنه نور يهتدى به فإنه يؤكد هذا الوصف بوصفه ﷺ بالهداية وأن بعثته جاءت لهداية الناس وإرشادهم إلى صراط ربهم المستقيم ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2].

وقد أكدت الجملة بمؤكدات :"إنَّ، واللام "، وذلك للاهتمام،ولتثبيت قلب النبي ﷺ بالشهادة له بهذا المقام العظيم.[3]

وهكذا يتبين لنا أن من صفات نبينا محمد ﷺ الكريمة التي وصف بها في سورة الأحزاب ، صفة الهداية ، وأنه ﷺ كان سراجاً منيراً يهتدى به في الظلمات، وعلماً يستدل به في الجهالات ، وفي القرآن الكريم من الآيات ما يؤكد هذا الوصف ، وفي هذا كله تكريم لشأنه ، ورفع لمقامه ﷺ ، وأنه جاء رحمة من الله ﷻ لإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والطاعة والهداية.

---

(١) جامع البيان (٦/ ١٠٤).

(٢) سورة الشورى، الآية (٥٢).

(٣) ينظر:التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥٥).

الخاتمة

أحمد الله حمدًا كثيراً أن يسر لي كتابة هذا البحث وإتمامه بعونه وتوفيقه، وأسأله جلت قدرته أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يلي:

- أن سورة الأحزاب من السور المدنية التي تناولت أحكاماً تشريعية وآداباً اجتماعية،وقد كان مقصدها الأساس نصرة النبي ﷺ وتأييده بالأمر بالثبات على تقوى الله ﷻ ولزوم طاعته وتأدية واجبات رسالة ربه ﷻ، وقد تمثَّل هذا في نصرته ﷺ على قوى البغي والشر الذين تحزبوا حول المدينة لقتاله، وتأييده بجنود من الله ﷻ، وكذلك نصرته ﷺ بتوقيره وتبجيله والحذر من إيذائه بأي لون من ألوان الأذى، واحترام أزواجه أمهات المؤمنين وأهل بيته، ونصرته بدفع أذى أعدائه من اليهود والمنافقين وخذلانهم وكشف عوارهم، وتسليطه ﷺ عليهم بإخراجهم من المدينة.

- أنَّ سورة الأحزاب اشتملت على صفات لنبينا محمد ﷺ جليلة بلغت ثنتي عشرة صفة مما يدل على عظيم مكانته وعلو مقامه وسمو منزلته عند ربه ﷻ.

- أن من صفات نبينا محمد ﷺ الواردة في سورة الأحزاب صفة النبوة،وقد وردت ثنتي عشرة مرة، منها خمس مرات بصيغة النداء جاءت لأغراض متنوعة تتعلق بالتشريع بعضها خاص به ﷺ وبعضها عام يتعلق به وبغيره.

- صفة الرسالة من صفات نبينا محمد ﷺ الواردة في سورة الأحزاب ،وقد وردت أربع عشرة مرة في مواضع متعددة ولأغراض متنوعة مما يدل على عظم هذا الوصف في حق نبينا محمد ﷺ .

- صفة تبليغ الوحي والرسالة من أجل صفات نبينا محمد ﷺ الواردة في سورة الأحزاب ، فقد وصفت السورة نبينا محمداً ﷺ بأنه يبلغ رسالة ربه تعالى إلى خلقه ويؤدّيها بأمانة ولا يخاف أحداً سواه ، فلا تمنعه سطوة أحد عن إبلاغ رسالات ربه، فقام حقاً بتبليغ الوحي ونصح أمته وجاهد في الله حق جهاده ﷺ.

- صفة الخشية من صفات نبينا محمد ﷺ الواردة في سورة الأحزاب، وقد جاءت على سبيل المدح والثناء من الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ ، فقد كان أشد الناس خشية لربه ومراقبة له في أقواله وأعماله فكان ﷺ أعلم الناس بربه، وأشدهم له تعظيماً وتبجيلاً.

- الحياء: خُلُق يبعث على فعل كل مليح ، وترك كل قبيح، وهو مجمع الفضائل ، ورأس المكارم، وقد وصفت السورة نبينا محمداً ﷺ بصفة الحياء وأنه ﷺ أكمل الناس حياءً ، وأعظمهم اتصافاً به،وأشدهم تمسكاً.

- لقد رفع الله سبحانه وتعالى مكانة نبيه ﷺ ومنزلته في قلوب المؤمنين فجعله أولى بكل مؤمن ومؤمنة من نفسه وما يملك ، وأقرب إليه منه، وجعل هذا الأمر من صميم الإيمان وأصلاً من أصوله ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنه أن يكون ﷺ أحبَّ إليهم من أنفسهم.

- الصدق من الصفات النبيلة والشمائل الكريمة التي كان يتصف بها

نبينا محمد ﷺ ويتحلى ويتخلق بها ، وقد ذكرت سورة الأحزاب هذه الصفة لنبينا محمد ﷺ فكان صادقاً في وعوده وأخباره، بل إنه ﷺ كان المثلَ الأعلى في الاحتذاء به في صدقه في أقواله وأفعاله، ووفائه بوعوده .

- لقد جمع الله لنبيه محمد ﷺ في سورة الأحزاب في آيتين متتاليتين خمس صفات من أجل صفاته ، وذلك في قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾،[1] وهي صفة الشهادة أنه ﷺ شاهد لله ﷻ بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، وشاهد على أمته وعلى أعمالهم خيرها وشرها. وصفة البشارة وأنه ﷺ جاء مبشراً بالثواب العاجل والآجل،وبالأعمال الموجبة لذلك. وصفة النذارة وأنه ﷺ نذير لكل من أعرض وأسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي. وصفة الدعوة إلى الله وأنه قام بها على أكمل وجه، فأمر الخلق بكل ما أمره الله به،ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه. وبوصفه بالسراج المنير الذي يشرق ويضيء للناس طريقهم وينير في الظلمات فيهتدي به المهتدون ويسترشد به المسترشدون طريقهم.

وختاماً أحمد الله جل جلاله على ما يسَّر وسهَّل، وأسأله أن يغفر زللي وتقصيري، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٤٥-٤٦).

فهرس المصادر والمراجع

- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض السعودية ، ، ١٣٩١هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبوالسعود محمد بن محمد العمادي، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة،علي بن محمد ابن الأثير الجزري،دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١ ١٤١٥هـ.
- أسماء القبائل وأنسابها – محمد المهدي الحسيني القزويني، ت: كامل الجبوري، الدار العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.
- الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- البحر المحيط، أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٢ ، ١٤٠٣هـ.
- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول ، صديق حسن خان.

- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، نشر: الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط٣، ١٤٠٨هـ.
- تفسير سورة الأحزاب ، الغزالي خليل عيد ، نشر: مؤسسة المد الله للطباعة والنشر ، ١٤٠٢ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي،ت: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،ط١، ١٤١٧هـ.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي السلامة، دار طيبة للنشروالتوزيع ،الرياض ، السعودية ، ط١، ١٤١٨هـ.
- التفسير الكبير(مفاتيح الغيب) محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان
- التفسير المنير د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
- تناسق الدرر في تناسب السور ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت:عبد القادر عطا، دارالكتب العلمية بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ
- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، مطبعة مجلس دائرة المعارف الهندية، ١٣٢٥هـ
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة العبيكان ط٢ ١٤٢٤هـ .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف،

بيروت ، لبنان، ١٤١٢هـ.

- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن رجب الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ.
- جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني ، مكتبة الغزالي، سوريا، ط٢، ١٣٩٧هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الشهاب محمود بن عبدالله الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٠٥هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن القيم الجوزية ،ت: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١٣، ١٤٠٦هـ
- السنن الكبرى ،أحمد بن شعيب النسائي، ت: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ،١٤١١هـ.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي،مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،ط٢، ١٤٠٦
- شعب الإيمان ،أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني

زغلول، نشر دار الكتب العلمية - بيروت ط١ ، ١٤١٠هـ

- الصحاح-تاج اللغة وصحاح العربية- إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت أحمد عبد الغفور عطار-دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري،ت:سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، دار الفكر ١٤١٤هـ.
- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض،ط١، ١٤٠٧هـ
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، الرياض، السعودية ١٤٠٠هـ.
- صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥.
- طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني مكتبة المعارف، الرياض.
- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه ، أبو عبيد القاسم بن سلام،ت:أحمد عبد الواحد الخياطي، مطبعة فضالة، المغرب، ١٤١٥هـ.
- ابن القيم حياته وآثاره، د.بكر بن عبد الله أبو زيد، مطابع دار الهلال،السعودية،الرياض ط١ ١٤٠٠ هـ.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور،دار صادر،بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٠هـ
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مطبعة الرياض، ط١، ١٣٨١هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء المغرب.
- المستدرك على الصحيحين ، الحافظ أبوعبدالله الحاكم، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- المسند ،الإمام أحمد بن حنبل ،ت:مجموعة من العلماء بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ١٤٢٠هـ.
- مشاهير علماء نجد،عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، دار اليمامة، ط٢، ١٣٩٤هـ
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الحسين بن المفضل الأصفهاني، ت نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ، لبنان.
- معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط٣، ١٤٠٩هـ.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي،المكتبة الإسلامية،استانبول، تركيا،١٩٨٢م
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي - تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل،بيروت لبنان، ط١، ١٤١١هـ.
- ملاك التأويل القاطع بذوي لإلحاد والتعطيل-أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي ت:د.سعيد الفلاح-دار الغرب الإسلامي-بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م.
- منحة الكريم الوهاب في تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب ، د. سليمان بن إبراهيم اللاحم ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، الرياض، السعودية، ط١ ١٤٢٦هـ.
- النبوات- شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، نشر المطبعة السلفية،القاهرة، ١٣٨٦هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.

التدرج في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن الكريم
خطاب موسى مع فرعون أنموذجاً

إعداد
د. محسن بن حامد المطيري

د. محسن بن حامد المطيري

- الأستاذ المساعد بقسم الدراسات القرآنية في كلية المعلمين جامعة الملك سعود.
- حصل على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة الملك سعود بأطروحته: كتاب (التحصيل لفوائد كتاب التفصيل) لأبي عمار المهدوي: تحقيقاً ودراسة.
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية التربية بجامعة الملك سعود بأطروحته: (الخطأ في تفسير القرآن بالقرآن).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن محمدا عبده، ورسوله، وخليله، وأمينه على وحيه، أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على طريقته في الدعوة إلى سبيله، وصبروا على ذلك، وجاهدوا فيه حتى أظهر الله بهم دينه، وأعلى كلمته ولو كره المشركون، وسلم تسليما كثيراً، أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله عز وجل هي مهمة الأنبياء والرسل، وواجب أهل العلم من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

يقول أبو حامد الغزالي : " إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين جميعًا، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد".[1]

فالدعوة إلى دين الله تعالى جزء لا يتجزأ من هذه الرسالة العظيمة،

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: (٢/ ٣٠٦)، وينظر: الخلاصة في الدعوة، علي الشحود: (١/ ٧).

وقد فصَّل القول فيها القرآن الكريم، والرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله، وأفعاله، وسائر أحواله.

وهكذا فإن الدعاة في حاجة دائمة إلى التزود من فقه النبوة في الدعوة إلى الله، ليحوز عملهم شرطي القبول وهما: الإخلاص لله، والمتابعة للسنة النبوية.

وقد أحببت من خلال هذا البحث أن أطرق جانبا مهما من جوانب الدعوة إلى الله، وهو جانب التدرج في الدعوة إلى الله، وذلك لأهميته في فقه الدعوة ومخاطبة الناس، وإقناعهم بما يطرحه الداعية إلى الله.

إن ربط الدعوة بالكتاب والسنة من أهم المهمات حتى تكتسب صفتي الاتباع للهدي النبوي، والبصيرة والعلم، وهي التي جاء التصريح بها في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والداعية لا يكون على بصيرة إلا إذا دعا إلى اللهّ على بصيرة في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه، وذلك بالعلم لا بالجهل.

الأمر الثاني: أن يكون على بصيرة في حال المدعو، فلا بد من معرفة حال المدعو؛ ليدعوه بالطريقة والكيفية التي تناسبه، وتكون أكثر فائدة له، وتأثيرا فيه.

الأمر الثالث: أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة.(١)

(١) زاد الداعية إلى الله للشيخ ابن عثيمين: (٧)، وينظر: فقه الدعوة في صحيح البخاري، =

وقد عرض القرآن الكريم عددا كبيرا من صور الدعوة إلى الله من خلال عرض عدد من قصص الأنبياء، ومواقفهم مع أقوامهم في دعوتهم، وتنوع الحال مع الملوك كفرعون والنمرود، والأغنياء والمتكبرين كقارون وقوم عاد، والأب مع ابنه كنوح، ومع والده كإبراهيم، ومع زوجه كنوح ولوط، كل هذا ليكونوا قدوة ونبراسا للدعاة السائرين في هذا الطريق.

وسنعرض من خلال هذا البحث أنموذجا أطال القرآن في ذكر تفاصيل دعوته، ومواقفه مع طاغية من أصلف، وأعتى طغاة التاريخ، وهي قصة: "موسى مع فرعون" تلك القصة التي لم تكرر في القرآن قصة نبي مثلها لكثرة عبرها وفوائدها، وسوف نعرض لهذا التدرج الذي سار عليه موسى في دعوته لفرعون وخطابه معه، ووسمت هذا البحث بـ(التدرج في الدعوة في ضوء القرآن الكريم: خطاب موسى مع فرعون أنموذجاً).

وقد اخترت هذا البحث للأسباب التالية:

أولاً: حاجة الداعية إلى الله إلى هذا الأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله.

ثانياً: العبر، والعظات التي زخرت بها قصة موسى مع فرعون في جانب الدعوة إلى الله.

ثالثاً: جهل بعض الدعاة فضلا عن غيرهم من عامة المسلمين بفقه الدعوة إلى الله، ومن ذلك فقه التدرج، والأولويات.

رابعاً: وقفت على عدد من البحوث التي تطرقت للتدرج في الدعوة إلى الله بعموم، ولكنني لم أقف على بحث يطرق هذا الجانب من الدعوة بخصوص في خطاب موسى مع فرعون من خلال القرآن الكريم كدراسة موضوعية

= سعيد بن وهف القحطاني: (١/ ٧).

تحليلية.[١]

ومن المهم في مقدمة هذا البحث أن أنبه إلى أن المراد بالتدرج ليس هو التدرج في التشريع، فلن أتطرق إلى هذا النوع من التدرج، وإنما المراد كما هو في عنوان البحث التدرج في الخطاب الدعوي من اللين إلى الجدال، والحوار، إلى الشدة والتهديد.

كما أوضح أن هذا التدرج ليس في كل خطاب وجهه موسى عليه السلام لفرعون بكل تفاصيله، ولكنه تدرج دعوي في الجملة، فقد يعرض أحياناً ما يجعله يقدم الشدة لغرض ما، والتهديد في حال أخرى لغرض عارض، وهكذا، ولكن المنهج العام هو التدرج من اللين إلى الجدال، والحوار، إلى الشدة، وسيظهر ذلك من خلال تفاصيل البحث.

هذا وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة تعريفية، وستة مباحث:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع، والدراسات السابقة، وأسباب اختيار الموضوع، ومنهجي في البحث. المبحث الأول: تعريف التدرج في الدعوة إلى الله.

المبحث الثاني: أهمية التدرج في الدعوة إلى الله.

المبحث الثالث: التدرج في خطاب الأنبياء عليهم السلام.

المبحث الرابع: خطاب موسى مع فرعون باللين والملاطفة.

المبحث الخامس: خطاب موسى مع فرعون بالحجة والبرهان.

---

(١) من هذه البحوث: بحث التدرج في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، للدكتور: إبراهيم المطلق، ومنهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، للدكتور: عدنان العرعور، حيث عقد فصلاً في التدرج في الدعوة.

المبحث السادس: خطاب موسى مع فرعون بالشدة والتهديد والدعاء عليه بالهلاك.

منهج البحث:

وقد تتبعت في هذا البحث الآيات التي كان فيها حوار بين موسى مع فرعون، وصنفتها، ثم جمعت كلام المفسرين، ووقفاتهم وتحليلهم لهذا المفهوم في التدرج من اللين والملاطفة، ثم انتقاله بعد ذلك إلى الجدال، والحجة، والبرهان، ثم انتقاله أخيراً إلى الشدة والغلظة. ولكثرة الآيات الواردة في ذلك، وخاصة في الجدال، والحوار فقد اكتفيت ببعض الآيات التي أبرزت جانب التدرج في دعوة موسى عليه السلام لفرعون من جهة خطابه، وطريقته في دعوته وإقناعه.

المبحث الأول:

تعريف التدرج في الدعوة إلى الله:

التدرج لغة:

بالنظر في معاجم اللغة العربية نجد أن كلمة (درج) قد جاءت بمعنى المشي، والمضي فيه. ففي معجم مقاييس اللغة: (دَرَجَ) الدال والراء والجيم أصل واحد يدل على مضي الشيء، والمضي فيه، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله.(١)

وفي الصحاح: يُقال: درج الرجل، ويدرج دروجًا، ودرجانًا أي مشى.(٢)

وقال الأصفهاني: " يقال: فلان يتدرّج في كذا، أي : يتصعّد فيه درجة درجة، ودَرَجَ الشيخ والصّبيّ دَرَجَاناً : مشى مشية الصاعد في درجه. والدَّرْجُ : طيّ الكتاب والثّوب".(٣)

وأما درَّج بتشديد الراء فمعناها التأنِّي في تناول الشيء أو بلوغه.

ففي لسان العرب: "يقال: درَّجت العليل تدريجًا، إذا أطعمته شيئًا قليلًا، حتى يتدرج إلى غاية أكله، كما كان قبل العلة درجةً درجةً".(٤)

ودرَّج فلانًا إلى الشيء: أدناه منه قليلًا قليلًا وعوّده إياه.

وفي القرآن الكريم : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال تعالى : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٢٧٥).

(٢) الصحاح للجوهري: (١٦/ ٣١٣)، المعجم الوسيط: (١/ ٢٧٧).

(٣) مفردات القرآن للأصفهاني: (٣١١).

(٤) لسان العرب: (١/ ٩٦٣).

ﭐلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[النساء: ٩٥].

ومن خلال ماسبق نعلم أن اللفظ جاء فعلًا مجردًا، ومزيدًا بالتضعيف، وجاء اسمًا، ومع الاختلاف اليسير في معاني الكلمات، إلا أنها تدل على المشي والحركة الهينة، والصعود في المراتب.

التدرج في الاصطلاح:

من خلال معرفة معاني التدرج في اللغة يمكن الوصول إلى تعريف يُظهر لنا المعنى الاصطلاحي لمعنى التدرج في الخطاب الدعوي.

فقد عرّفه الدكتور إبراهيم المطلق بأنه: "التقدم بالمدعو شيئًا فشيئًا للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه وفق طرق مشروعة مخصوصة".(١)

وعرّفه الدكتور العرعور بقوله: "هو الانتقال بالمدعو من الأسهل إلى الأصعب، ومن كلية إلى أخرى، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية التطبيقية، ومن الإيمان إلى الأعمال، ومن التوحيد إلى العبادات.

والانتقال به في باب المحرمات، من محرم إلى آخر.. ومن تحريم الكبائر إلى تحريم الصغائر، حتى يصل المدعو إلى مرتبة التكيف مع كل توجيه، والانصياع لكل أمر).(٢)

ويلاحظ على تعريف الدكتور العرعور أنه مع تعريفه أضاف وصفاً تمثيلياً لطريقة التدرج في التشريع، والدعوة، وذلك خارج عن الحد والتعريف.

ويلاحظ أيضاً أن كلا التعريفين موجه إلى التدرج في التشريع أكثر منه

---

(١)التدرج في دعوة النبي للدكتور المطلق: (١٢).

(٢) منهج الدعوة: (١٤٠).

اتجاها إلى الخطاب الدعوي، ومراعاة حال المدعو، والتدرج في الدعوة بحسب حال المدعو، وهو المراد في هذا البحث، حيث سيكون التركيز على طريقة خطاب موسى عليه السلام مع فرعون، وتدرجه معه في الخطاب الدعوي.

ولذلك فإنه يمكن تعريف التدرج في الخطاب الدعوي بأنه: "الترقي في الخطاب الدعوي، واختلاف أسلوبه بما يقتضيه حال المدعو وواقعه".

فلفظ الترقي يشير إلى معنى التدرج في اللغة، وهو الصعود درجة درجة في خطاب المدعو، لأجل إقناعه، ووصوله للحق، وهي الغاية، والمقصد من الدعوة إلى الله.

وقيد: "واختلاف أسلوبه" يشير إلى الاختلاف في درجة الخطاب من حيث الملاينة والتلطف، أو الجدال، والحوار العقلي، أو الشدة، والتهديد، والوعيد.

وقيد "حال المدعو وواقعه" يشير إلى الحكمة في التدرج بما يوافق الزمان والمكان الذي ينشأ فيه المدعو، وهو ما يشير إليه بعض العلماء بفقه الواقع.(١)

(١)ينظر في هذه المسألة كتابي: فقه الواقع، د.ناصر العمر: (٥-٢٥)، وفقه الواقع، للشيخ ناصر الألباني: (٥-٦).

المبحث الثاني:
أهمية التدرج في الدعوة إلى الله:

إننا حين نرى الاستعجال الذي يصيب بعض الدعاة في الوصول لهداية الناس، ووصول الحق إليهم، ونرى التدرج الذي انتهجه عدد من الأنبياء مع أقوامهم في دعوتهم نعلم حينها مدى حاجة كثير من الدعاة إلى دراسة منهج الأنبياء في الدعوة، وطرقهم، والأساليب التي اتخذوها في سبيل الدعوة.

ومن ذلك منهج التدرج في الدعوة إلى الله، وهو المنهج الواضح في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث بدأ في تقرير التوحيد مدة طويلة في مكة جاوزت نصف الرسالة، ثم انتقل في المدينة إلى تقرير الشرائع الأخرى.

وإن من يتأمل في رسالة الإسلام منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلى أن اختاره الله إلى جواره يتضح له أن التدرج كان الظاهرة البارزة في مسار الرسالة، فالقرآن الكريم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجاً، قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وفي ذلك يحلق سيد قطب فيقول: "لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، ويقيم لها نظاماً، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل. ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى...جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً

في مرحلة الإعداد، لا فقهاً نظرياً، ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني! وتلك حكمة نزوله متفرقاً، لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى". (١)

ومن صور التدرج أن بدأ الإسلام بأركان الإيمان لإفراد الله عز وجل بالعبودية ونبذ الشرك والوثنية، وبعد بضع سنوات من تثبيت عقيدة التوحيد في نفوس الصحابة فرضت الصلاة، ثم الصيام، والزكاة، والجهاد، والحج.

وأما في المدعوين أنفسهم فقد تدرجت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إذ بدأ بمحيطه القريب جدا: زوجته خديجة، وصاحبه أبي بكر، وابن عمه علي بن أبي طالب، وغلامه زيد بن حارثة، ثم اتسعت الدائرة لتشمل محيطًا من أقاربه أوسع من ذي قبل عملًا بقوله – عز وجل – : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وهناك عدة إشارات في القرآن الكريم، والسنة النبوية إلى أهمية التدرج، ومخاطبة المدعوين بحسب أحوالهم، يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

يقول ابن القيم معلقا على هذه الآية: (فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإنه إما أن يكون طالبا للحق راغبا فيه محبا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه؛ فهذا يدعى بالحكمة، ولا

(١)في ظلال القرآن، سيد قطب: (٤/ ٢٢٥٣)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٤/ ٦٩).

يحتاج إلى موعظة، ولا جدال، وإما أن يكون معرضا مشتغلا بضد الحق، ولكن لو عُرِّفه عَرَفه، وآثره، واتبعه؛ فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندا معارضا فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلى الحق، وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن؛ فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يرده عن باطله، ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن، ومناظرته للطوائف؛ فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله، وتدبره، ورزق فهما فيه، وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج).(١)

ومن الإشارات الظاهرة إلى التدرج في الدعوة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٣]

يقول الرازي: "إنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك، أما لما نزل مفرقاً منجماً لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل".(٢)

لقد نزل القرآن ليربي أمة ويخرجها من الظلمات إلى النور، والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثر، وإلى فعل يترجم التأثر والانفعال إلى واقع يشاهده

(١)الصواعق المرسلة: (٤/ ١٢٧٦)، وينظر: بدائع التفسير: (٣/ ٦٤-٦٨).

(٢)تفسير الرازي: (٢٤/ ٦٩).

الناس، والنفس بطبيعتها لا تتغير تغيراً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب واحد، أو بموعظة، أو خطاب عارض، وإنما تتأثر يوماً بعد يوم باحتكاكها بالأحداث والمجتمع الذي تعايشه؛ وتتدرج في مراقي الإيمان بهذه المعايشة قليلا قليلا، فلا تنفر من هذه التكاليف كما تنفر منها لو قُدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً.(١)

ومن الأقوال الصريحة في ذلك التدرج من السنة ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " إنما نزل أوَّل ما نزل منه – أي القرآن – سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا ".(٢)

وقد بيَّن ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرُّج فقال: "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: "ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها " وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف".(٣)

فالمدعوون هم العنصر الأساس من عناصر الدعوة إلى الله عز وجل،

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٦٢)، تفسير السعدي: (٥٨٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن: (٦/ ١٢٢)، برقم: (٤٩٩٦).

(٣) فتح الباري: (٩/ ٤٠)، وينظر: عمدة القاري للعيني: (١٤/ ١١٣).

فلم تشرع الدعوة إلا لأجلهم، لذا يجب الاهتمام بهم، ودراسة حالاتهم، والتصرف تجاهها بما يناسبها، مما يقرره الشرع الحنيف.

فمن العبث الدعوي: أن يلقى الكلام على عواهنه، بدعوى التبليغ دون النظر إلى حال المدعوين، وأن يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر -مجرد الأمر والنهي- دون معرفة واقعهم.

ومما لا شك فيه أن المدعوين ليسوا في الاستجابة سواء، لا في الفهم، ولا في العلم، ولا في التدين كذلك، فمخاطبتهم على حد سواء، ليس من الحكمة في شيء، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والبصيرة أخص من العلم العام، وفيها معنى زائد عليه، فهي تعني: البينة والإدراك، والوضوح، والفهم، واليقين.

يقول ابن تيمية: "فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ؛ والرفق ؛ والصبر ؛ العلم قبل الأمر والنهي ؛ والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبا في هذه الأحوال ؛ وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف: " لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به؛ فقيها فيما ينهى عنه ؛ رفيقا فيما يأمر به ؛ رفيقا فيما ينهى عنه ؛ حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه".[(١)]

وينبغي للداعية أن يعلم أن المدعوين أصناف وأقسام: فمنهم الملحد،

(١) الفتاوى مختصراً:(٢٨/ ١٣٧)، وينظر:الاستقامة:(٢/ ٢٣٣)، الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد وهف القحطاني: (١/ ٣٣).

ومنهم المشرك الوثني، ومنهم اليهودي، ومنهم النصراني، ومنهم المنافق، ومنهم المسلم الذي يحتاج إلى التربية والتعليم، ومنهم المسلم العاصي.

ثم هم أيضًا يختلفون في قدراتهم العقلية، والعلمية، والصحية، ومراكزهم الاجتماعية: فهذا مثقف، وهذا أمّيٌّ، وهذا رئيس، وهذا مرؤوس، وهذا غني، وهذا فقير، وهذا صحيح، وهذا مريض، وهذا عربي، وهذا أعجمي، فينبغي للداعية أن يكون كالطبيب الحاذق الحكيم الذي يشخص المرض، ويعرف الداء ويحدده، ثم يعطي الدواء المناسب على حسب حال المريض، ومرضه، ويتدرج معه بحسب حاله وواقعه.[(١)]

ولا شك أن اعتقاد المدعو، ومكانته ومجتمعه وبيئته كلها مما يحكم الداعية في كيفية دعوته، والتدرج معه في الخطاب، فخطاب موسى مع فرعون مع طغيانه في بادئ أمره لم يكن كخطابه بعد استكباره، وتعنته، وسخريته بموسى، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين لم يكن كخطابه مع اليهود فالأولون أصحاب وثنية وجهل، واليهود كانوا أهل كتاب، وعلم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم.

والناظر في أسلوب القرآن الكريم: يجد تنوعاً عجيباً في الأسلوب، وتفاوتاً بديعاً في الطرح، ومعالجة ناجحة لكل أصناف البشرية.

يقول سيد قطب في كلام بديع: (كان هذا القرآن يُواجه به النفوس في مكة، ويروضها حتى تسلس قيادها، راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة، تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان

---

(١)أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان: (٣٦٥)، وينظر: مراعاة أحوال المخاطبين فضل إلهي ظهير: (١٥).

الغامر، من الدلائل الموحية، والمؤثرات الجارفة.. وتارة يواجهها، بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس، فلا يطيق وقعها، ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارَّة الودودة، التي تهولها المشاعر، وتأنس لها القلوب..! وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب...، ومئات من اللمسات، ومئات من اللفتات، ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات.. يطلع عليها قارئ القرآن، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصيّة العنيدة).[1]

وهكذا فإن من يتأمل التدرج في الدعوة يجد أنها على ضربين:

الأول: تدرج في خطاب المدعوين: وذلك كتدرج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته للمشركين، حيث بدأ بالتوحيد، والبعث، والأدلة العقلية على ذلك، وانتقل إلى التهديد والوعيد بذكر الأمم السابقة وما حصل لهم من العقوبات عندما أعرضوا عن أنبيائهم.

ثم انتقل إلى الدعوة بالسيف والقتال، وأيضاً من جهة أخرى بالدعوة السرية ثلاث سنوات ثم انتقل إلى الدعوة الجهرية، ثم هاجر إلى المدينة، وأقام المجتمع المدني المسلم.

الثاني: تدرج في التشريع: ونستطيع قسمه إلى نوعين:

النوع الأول: تدرج في الأحكام الشرعية عامة:

حيث بدأ في مكة بالتوحيد والعقيدة، وتقريرهما في نفوس الناس، ثم

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٦٩٢).

أمر بالصلاة في ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، ثم شرع الآذان والقتال، وبعض أحكام النكاح كالصداق والوليمة في السنة الأولى من الهجرة، وفي السنة الثانية شرع الصوم، وصلاة العيدين، ونحر الأضاحي، والزكاة، وحولت فيها القبلة، وشرع قصر الصلاة في السفر والخوف في السنة الرابعة، وأنزل الله أحكام التيمم، والقذف، وفرض الحج، وهكذا إلى اكتمال التشريع.(١)

النوع الثاني: تدرج في الحكم الشرعي الواحد:

ومن أمثلته في الأمر فرض الصلاة والصيام والجهاد في سبيل الله، وفي المحرمات: تحريم الخمر فقد أخذت هذه الأحكام أطوارا مختلفة حتى وصلت إلى التحريم.(٢)

والذي يعنينا في هذا البحث من هذه الأنواع ليس هو التدرج في التشريع، وإنما التدرج في الخطاب الدعوي بحسب حال المدعو، وقبوله، وقربه وبعده.

إن كل ما سبق عرضه يؤكد أهمية التدرج في الدعوة، وحاجة الداعية إلى هذا الجانب مع المدعوين، وأنه كان حاضرا في تطبيقات الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم.

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي: عمر الأشقر: (٤٨).

(٢) ينظر: التدرج في دعوة النبي للمطلق: (٢١)، فقه التدرج في التشريع فهما وتطبيقا، معاوية سيد: (١٢)، منهج الدعوة، د. عدنان عرعور: (٧٤).

المبحث الثالث:
التدرج في الدعوة إلى الله في خطاب الأنبياء عليهم السلام:

بعد هذه المقدمة في أهمية التدرج في الدعوة إلى الله، وأنواعه، فإن التدرج ينبغي أن يكون ظاهرا في الخطاب الذي يسمعه المدعو من الداعية، وهو ما كان حاضرا في خطاب الأنبياء من خلال القرآن الكريم، ولعلي أعرج هنا على أحد الأمثلة باختصار قبل الانتقال إلى مبحث التدرج في خطاب موسى مع فرعون، لكي يظهر لنا مدى اتفاق الأنبياء عليهم السلام على هذا الأصل، وتطبيقهم له في دعوتهم مع أقوامهم، والأمثلة أكثر من أن تحصر في القرآن الكريم.

التدرج في خطاب إبراهيم مع أبيه:

لاشك أن خطابات إبراهيم مع النمرود، ومع قومه، ومع أبيه(١) تصلح أن تكون قدوة في الدعوة إلى التوحيد، والمناظرة مع المخالفين، وفيها

---

(١) ينظر الخلاف في مسألة: هل كان آزر والد إبراهيم أم عمه؟ والراجح فيما يظهر: أنه والده. قال أحمد شاكر في تحرير مهم: "والحجة القاطعة في نفي التأويلات التي زعموها في كلمة: "آزر"، وفي إبطال ما سموه قراءات، تخرج باللفظ عن أنه علم لوالد إبراهيم: الحديث الصحيح الصريح في البخاري: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك ...."، فهذا النص يدل على أنه اسمه العلم، وهو لا يحتمل التأويل ولا التحريف". حاشية تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٨٩)، وينظر: تفسير الطبري: (١١/ ٤٦٨)، تفسير الرازي: (١٣/ ٣١)، فتح الباري: (٨/ ٤٩٩)، التحرير والتنوير: (٧/ ٣١٠)، والحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء، برقم: (٣١٧٢).

من الفوائد والحِكَم مالا يكاد يحصيه المفسر لهذه الآيات، ولعلي أعرِّج في هذه العجالة البحثية على ما يتعلق بأمر التدرج في دعوة إبراهيم لوالده، وهو الذي كان حريصاً أشد الحرص على هدايته، وهو الذي وصفه ربه بأنه كان أمة قانتا، وهو الذي أتم كلمات ربه، وجعله الله إماما للحنفاء، فلنقف إذاً مع خطابه لأبيه، ومحاورته له، وتدرجه في هذا المقام، ولعلي أقسمه إلى أربعة أقسام:

أولاً: أسلوب اللين والملاطفة:

يقول تعالى حاكيا عن إبراهيم خطابه لأبيه في بادئ أمره، ومبتدأ دعوته: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم: ٤١ – ٤٥].

فقد عانى إبراهيم زمانا طويلا مع أبيه في دعوته وإقناعه، وخاطبه مراعيا لأبوته رغم عناده، وفساد اعتقاده، وعظيم انحرافه، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في التلطف واللين مع والده في بادئ أمره، مراعياً أبوته، ورئاسته في قومه، وكبر سنه، فدعاه بصفة الأبوة، ليظهر له مدى حرصه على ما ينفعه، ودفع ما يضره.

وفي هذه الآية عدد من الأوجه في تلطف إبراهيم مع والده يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: تكرار النداء بلفظ الأبوة المشعرة بتوقيره، وعطفه عليه، فلم

يسمه باسمه في أي مرة من هذه النداءات الأربع، ولم يقل يا أبي، بل عبر بقوله: (يا أبت)، وهي أرق في التلطف واللين.

ثانياً: في قوله: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢].

أخرج الكلام مخرج السؤال، ولم يخرجه مخرج الأمر والنهي، مع بيان ضلاله وانحرافه، فلم يجزم بصواب رأيه، وذلك أقرب للإجابة، والتأثر من والده.

ثالثاً: في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ لم يرمه بالجهل والسفه، وهو مستحق لذلك، بل نسبه لعلم غير الذي أتى به إبراهيم عليه السلام، وفي هذا من التواضع ونسبة العلم لوالده مع عظيم جهله، ولم ينسب إبراهيم العلم لنفسه، بل نسبه لله -جل وعلا-، ثم قال: ﴿ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ وهو كقول موسى لفرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٩] أي: إنما أنا دليل لك إلى الله -جل وعلا-.

رابعاً: في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾[مريم: ٤٥]. عدة عبارات من التلطف والملاينة؛ فنسب إبراهيم الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الحزين الخائف على من يشفق عليه.

وقال: ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو أدنى الملامسة، فدل على شدة حرصه على سلامته من أدنى عذاب، ونكّر العذاب، والتنكير هنا للتقليل، ثم ذكر الله -جل وعلا- باسم الرحمن، ولم يقل الجبار، ولا القهار

ترغيباً له في التوبة، وأنه عز وجل يقبل توبة التائبين، وتنفيراً له من عبادة الشيطان لأنها تحرمك من رحمة الله عز وجل، ولأن العقوبة من الحليم الرحيم أشد، فأي خطاب ألطف وألين من هذا.(١)

قال ابن القيم: (وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب، وألطفه).(٢)

وقال الزمخشري مصورا ذلك الخطاب البلاغي القرآني اللطيف بأحسن تصوير: (انظر حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورّطاً فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة: كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة، واللطف، والرفق، واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن، منتصحاً في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا).(٣)

وقد كان جواب الأب غليظا بمنتهى الجفاء والكبر بعكس ما في كلام إبراهيم من اللين والرقة، فدل ذلك على أنه كان قاسي القلب بعيد الفهم، شديد التصلب في الكفر، ومع ذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام مستمرا على نهجه في اللين والسكينة.

---

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ٦٥٢)، بدائع التفسير: (٣/ ١٤٢)، البحر المحيط: (٦/ ١٤٣)، تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩٠٩٧).

(٢) بدائع الفوائد: (٣/ ٦٥٢).

(٣) الكشاف: (٣/ ٢٠-٢١)، وينظر البحر المحيط: (٦/ ١٤٣)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣١١)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٤٥).

فانظر إلى عظم جهل هذا الرجل مع اعتقاده بكمال عقله وعبادته، مع إن إبراهيم عليه السلام كان متلطفا معه في دعوته مرغبا له في الإيمان بألين عبارة، وأرق لفظ، ومع ذلك لم يكن سبباً في استجابته بل زاد إعراضاً، واستنكافاً.

ثانياً: أسلوب الحجة والبرهان:

الملاحظ في خطاب إبراهيم عليه السلام مع رقته والعاطفة التي امتلأت به؛ إلا أنه امتلأ بالأدلة والبراهين العقلية، والحجج الداحضة، فلم يكن خطاباً عاطفياً فقط، بل تخللته أدلة مقنعة، فخطاب اللين ينبغي أن لا يفارق خطاب الإقناع والجدال بالتي هي أحسن، والمحاورة العقلية المقنعة لكل منصف، ومريد للحق.

وهذا يظهر في عدة أدلة وبراهين عقلية:

أولها: قوله: ﴿ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا ﴾[مريم: ٤٢].

فهذه الأصنام التي تعبدها ناقصة في ذاتها، فلا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لأحد نفعاً ولا ضراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً، فهذا برهان واضح، ودليل مقنع على أن عبادة الناقص مستقبح عقلاً وشرعاً، ودل بتنبيهه وإشارته أن الذي يستحق العبادة من له الكمال والجلال، وهو الله تعالى.(١)

الثاني: بعد أن نبهه إلى أن الأوثان تنزل عن مقام الألوهية بصفاتها، بل حتى الإنسانية، بل الحيوانية أخذ يوجهه إلى الحق الكامل، والعلم

---

(١)تفسير السعدي: (٤٩٤)، وينظر: تفسير الرازي: (٢١/ ٥٤٥)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٦٧)، روح المعاني: (١٦/ ٥٥١)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣١١).

الصحيح، وكما قيل التخلية قبل التحلية.

وبين له أن ما يذكره ليس تعالما منه، أو أنه أكثر منه علما، أو فضلا، لئلا يستنكف القبول منه، بل هي رسالة كُلِّف بإبلاغها، ممن هو أعلى مني ومنك وهو الله -جل وعلا-، وهو اعتذار رقيق منه لوالده فالمسألة لا تحتمل الاجتهاد والنظر، وإنما هو علم وحق من الله ضد عدوه الشيطان، فأوضح له بأتم بيان مرجع هذا العلم لئلا يشكك في حقيقة هذا العلم، ومصدريته.[1]

الثالث: صوّر له فعله بعبادة غير الله بصورة ينفر منها كل عاقل، وهي أنها في الحقيقة عبادة للشيطان، لأن عبادتك لغير الله من الأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان لأنه هو الآمر بها، وهو الذي يغريك ويزينها لك.

"ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص، وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه".[2]

فتأمل في التدرج الذي نهجه إبراهيم عليه السلام في دعوته لوالده بتحذيره من عبادة الأصنام بخطاب عقلي، ثم بيان عاقبة هذه العبادة بالتخويف من العذاب، ثم الهجر لوالده مع وعده بالدعاء والاستغفار له قبل نهيه عن ذلك.

قال السعدي: "فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنك إن

---

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩٠٩٨)، روح المعاني: (١٦/ ٥٥١)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣١١).

(٢) روح المعاني: (١٦/ ٥٥١)، وينظر: المصادر السابقة.

أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليا للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾".(١)

"وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التي احتوتْ أربعة نداءات حانية، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعوه ولده، ويُقدِّم له النُّصْح، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً، وسَلْسَلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه".(٢)

ثالثاً: أسلوب الغلظة والشدة:

هذه الدرجة من اللين، والإقناع بالحجة، والبرهان كانت في مرحلة أولى لإبراهيم مع أبيه، تلطفا له وخطابا عقليا مقنعا، لكنه ما لبث أن أعلن بوضوح التبرؤ منه، وبيان ضلاله الواضح البين، وذلك بعد أن رأى مدى الإعراض منه، والتكبر عن الحق، فتغيرت لغة إبراهيم عليه السلام مع أبيه إلى الغلظة والشدة لما كان ذلك هو الأصلح في حقه.

قال تعالى حاكيا تلك المرحلة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فكانت تلك الغلظة والشدة من إبراهيم تجاه والده لمساسه بأصل من أصول التشريع وهو الاعتقاد والتوحيد، وعناده، وإصراره على الشرك.

(١) تفسير السعدي: (٤٩٤).

(٢) تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩١٠٠).

يقول ابن عاشور في كلام تأصيلي نفيس لتعليل شدة إبراهيم مع أبيه في الخطاب في هذه الحال، وأنه كان في آخر أمره بعد أن بذل له النصح واللين، وأن ذلك لا ينافي البر بوالده، يقول: (وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَحْكِيَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَوْقِفٌ مِنْ مَوَاقِفِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ، وَهُوَ مَوْقِفُ غِلْظَةٍ، فَيَتَعَيَّنُ أنّه كَانَ عِنْدمَا أَظْهَرَ أَبُوهُ تَصَلُّبًا فِي الشِّرْكِ. وَهُوَ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ أَبُوهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾...، وَمُبَاشَرَتُهُ إِيَّاهُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْغَلِيظِ كَانَتْ فِي بَعْضِ مُجَادَلَاتِهِ لِأَبِيهِ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ لَهُ بِالدَّعْوَةِ بِالرِّفْقِ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مَرْيَم: ٤٢-٤٧]. فَلَمَّا رَأَى تَصْمِيمَهُ عَلَى الْكُفْرِ سَلَكَ مَعَهُ الْغِلْظَةَ اسْتِقْصَاءً لِأَسَالِيبِ الْمَوْعِظَةِ لَعَلَّ بَعْضَهَا أَنْ يَكُونَ أَنْجَعَ فِي نَفْسِ أَبِيهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ لِلنُّفُوسِ مَسَالِكَ، وَلِمَجَالِ أَنْظَارِهَا مَيَادِينُ مُتَفَاوِتَةٌ،...، فَحَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْضَ مَوَاقِفِهِ مَعَ أَبِيهِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُنَافِي الْبُرُورَ بِهِ لِأَنَّ الْمُجَاهَرَةَ بِالْحَقِّ دُونَ سَبٍّ وَلَا اعتداء لَا يُنَافِي الْبُرُورَ).(١)

وظهر في الآية السابقة مدى إنكار إبراهيم على والده، وشدته من وجوه:

أولاً: الهمزة في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، للاستفهام الإنكاري ففيها إشارة

---

(١) التحرير والتنوير: (٧/ ٣١٢-٣١٤)، وينظر: تفسير النيسابوري: (٣/ ٢٩٥)، حاشية الشهاب الخفاجي: (٤/ ٨٣)، محاسن التأويل: (٤/ ٤٠٠).

بالغلظة والشدة المناسبة لحال والده.

ثانياً: فعل: ﴿ أَتَتَّخِذُ ﴾ على وزن: (تفعّل) من الأخذ، ففيه تكلُّف للمبالغة في الاتخاذ من أبيه آزر والإصرار على ذلك، "وفي فعل: ﴿ أَتَتَّخِذُ ﴾: إشعار أيضاً بأن ذلك شيء مصطنع مفتعل، وأن الأصنام ليست أهلا للإلهية، وفي ذلك تعريض بسخافة عقله أن يجعل إلهه شيئا هو صنعه". [١]

ثالثاً: في قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ ﴾، تأكيد لخبر الضلال بما يزيل الشك من نفس والده، وأنه بعيد عن الطريقة السوية.

رابعاً: "وَالرُّؤْيَةُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بَصَرِيَّةً قُصِدَ مِنْهَا فِي كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ ضَلَالَ أَبِيهِ، وَقَوْمِهِ صَارَ كَالشَّيْءِ الْمُشَاهَدِ لِوُضُوحِهِ فِي أَحْوَالِ تَقَرُّبَاتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ مِنَ الْحِجَارَةِ فَهِيَ حَالَةٌ مُشَاهَدٌ مَا فِيهَا مِنَ الضَّلَالِ". [٢]، ووصْفه لقومه أيضاً بهذا الوصف حتى لا يغتر بموافقتهم له أنه على صواب وحق.

خامساً: وصْف الضلال بالواضح البين نداء على فساد عقولهم، حيث يراه كل مشاهد وصاحب عقل، ومع ذلك لم يتفطنوا له دلالة على سخف عقولهم.

وأورد الآلوسي الإشكال في مدى موافقة إبراهيم للصواب في غلظته مع والده، وهل يعد ذلك من العقوق، ثم أجاب فقال: (وأجيب: بأن هذا ليس من الإيذاء المحرم في شيء، وليس مقتضى المقام إلا ذاك.. وقد يقسو

---

(١) التحرير والتنوير: (٦/ ١٧٢)، وينظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة: (٥/ ٢٥٦٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٧/ ٣١٤).

الإنسان أحيانا على شخص لمنفعته كما قال أبو تمام:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم[1]

...، وكون الرفق أكثر تأثيرا غير مسلّم على الإطلاق فإن المقامات متفاوتة كما ينبيء عن ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة و السلام تارة: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥]، وأخرى: ﴿ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التحريم: ٩]".[2]

والذي وصف والده بهذه الأوصاف هو القدوة وإمام الحنفاء، والموقف موقف اقتداء وائتساء، وهو الذي وصفه الله بالسماحة والحلم فقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ ﴾[التوبة: ١١٤]، ولكنه التوحيد والعقيدة فوق الأبوة والبنوة، وفوق اعتبارات الحلم والعاطفة، وإبراهيم هو الأسوة وإمام الحنفاء الذي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا به، والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالاً.

ثم أعلن إبراهيم بعد ذلك المفاصلة، والبغض، والعداوة إعلاناً لا مداراة فيه، ولا مداهنة، وهو أسلوب آخر من أساليب التبرؤ ممن تكبر، وجاهر بالعداوة للدين، وذلك كله بعد تعرضه لمحاولة القتل والتحريق، فحكى الله -جل وعلا- موقفه الأخير: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

(١) البيت لأبي تمام ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري: (٧/ ٢١٩).

(٢) روح المعاني: (٧/ ١٩٥).

رابعاً: أسلوب الهجر والمتاركة:

لما بين إبراهيم لأبيه فساد اعتقاده، وضلال فعله، وأنه مخالف للعقل الصحيح، وأنه طاعة للشيطان، وحذره عاقبة فعله بالعذاب من الله عز وجل في الآخرة، لم يكن من أبيه إلا الاستكبار والإعراض، بل والتوعد بالرجم، والطرد، والقتل، فكان مقابلاً للإحسان بالإساءة، والسوء فدل على جهله، وسفهه.

قال الزمخشري مصوراً لين إبراهيم، مع فظاظة والده: (لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر، وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل (يا أبت) بيابنيّ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[مريم: ٤٦] لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب، والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد).[١]

فلما تبين عندها لإبراهيم مدى شقاوة والده، وإعراضه عن الحق، واتباعه لهواه، اختار الهجر له مع الدعاء له بالهداية، والاستغفار له -قبل أن ينهى عن ذلك -، ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤٧ –٤٨].

ومن بره بوالده أن سبق الهجر بالتوديع والمتاركة علامة على الحزن

(١) الكشاف: (٣/ ٢٢)، تفسير الرازي: (٢١/ ٥٤٧).

والتأسف عليه، ومن حلم إبراهيم أن استمر لينه مع والده، وإحسانه في معاملته إلى آخر لحظة.

والمراد بالسلام: السلامة من كل ضرر ديني، ودنيوي: و"على" للاستعلاء المجازي، وهو التمكن. وهي كلمة تحية وإكرام.

ومع هذه المفارقة فقد أظهر إبراهيم حرصه على هداه فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، وذلك أن إبراهيم لم يكن قد تلقى نهيا من الله عن الاستغفار للمشرك.

وفعل إبراهيم بهجره لوالده، وقومه فيه إشارة ظاهرة من إبراهيم لهم أن ذلك الهجر لا يسوؤه، ولا يضره إذا كان ذلك في ذات الله ولمرضاته، وهذا دليل على جواز هجر المنصوح إذا ظهر منه الجدال، واتباع الهوى.(١)

يقول السعدي: "وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم، والحكمة، واللين، والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي".(٢)

والناظر بتأمل في قصص الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم يجد أن هذا الأصل الأصيل، وهو التدرج في خطابهم الدعوي كان حاضرا لديهم، وفي

---

(١) تفسير الرازي: (٢١/ ١٩٥)، وينظر: السراج المنير للشربيني: (٢/ ٤٧٤)، اللباب في علوم الكتاب: (١٣/ ٧٨).
(٢) تفسير السعدي: (٤٩٤).

تطبيقاتهم مما يدل على عظمه في الوصول لهداية الناس، وإقناعهم بالخير، ودلالتهم عليه، وما ذكرته من المثال مع إبراهيم فهو متوافر في قصته مع قومه، ومع النمرود، وفي قصة نوح مع قومه، وفي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، وسيأتي تفصيل أكثر لهذا الجانب في قصة موسى مع فرعون.

المبحث الرابع:
خطاب موسى مع فرعون باللين والملاطفة:

إن قصة موسى مع فرعون هي أكثر قصص القرآن تكراراً، وفيها من العبر والعظات ما يعجز عن حصره العلماء، ولا غرو فهي عرض أبلغ كتاب وأحسنه، وأحكمه، وأكثره بياناً، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد كانت رسالة من الله -جل وعلا- إلى أشد الناس طغياناً، وصلفاً، وغروراً، فكان من الطبيعي أن تكون الرسالة على يدي رجل من أولي العزم من الرسل، آتاه الله الحكمة في الدعوة، مع الشدة والقوة في الخطاب في مواجهة فرعون، وعضده بأخيه هارون ليكون معيناً له في هذه المهمة الشاقة، وكان من أهم الأصول التي انتهجها موسى مع فرعون التدرج في الخطاب، والإقناع بالحجة والبرهان.

وقد صوّر القرآن الكريم هذا التدرج أحسن تصوير بأبلغ بيان، وأحسن تبيان، ليكون قدوة للدعاة في هذا الباب، ومما زاده حسناً، وروعة تلك الوقفات التي وقفها المفسرون، والبلاغيون فأظهرت جانبا مهما من البلاغة في خطاب الأنبياء، وجانباً آخر في فوائد تلك الآيات، وعبرها للدعاة إلى الله عز وجل.

وسوف نحاول الوقوف مع أهم تلك الآيات التي تحكي وتصور لنا بوضوح تلك المراحل والتدرج في دعوة موسى لفرعون، فلن نستطيع الوقوف مع جميع الآيات لكثرتها وتوافرها.

إن موسى عليه السلام يعد مثالاً لمراعاة التدرج الدعوي نظراً لمكانة فرعون ومنزلته، فمع شدة طغيان فرعون وظلمه وادعائه الألوهية، وقتله لأبناء بني إسرائيل واستحيائه لنسائه، إلا أن الله عز وجل قد أمر موسى بلين الخطاب معه بداية، ووعْظه وتذكيره مع سابق علم الله له بعدم الاهتداء.

ولا ريب أن اللين من شعار الدعوة إلى الحق، لأن صاحبه عالم بصحة منهجه وبرهانه، وقد أرشد الله إليه في عدد من الآيات، وهو الغالب من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥]، وقال -جل وعلا-: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

يقول -جل وعلا - آمرا كليمه موسى -عليه السلام-: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

والقول اللين: هو الكلام الدال على معاني الترغيب، والعرض بأحسن عبارة وألطفها، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق، ويميز به بين الحق والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب، أو تجهيله لأن ذلك ينفره من الحق، ولو كان ظاهراً جلياً.(١)

(١) التحرير والتنوير: (١٦/ ١٢٤)، وينظر: تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٩٥)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٧)، فتح القدير: (٣/ ٥٢٤).

يقول ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين).(١)

وتفاعل الشنقيطي مع هذا الأسلوب الدعوي فقال: (وَهَذَا، وَاللهِ غَايَةُ لِينِ الْكَلَامِ وَلَطَافَتِهِ وَرِقَّتِهِ).(٢)

ومن أقوال المفسرين عند معنى القول اللين في هذه الآية ما يستدعي الوقوف والنظر كقول الحسن البصري: "هو قولها: إن لك ربًّا، وإن لك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً فآمنْ بالله يدخلك الجنة، ويقك عذاب النار".(٣)

وقال ابن عباس: كنّياه، وقيل: "أمرهما تعالى أن يقدما الوعد على الوعيد".(٤)

وكل هذه الأقوال من باب التمثيل للقول اللين، وهي داخلة في عموم الآية، ولاشك أن تقديم الترغيب على الترهيب، وتذكيره بالآخرة، وتكنية المدعو، وعدم تسميته باسمه أقرب في إجابته خاصة إذا كان من أهل المكانة والمنصب.

وقد حاول إسماعيل حقي أن يجمل أهم أسباب هذا القول اللين من موسى لفرعون، وتحرير سبب الأمر باللين في هذا الموضع فقال في تفسيره

---

(١) تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٩٤)، وينظر: روح المعاني: (١٦/ ١٩٤).

(٢) أضواء البيان: (٤/ ١٥).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٨٢).

(٤) تفسير الطبري: (١٨/ ٣١٣)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٢/ ٥١).

للآية: " أي: كلماه باللين والرفق من غير خشونة ولا تعنيف، "ويسرا ولا تعسرا" ؛ فإنه ما دخل الرفق في شيء إلا وقد زانه، وما دخل الخرق[١] في شيء إلا وقد شانه،.. وأيضاً إن فرعون كان من الملوك الجبابرة، ومن عادتهم أن يزدادوا عتواً إذا خوشنوا في الوعظ فاللين عندهم أنفع وأسلم،... فلو كان في قول موسى خشونة لم يحتمل طبع فرعون، بل هاج غضبه فلعله يقصد موسى بضرب أو قتل".[٢]

والقول اللين لا يعني التنازل أو التملق كما يفهم البعض، وإنما يكون بالحفاظ على المبادئ، وإلا كان مداهنة وتنازلاً مذموماً، وعندها ستتغير الحقائق وتسمى بغير اسمها، ولا يميز المتبصر بين الحق والباطل، ولا بين الصواب والخطأ.

ومن فوائد القول اللين أيضاً: أنه لا يثير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء المدَّعى الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يحيي القلب فيتذكر، ويخشى عاقبة الطغيان.[٣]

وقد ذكر جمهور المفسرين منهم: ابن مسعود رضي الله عنه من أمثلة هذا القول اللين ما جاء في سورة النازعات: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٨ – ١٩].[٤] وهذه العبارة غاية في

---

(١) الخَرْق: الشق في الحائط والثوب. لسان العرب: (١٠/ ٧٣).

(٢) روح البيان: (٥/ ٣٨٩)، وينظر: البحر المحيط: (٦/ ١٧٨)، تفسير السعدي: (٥٠٦)، تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٩٥).

(٣) في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٣٦).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٢٠٠)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥١)، تفسير البغوي: =

التلطف مع فرعون والتحبب إلى هذا الطاغية، وللمفسرين وقفات بديعة مع هذه الآية في أوجه التلطف من موسى عليه السلام.

يقول ابن القيم في كلام بديع ننقله بطوله عند هذه الآية: (**ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:**

أحدها: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ولم يقل كلوا.

الثاني: قوله: ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة، والزيادة، فعرض عليه أمرا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾، ولم يقل: أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي: أكون دليلا لك، وهاديا بين يديك فنسب الهداية إليه والتزكي إلى المخاطب.

الخامس: قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أنه يدعوه، ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه جنيناً وصغيراً وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام.

السادس: قوله: ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي: إذا اهتديت إليه وعرفته؛ خشيته لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته،

= (٣/ ٢٦٣)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٢٥).

وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿ هَل لَّكَ ﴾ فائدة لطيفة، وهي: أن المعنى هل لك في ذلك حاجة أو أرب، ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته، ومصلحته لا إلى حاجة الداعي؛ فكأنه يقول: الحاجة لك، وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك).(١)

فهذه سبعة أوجه في التلطف من موسى مع فرعون لإقناعه، وتحبيب الإيمان له، وكسب ود قلبه، لإقامة الحجة عليه.

ومما يسترعي الانتباه في هذا الخطاب كثرة استخدام المقدمات في الخطاب، فلم يقل: "هل تزكى"، أو "هل لك أن تزكى"، لكن جاء التعليم مستخدما أطول مقدمات في العرض قبل طلب التزكية، فجاء في المقدمات: "هل" عرض بالاستفهام، و"لك" إطناب، و"إلى أن" إطناب آخر، وكل هذه المقدمات لأجل تقبل المطلوب في العرض وهو قوله: (تزكّى).(٢)

ومن الاستنباطات البديعة في ذلك أن موسى عليه السلام لم يذكر له اسم الله بالعلمية تلطفا معه حتى لا ينفر من التوحيد، فكان قوله: (إلى ربك)، أمرا متفقا عليه بينهما، لأن فرعون يعلم أن له ربا، ولم يسمه بالاسم المعروف في كتب بني إسرائيل، كل ذلك استنزالا لطائره، حتى إذا سمع قوله ودليله بعد ذلك داخله الإيمان على التدريج، وهو أسلوب غاية في

---

(١) التبيان في أقسام القرآن باختصار يسير: (٢/ ١٤١-١٤٢)، وينظر: بدائع التفسير: (٥/ ١٢١)، الكشاف: (٤/ ٦٩٦)، تفسير الرازي: (٣١/ ٣٧)، روح المعاني: (٣٠/ ٢٩).

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، للميداني: (١٥/ ٥٣)، (٨/ ١١٨).

الحكمة الدعوية، مع عدم التنازل عن الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة.(١)

وهو أيضا أسلوب من الأساليب البديعة في الدعوة والمناظرة والجدل في الانطلاق بداية بالمتفق عليه، ثم الانتقال للمختلف فيه.

ومما فسرت به هذه الآية مما هو داخل في القول اللين ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه: ٤٧].

وللمفسرين في هذه الآية قولان:

الأول: أن هذا السلام من تتمة كلام الله لموسى وهارون، فالجملة وقفت عند قوله: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾.

الثاني: أن هذا القول تتمة لأمر الله عز وجل لموسى وهارون بالسلام على من اتبع الهدى، فيكون فيه نوع ترغيب له بالإسلام، وتخويف من الإعراض، وهذا القول هو ظاهر كلام أكثر المفسرين كابن عطية، والرازي، والآلوسي، وابن عاشور، واكتفى به ابن كثير، والشنقيطي، وغيرهم، وهو الظاهر من سياق الآية.(٢)

---

(١) في مسألة هل كان لفرعون إله يعبده؟ قولان للسلف: فذهب الحسن البصري وغيره إلى أن فرعون كان يعبد آلهة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي: معبودك، وذهب ابن عباس إلى أن فرعون كان يُعبد ولا يعبد، واستدل بقول فرعون في قوله تعالى: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، مع جحود فرعون وإنكاره لوجود إله موسى كما لا يخفى.

(٢) ينظر الأقوال في: المحرر الوجيز: (٤/ ٥٨)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥٤)، البحر المحيط: =

وهذه الجملة مقدمة، واحتراس لما بعدها من التخويف بالعذاب: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٨].

والمعنى: السلام المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة، وغيرهم من المسلمين على من اتبع الهدى بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق، وفيه من ترغيبه في اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى.(١)

وقد ذكر جماهير المفسرين أن السلام هنا ليس المراد به التحية، لأن فرعون لم يكن حينئذ موجودا، وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ إِلَى هِرَقْلَ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ). (٢)

وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الْهُدَى لَا سَلَامَ عَلَيْهِ، فهي ترغيب بالإسلام، وتعريض بالتوبيخ من الصدود عن الإسلام إذ لا اطمئنان له، ولا أمن إلا به، ولذا قال الزمخشري: "أي وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين".(٣)

ولعلي أختم هذا المبحث بكلام بديع لابن القيم تعليقا على هذه الآية،

= (٦/ ٢٣١)، روح المعاني: (١٦/ ١٩٩) التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٠).

(١) تفسير أبي السعود: (٦/ ١٩)،

(٢) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب: (٧/ ٤٦٤٨)، تفسير القرطبي: (١١/ ٢٠٣)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٠). والحديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي: (١/ ٥)، برقم: (٧).

(٣) الكشاف: (٣/ ٦٨)، وينظر: استغراب أبي حيان لعبارته في البحر: (٦/ ٢٣١)، وتوجيه الآلوسي لها في روح المعاني: (١٦/ ١٩٩).

يقول: "ففيه استدعاء لفرعون، وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه، وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام...، وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته، مع جلالته وعظمته كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه، وطاعته، وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: (أنا رسول مولاك إليك، وأستاذك) وإن كان أستاذهما معا، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له ".[1]

كل هذه الآيات السابقة داخلة في جملة القول اللين الذي أمر الله به موسى أن يخاطب به فرعون في بادئ أمره، لأجل كسب ود قلبه، وطلب استجابته لأمر الله، ولكنه لم يزدد إلا طغياناً وعتوا عن أمر الله.

(١) بدائع الفوائد: (٢/ ٣٩٦)، وينظر: بدائع التفسير لابن القيم: (٣/ ١٥٥).

المبحث الخامس:
خطاب موسى مع فرعون بالحجة والبرهان:

لم يكن خطاب الحجة والبرهان والجدال والإقناع مفارقا لخطاب اللين، بل كان معه جنبا إلى جنب، فمع تلطف موسى مع فرعون إلا أنه كان يذكر له الأدلة والبراهين على ألوهية الله عز وجل، واستحقاقه للعبادة، وليس ما نذكره من التدرج بين مبحث اللين والحجة يعني الافتراق بينهما بل كان اللين مرافقا للحجة والبرهان.

ولن أستطيع أن آتي على كل الآيات في مقام الدليل والبرهان بين موسى وفرعون، لكنني سأحاول المرور على أهمها وأظهرها في هذا المقام.

لقد كان موسى عالما بثقل مهمته، وأنه بحاجة إلى من يعينه في جداله وحواره مع فرعون، ولذا طلب ربه معيناً له في الفصاحة حيث كان كما ذكر المفسرون في لسانه لثغة، ولهذا قال: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٤ – ٣٥]

وَمَعْنَى قوله: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ : أن يكون سببا في تصديق فرعون، وملئه بإيضاحه عن الأدلة التي يلقيها موسى في مجادلة فرعون كما يقتضيه قوله: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ "فإنه فرّع طلب إرساله معه على كونه أفصح لسانا، وجعل تصديقه جواب ذلك الطلب فهو تفريع على

تفريع، وليس للفصاحة أثر في التصديق إلا بهذا المعنى". [1]

ولا ريب أن الفصاحة والبيان لها أثر في إقناع الخصم، وذلك ببيان الحق، وتقرير الحجة بتوضيحها، وتزييف الشبهة، وبيان عوارها، ومجانبتها للصواب.

ولذا فلم يفُتْ الطاغية فرعون أن يعيب موسى بهذا العيب، وأن يستنقصه بعدم إطلاق اللسان بقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢].

على خلاف بين المفسرين هل أجيب موسى في حل تلك العقدة من لسانه كاملة وهو قول طائفة من المفسرين منهم: أبو السعود، وابن عاشور، أم حل جزءا فقط من عقدة لسانه بما يفقه القول، ويُفهم السامع، وهو ما ذهب إليه الجمهور منهم الحسن البصري، ورجحه القرطبي، وابن كثير، والرازي، وأبو حيان، والسعدي، والشنقيطي.

قال الحسن البصري: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ "قال: حُل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي". [2]

وبعد أن آتاه الله سؤله، بشرح صدره، وتيسير أمره، وعضده بهارون، وأعطاه عددا من الآيات التي تدل على صدقه، ونبوته، كالعصا، وإدخال اليد في الجيب، بدأ موسى وهارون بجدال الطاغية وحواره.

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١١٦).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ١٩٢)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٤٣)، البحر المحيط: (٨/ ٢٣)، تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٨٢)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٢)، التحرير والتنوير: (٢٥/ ٢٣١)، أضواء البيان: (٤/ ٨)، تفسير السعدي: (٥٠٤).

أولاً: الآيات المتعلقة بإعلان موسى عن رسالته:

أعلن موسى في بادئ دعوته لفرعون إعلاناً صريحاً ظاهراً عن سبب إتيانه، ومن الذي أرسله، وعن آياته وبرهانه على صدقه وإرساله من الله، وأشار ضمن كلامه إلى أن الله هو رب فرعون، والعالمين جميعاً: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وجاء في آية الشعراء: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء].

وابتداء موسى كلامه بصيغة التأكيد بحرف: (إنّ) لأن المخاطب مظنة الإنكار، أو التردد القوي في صدق الخبر.

واختيار صفة رب العالمين إبطال لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها، فلما وصف موسى مرسله بأنه رب العالمين شمل فرعون، وأهل مملكته فأبطل موسى دعوى فرعون أنه إله مصر بطريق اللزوم، وهو نقض لأصل من الأصول الفرعونية.

يقول سيد قطب معلقاً على هذا اللقاء: (إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر . . مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى (رب العالمين)، وبين الطاغوت الذي يدعي ويزاول الربوبية من دون رب العالمين!.. (يا فرعون).. لم يقل له: يا مولاي! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق! ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز. ناداه ليقرر له حقيقة أمره، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود: ﴿ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

.... إن ربوبية الله للعالمين تعني إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره؛ وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له من دون الله بإخضاعهم لشرعه هو وأمره).[(١)]

وكعادة الطاغية في الفرار من المواجهة فقد أعرض فرعون عن إبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بمنته عليه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، ثم وبّخه على فعله بقتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ معظما إياها بعدم التصريح بها، أي فِعْلتك العظيمة التي تعرف، والتي لا يليق الحديث عنها بألفاظ صريحة، وخوفه من قتله للقبطي ظناً منه بأن ذلك يقضي على الدعوة من أصلها، وأراد بذلك القدح في نبوته عليه السلام إذ كيف يقتل نفساً، ثم يدعي أنه مرسل من الله، وقصده من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشية فرعون حيث أوجد له سبباً لقتله، ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس.[(٢)]

"يمكننا من خلال الحوار السابق أن نرى المكر الذي تميزت به شخصية فرعون من خلال حواره مع موسى عليه السلام عندما بلّغه رسالة الله، فكان ردّ فرعون خبيثا مراوغا يريد تحويل الحوار عن مجراه، فبدلاً من مجابهة الحجة والبرهان عدل إلى ما ظنّه احتقاراً وازدراءً لموسى".[(٣)]

---

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٣٤٦).

(٢) التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٣٨).

(٣) شخصية فرعون في القرآن، قاسم توفيق: (١٠١)، (٣٠٤)، وينظر: في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩١)، روح المعاني: (١٩/ ٦٩)، تفسير السعدي: (٥٩٠).

ولم يتوقف موسى عليه السلام عند هذه التهم كثيرا بل صدّقه بكل ثقة بحفظ الله له في بعضها مع رده عبارة الكفر إلى الضلال، وكذّبه في الأخرى، وبدأ بالتهمة الأشد اهتماما بردها أمام الملأ، وهي تهمة القتل: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قال جمهور السلف: أي من الجاهلين، أي: لم أكن أعلم بتحريم قتل النفس، وذلك قبل إرسالي، وهي كذلك في قراءة ابن مسعود: (وأنا من الجاهلين)، أو من الذاهلين أنه سيؤول إلى القتل.(١)

وقال ابن إسحاق: أي: خطأ لا أريد ذلك.(٢)

ثم نقض التهمة الأخرى مكذبا له، بل وساخرا منه بمثل سخريته، ولكن بالحق وليس بالباطل: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، هل تعد تعبيدك لبني إسرائيل بذبح أطفالهم، واستحياء نسائهم نعمة، وأشار إليها باسم الإشارة البعيد احتقارا لها، ونبه على أنها في الحقيقة نقمة، وليست نعمة، فلولا فعلك الظالم مع أبناء بني إسرائيل لما خرجت من بيت والدتي، ولما ألقتني في التابوت في اليم خوفا علي منك، ولما تربيت في بيتك، وخرجت من كنف والدتي، فكل ما تدعي أنه نعمة إنما كان ذلك بسبب ظلمك، فأين فعلي من قتل نفس واحدة مع فعلك بقتل أجيال من بني إسرائيل فأيهم أحق بالإنكار؟، وهل هذا هو ما تمنه علي؟، وهل هذا هو فضلك العظيم؟!

(١) أخرج الطبري قراءة ابن مسعود في تفسيره: (١٩/ ٣٤١)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٤/ ١٠٩)، تفسير ابن كثير: (٦/ ١٣٧)،

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٠/ ٤٠٣).

وهكذا يُجيب موسى عليه السلام بفطنة وذكاء دون أن تثيره تهم فرعون له، فلربما يُثار بعض أصحاب الحق فيخرجون بسبب ذلك عن المعقول.

ثانياً: الجدال حول ألوهية فرعون من خلال سورة الشعراء:

ولنأت على أكثر الحوارات سخونة، وحجاجا بين موسى وفرعون في سورة الشعراء، حيث كان يتعلق بأمر لا يطيق فرعون الحديث عنه، ولا النقاش فيه، وهو إثبات ربوبية الله عز وجل، وألوهيته، وإبطال ادعائها عن فرعون.

قال تعالى واصفا تلك المجادلة: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٨].

حينما علم فرعون أن موسى غير متراجع عن دعوته، انتقل إلى جدل آخر فاستفهم عن رب العالمين، والصحيح أن سؤاله إنما كان على سبيل المكابرة، والعناد، دل على ذلك قول موسى في موضع آخر لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].[1]

---

(١) ينظر هذه المسألة في الفتاوى: (١٦/ ٣٣٤)، وينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: (٥/ ٤٠– ٤٤) وهو قول أهل السنة والجماعة، وينظر أصحاب القول الآخر أنه كان =

واستفهام فرعون كان استفهاماً مشوباً بإنكار، وتهكم على طريق الكناية.

قال موسى مجيبا، إجابة واثقة بالله دالة على أن الإله هو المعلوم بالقلوب والفطرة السوية: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

وهو جواب يساوي ذلك الإنكار، ويغطيه.. إنه رب هذا الكون الذي لا يبلغ إليه ملكك يا فرعون، وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله مصر، وهو ملك حقير بجانب ملكوت السماوات والأرض، وقد كان جواب موسى عليه السلام يحمل احتقار ما يدعيه فرعون مع بطلانه، ولفت نظره إلى هذا الخلْق العظيم، ثم عقب على هذا التوجيه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تريدون الحق الذي تصلون به إلى طريق اليقين، وفيه إشارة بأداة (إن) الدالة على الشك على عدم إرادتهم للوصول للحق، لظهوره وبيانه لمن كان مبتغيا للحق متبعا له.(١)

أعرض فرعون عن جواب موسى، واستثار الملأ من حوله، فاستفهمهم استفهاماً يظهر عجبه من هذا القول، ويحتقر صاحبه أمام قومه، أو لعله يصرفهم عن التأثر به، على طريقة المتكبرين الذين يخافون من تسرب كلمات الحق إلى القلوب: ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥].

= استفهاما على سبيل معرفة ذاته وكنهه، ولم يكن جحودا: البحر المحيط: (٧/ ١٢)، تفسير الرازي: (٢٤/ ١١١)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٥).

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٢)، زهرة التفاسير، أبو زهرة: (١٠/ ٥٣٢٩)، شخصية فرعون في القرآن، قاسم توفيق: (٣٠٤).

قال ذلك خوفا من أن يعلق من هذه الشبهة شيئاً في قلوب قومه، وقد بالغ فرعون إلى عدم الاعتراف بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده، وخطأه بقوله: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾: أي: إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عهد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه.(١)

عندها لم يجد موسى مناصاً من التصريح بما كان متضمناً له جوابيه السابقين، وحطاً لفرعون من ادعاء الربوبية إلى مرتبة العبد المربوب: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

فنبههم موسى بهذا التصريح إلى أمور:

أولاً: أن الله ربكم الذي خلقكم وأنشأكم، وخلق آباءكم الأولين ورباهم وكونهم، فهل فرعون خلق وقدر، وهو المخلوق الذي لا يخلق، ولا يقدر.

ثانياً: أن الله رب آبائكم الأولين قبل أن يوجد فرعون.

ثالثاً: أن الرب يجب أن يكون دائماً باقياً، ولا يكون فانياً، كفرعون.

فنزل بهم موسى إلى الاستدلال بأنفسهم، وبآبائهم إذ أوجدهم الله بعد العدم، ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم لأن أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالا على خالقهم، فالاستدلال الأول يمتاز بالعموم، والاستدلال الثاني يمتاز بالمعرفة الفطرية لكل منصف.

وقد كان كلام موسى عليه السلام متضمناً حجة قوية لإبطال ألوهية

---

(١) تفسير الرازي: (٢٤/ ١١٣)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٧)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٢)، روح المعاني: (١٩/ ٧٢).

فرعون، وأنه بشر كسائر البشر، لا يملك خلقا ولا إنشاء.[١]

غضب فرعون لما ذكر موسى ما يشمل آباءه المقدسين بوصف يخرجهم من صفة الإلهية، زاعما أن هذا يخالف العقل، فلا يقوله إلا مجنون فاقد لعقله، واشتد خوف فتنة قومه فقال مصرحا بما ينفر قلوبهم عن قائله، وقبول ما يجيء به: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وقد أكد كلامه بحرفي التأكيد: (إن)، ولام التأكيد، لأن حالة موسى لا تشعر بجنونه فكان وصفه بالمجنون معرَّضا للشك، فلذلك أكد فرعون أنه مجنون يعني: أنه علم من حال موسى ما لم يعلمه قومه.

وقصد بإطلاق وصف الرسول على موسى السخرية به بدلالة رميه بالجنون الواضح عنده، وأضاف الرسول إلى المخاطبين تعالياً، وكبراً عن أن يكون مرسلاً إليه، وأكد التهكم والسخرية بالوصف، وفي ذلك إثارة لغضبهم، وإنكارهم لرسالته بعد سماع الخبر ترفعاً بأنفسهم عن أن يرسل إليهم مجنون، ولزيادة تهييج السامعين كيلا يتأثروا، أو يتأثر بعضهم بصدق موسى، وفي ذلك كله تحريض على استنكار رسالته كأنه يقول: اختير لكم رسول مجنون، وهذه أول رمية رمى فرعون بها موسى بالجنون.[٢]

"ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ١٣٩)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٩)، روح المعاني: (١٩/ ٧٢).

(٢) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢١)، روح المعاني: (١٩/ ٧٢)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٢)، تفسير السعدي: (٥٩٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٤٠).

وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨]. والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما، وشدة ألفتهما، واللفظ يدل على الشروق والغروب، كما يدل على مكاني الشروق والغروب، وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون، ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما، فمن يصرفهما إذن، ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذي لا يتخلف مرة، ولا يبطئ عن أجله المرسوم؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا، ويوقظ العقول الغافية إيقاظاً".(١)

فعدل موسى إلى طريق ثالث أوضح من الثاني، وذلك لأن الأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر للكون على هذا الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر.

وهذه الطريقة التي اتبعها موسى هي بعينها طريقة إبراهيم عليه السلام مع الملك الذي ادعى الألوهية، فإنه استدل:

أولاً: بالإحياء والإماتة، وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، فأجابه نمروذ بقوله: ﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾[البقرة: ٢٥٨]، فدحض حجته إبراهيم بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

فقول موسى عليه السلام لطاغوت مصر عن رب العالمين: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إبطال واضح لألوهية فرعون المدعاة، لأن ملكك لا يتجاوز مصر، وأما ملك رب العالمين فلا حد له ولا حصر.

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

وبعد إلقاء هذه الحجة التفت موسى إلى من حوله الذين ينادون بألوهيته، فقال محرضا لهم على التفكير بعقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي عقل تعقلون.

وفي ندائه لهم بالعقل، واستخدامه لحرف (إن): إشعار بوضوح الأمر بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، وأنّهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به من الجنون.

وهذه صورة من صور الشدة التي جاءت لسبب عارض حيث جعل موسى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون، لأن الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولا لينا ابتداءً، فلما رأى منهم المكابرة، ووصفوه بالجنون اشتد معهم في القول، وعارض قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] بقوله: إن كنتم تعقلون أي إن كنتم أنتم العقلاء، أي فلا تكونوا أنتم المجانين.[١]

وهي شدة اقتضتها الحكمة الدعوية حيث رماه فرعون بالجنون تشكيكا في نبوته، فرد عليه موسى ابتداءً بدليل ظاهر يتفق عليه العقلاء في ألوهية الله -جل وعلا-، ثم أشار لهم بضعف عقولهم وبعدها عن الصواب، وأنهم أحق بالوصف الذي قذفه فرعون به.

قال الزمخشري: "فإن قلت: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها، فما معنى ذكرهم، وذكر آبائهم بعد ذلك، وذكر

(١) تفسير الرازي: (٢٤/ ١١٢)، البحر المحيط: (٧/ ١٣)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢١)، روح المعاني: (١٩/ ٧٣)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

المشرق والمغرب؟.

قلت: قد عمم أوّلاً، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه ...، ثم خصص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين، وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة، وحساب مستو من أظهر ما استدل به... فإن قلت: كيف قال أوّلاً: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾، وآخراً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾؟

قلت: لاين أوّلاً، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة في العناد، وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: (إنّ رسولكم لمجنون)، بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾". [1]

ولما لم يجد فرعون لأدلة موسى دليلا يقابلها، ورأى شدة موسى في الحق عدل عن البرهان إلى التخويف، وهذه طريقة من قهرته الحجة، وفيه كبرياء أن يتحول من الجدل إلى التهديد، فلما ظهر له شدة عزم موسى، وأنه ممن لا يجارى في الحوار قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

واللام هي الممهدة للقسم، وقد أكد تهديده بقول يشبه القسم، و(اتخذت) أي: جعلت لك إلها غيري، وكأن الألوهية أمر يجعل، وليس حقيقة ثابتة يستدل لها العبد بدلالة العقل السليم، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

(١) الكشاف: (٣/ ٣١٤)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٤/ ١١٣)، تفسير النسفي: (٣/ ١٨٣)، تفسير النيسابوري: (٦/ ٧٧).

﴿ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ أي: لأسجننك، واتبع طريقة الإطناب لأنه أنسب بالتهديد لأنه يفيد معنى: لأجعلنك واحدا ممن عرفت أنهم في سجني.

ومقصود فرعون تذكير موسى بهول السجن الذي يعرف موسى مصير أصحابه، وما يلاقون، وهو ما تبينه (أل) العهدية، فكأنه قال: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني.

وهو تهديد ووعيد شديد لموسى عليه السلام، وقد ذكر المفسرون عددا من أنواع التعذيب الذي كان يمارسه فرعون مع المساجين.(١)

ومع هذا التهديد والوعيد فإن موسى لم يفقد ثقته بالله، ولم يلتفت إلى ما يصرفه عن المهمة التي أرسل بها، وهي إقناع قومه بالحجة والبرهان؛ فإذا هو يتجه إلى إظهار آية محسوسة من المعجزات تدل على صدقه، وهي الحجة التي أراد فرعون أن يخفيها عن قومه. فأراد موسى أن يظهرها: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ أي: حتى لو جئتك بدليل واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وهذا التقدير دلت عليه (لو) الوصلية التي هي لفرض حالة خاصة، والتعبير عنها بـ(شيء) للتهويل والتعظيم.

وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى؛ ولو رفض الاستماع إلى دليله لدل على خوفه منه، وهو يدعي أنه مجنون.

ثم إن موسى استفهمه استفهاما مشوباً بإنكار، واستغراب قطعا

(١) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢٢)، روح المعاني: (١٩/ ٧٤)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

لمعذرته قبل السجن، ومن ثم وجد فرعون نفسه مقوداً لطلب الدليل: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣١].

ويلحظ أن فرعون أعرض عن التصريح بالاعتراف بموسى عند الإتيان بالآيات، فجاء بكلام محتمل إذ قال: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي: في دعواك، فهو ما يزال يشكك في صدق موسى عليه السلام، ففي حرف (إن): ما يقتضي أن فرض صدق موسى عند فرعون مشكوك فيه كما هو الغالب في شرط (إن)، وأن الغالب كذبه، وهو ما يريد فرعون إيهام قومه به، فبقي تحقيق أن ما سيجيء به موسى مبين أو غير مبين. وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع، والنزول ليتأتى إنكاره إن احتاج إليه.[1]

هنا كشف موسى عن معجزته؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٢ - ٣٣].

ولما أسقط في يد فرعون، ورأى تلك الآية البينة، عاد إلى الفرار مرة أخرى بالاتهام والتخويف، وحاول دفعها؛ وهو يشعر بضعف موقفه، ويهيج مخاوف قومه من موسى وقومه، ليغطي على هذه المعجزة: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤ – ٣٥].

(١) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢٢).

"ويبدو تضعضع فرعون، وتهاويه، وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلها، فيطلب أمرهم ومشورتهم: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾، ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!

وتلك شنشنة[١] الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجأون إلى الشعوب، وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر، وهم كانوا يستبدون بالهوى. ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون!".[٢]

وقد اتهم فرعون موسى عليه السلام في حاله بتهمتين:

أولاً: أنه بهذه الدعوة لا يريد هداية، ولا تعليما، ولكنه ساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره؛ فاتهمه بالسحر تنفيرا منه.

ثانياً: أنه يريد إخراجكم من الأرض لئلا يكون لكم سلطان في الأرض، بل يكون الأمر لغيركم، وتكونون عبيدا تعيشون على هامش الحياة فيها.

ويلحظ أنه أراد من خلال ذلك استثارة عنصريتهم بما كان بينهم وبين بني إسرائيل من العداوة، وذلك باتهام موسى بحب الملك والمنصب والمنزلة، وذلك ليستتب له ملكه، وربوبيته، وهو ما صرح به هو وقومه في سورة يونس: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا

(١) الشنشنة: الطبيعة والسجية. لسان العرب: (١٣/ ٢٤١).

(٢) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[يونس: ٧٨].(١)

وأشار عليه الملأ؛ وقد خدعتهم حيلته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية ذات نفوذ ومكانة: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[الشعراء: ٣٦ - ٣٧].

إنّنا ومن خلال هذا الحوار الذي أداره موسى عليه السلام، وكيفية ردّه على الشبهات، والأسئلة التي أثارها فرعون نتبين مدى ما كان يتمتع به موسى من قدرة على الحوار والمناقشة، والإقناع بالحجة والدليل، والمنطق الواضح السليم.

ويبدو لنا بوضوح أيضاً مدى التدرج الذي سار به موسى في إدارته للحوار، لإقامة الحجة على فرعون، ودحض حجته، وبيان ضعف موقفه أمام أشراف قومه، فتخبط فرعون من الاتهام، إلى التهديد والوعيد، وأرعد وأزبد، وكان موقف موسى ثابتاً رغم طغيان فرعون، ومحاولته لزعزعة موسى عن موقفه، وإشغاله عن الدعوة بالاتهام بالجنون والسحر، فلم ينصرف موسى عن الهدف الذي أراده من دعوة قومه، وبيان بطلان ألوهية فرعون المدعاة، وهي أعظم ما يمكن زعزعته في نفوس قومه.

ثالثاً: الحوار بين موسى وفرعون في الألوهية من خلال سورة طه:

وقريب من الحوار والجدال السابق بين موسى عليه السلام، وفرعون

---

(١) زهرة التفاسير: (١٠/ ٥٣٥١)، روح المعاني: (١٩/ ٧٤)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٤).

ما ذكره الله -جل وعلا- في سورة طه، ولعلي أقف باختصار مع هذه الآيات تجنباً للتكرار في الحوار السابق، وهي تحكي جانبا آخر من الحوار الذي دار بين موسى وفرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٤٩ – ٥٣].

فبعد أن أعلم موسى فرعون أنه مرسل من ربه إلى فرعون في قوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٧ – ٤٨]

أجابه فرعون: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩]، وإضافته الرب إلى ضميرهما لأنهما قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، وأعرض عن أن يقول: فمن ربي؟ إلى قوله: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ إعراضا عن الاعتراف بالمربوبية، ولو بحكاية قولهما، لئلا يقع ذلك عند أتباعه موقعاً فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له ربا.(١)

يقول عبد الكريم الخطيب معلقاً على هذا الموقف: " ويدهش فرعون لهذه المفاجأة، التي طلع بها عليه هذان الرسولان، وتضل من وعيه الكلمات

(١) الكشاف: (٣/ ٦٨)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥٨)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٩)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٢)، روح المعاني: (١٦/ ٢٠٢).

التي سمعها، ولا يمسك منها إلا بالكلمة الأولى منها .. ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

ويقلّب هذه الكلمة (ربّك) ويوردها على ذاته الإلهية، فيرى أن الرسولين ينسبانه إلى ربّ ..، وهذا هو النكر أعظم النكر؟ أربّ يضاف إلى ربّ؟ إنه إن تكن ثمة إضافة فهو الربّ الأعلى الذي تضاف إليه الأرباب .. وإنه إذا جاز أن يكون للناس رب؛ فلن يكون له هو رب..، ولهذا اتجه إلى موسى مخاطبا في تهكم واستنكار ..﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] إنه لا ينتسب إلى رب، فإذا كان لموسى وهارون رب غير فرعون فليقولا له من هو؟ ولهذا لم يقل فرعون: من ربى هذا؟ بل قال من ربكما أنتما؟". (١)

قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وفى هذا الجواب، تحدّ ظاهر لفرعون، وأن ادعائه الربوبية لا يعدو أن يكون دعوى كاذبة، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره، ودلالته على أنّ الغني القادر المنعم على الإطلاق هو الله تعالى، وأنّ جميع ما عداه محتاج إليه جل وعلا. (٢)

ولذلك قال الزمخشري: "ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق". (٣)

وكان الظاهر أن يقول عليه السلام: ربنا رب العالمين لكن موسى اتبع

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب: (٨/ ٨٠٣).

(٢) تفسير البيضاوي: (٤/ ٥٤)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٣).

(٣) الكشاف: (٣/ ٦٨)، وينظر: روح المعاني: (١٦/ ٢٠٢).

طريق ما يسمى بالأسلوب الحكيم.(١)

لما شاهد فرعون هذا الجواب المبهر أراد أن يصرفه عليه السلام عن دعوته، ويشغله عما هو بصدده، فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] فلما لم يقدر فرعون على مجادلته انتقل إلى سؤال آخر، وهو ما حال من هلك من القرون؟، وذلك كله على سبيل المراوغة والحيدة عن الاعتراف بما قال موسى، وما أجابه به.

قيل: سأله عن أخبارها وأحاديثها ليختبرهما أهما نبيان؟ أو هما من جملة القصاص الذين قرأوا قصص الأمم السابقة؟ وقيل: مراده ما لها لا تبعث، ولا تحاسب.(٢)

فأجاب موسى بكل ذكاء لغرض فرعون من هذا السؤال: "بأنّ كل كائن محيط به علم الله، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان، كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل، أي: لا يضل كما تضل أنت، ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة".(٣)

فهو تعريض بفرعون بأنه فاقد لصفات الربوبية فيعرض له النسيان

---

(١) روح المعاني: (١٦/ ٢٠٢)، والمراد بالأسلوب الحكيم: "تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له". الإيضاح للقزويني: (٧٦)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.أحمد مطلوب: (١/ ٢٠٠).

(٢) تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٠)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥٩)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، التسهيل، لابن جزي: (٢/ ١٧٣)، روح المعاني: (١٦/ ٢٠٣)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٣)، تفسير السعدي: (٥٠٦).

(٣) الكشاف: (٣/ ٦٩)، وينظر: البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٦١).

وسبق الجهل، وهو دليل وبرهان جلي آخر عرّض فيه موسى ببطلان ادعاء فرعون في الربوبية، وأنه لا يليق بالرب أن يكون جاهلا أو ناسيا.

والحاصل أن موسى تجنب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله لأنه لم يبعث بذلك، وفي هذا الإعراض فوائد كثيرة.

ثم استطرد موسى عليه السلام في وصف الله عز وجل بصفات لا يمكن لفرعون أن يتصف بها، ولو قال له هو القادر أو الرازق، وشبهه لأمكن فرعون أن يغالطه، ويدعي ذلك لنفسه لأن صفات خلق الأرض، وبسطها، وإنزال المطر تدل على الكمال المطلق، قال موسى مستطرداً في وصف بعض أفعال الله -جل وعلا-: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقد كانت حجة ملجمة من موسى لفرعون فكل هذه الأفعال لا يمكن أن يفعلها إلا رب متصرف في الكون، لا شريك له في التصرف والإرادة.

وقد وجم فرعون لهذا الجواب، وظهر منه الاضطراب، فنقل الحديث إلى وجه آخر فرارا مرة أخرى من الحوار إلى الاتهام، وخشي أن تروج فكرة بطلان ألوهيته إلى قومه فجاء قومه من ناحية ما يحرصون عليه، وهو حرصهم على سلامة أرضهم، وأموالهم، فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: ٥٧].

وأضاف السحر إلى ضمير موسى في قوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تحقيراً لشأن هذا الذي سماه سحرا، واستصغارا لموسى.

ويأتي مكر الجبارين فيأتي فرعون بشبهتين ليثير حنق القوم، وعداوتهم لموسى:

أولهما: اتهامه برغبته بإخراج القوم من أرضهم: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾، وهو أمر يشق على النفس قد قرنه الله في بعض الآيات بقتل النفس، فلما امتلأت نفوسهم بالحقد والحنق عليه ألقى التهمة الثانية التي تقدح في رسالته، وتنفر الناس منه، وهي اتهامه بالسحر.

وهنا غضب القوم، ليس لربوبية فرعون، ولكن دفاعاً عن اقتصادهم وأرضهم، وقد ظهر أثر هذا الكلام على الملأ بترديدهم لهذا القول بعد زمن، فقالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٣].

وهكذا يروج الطغاة لتشويه صورة المصلحين بين الناس حتى تصبح حقيقة يتناقلها الناس، ويرددوها بلا تمييز، ولا وعي. (١)

وبكل مكر كبار انتقلت المعركة "فلن تكون بين فرعون وموسى...، ولكنها ستكون بين موسى، وسحرة فرعون! ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ [طه: ٥٨] فهذا هو مكان موسى في نظر فرعون! ولهذا بادر فرعون بإعلان البدء بالمعركة.. ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ ﴾ [طه: ٥٨].. وأدخل فرعون نفسه في المعركة باعتباره شاهدا متفرجا، يرفّه عن نفسه، بما يرى من ألاعيب السحر وفنونه! ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه: ٥٨] أي:

(١) تفسير الرازي: (٢٢/ ٦٢)، فتح القدير: (٣/ ٥٢٩)، تفسير الشعراوي: (١٥/ ٣٠٧)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٤٤).

واختر مكانا مبسوطا مستويا، يسع الجموع الحاشدة التي ستشهد هذا السّحر، وفنونه، وحيله!!".[1]

وهكذا لم يمض فرعون في الجدل، لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة، وهو يستلهم حجته من آيات الله الكونية، وتأييده ومعيته له.

وأعلن فرعون التحدي أمام الملأ ليظهر قوته وثباته، وإنما أعاد فرعون أمر الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام تحرزا من نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، وإظهار الجلد، وإظهار أنه متمكن من الأمر، وأنه لم يخرج عن طوعته وقدرته، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام، وتوسيط كلمة النفي بينهما إشعاراً بمسارعته إلى الاستجابة للموعد.[2]

ولم تفت موسى عليه السلام هذه الفرصة فواعدهم في يوم العيد الذي يجتمع فيه الناس، ومن فطنته أنه حدد الموعد بكل دقة دلالة على وفائه بالوعد، وثقته بنصر الله، فاختار يوم الزينة، ووقت الضحى بالتحديد ليكون الجمع أكثر، ويحق الله الحق ويبطل الباطل.

ولقد كانت كل تلك الترتيبات من تقدير الله -جل وعلا- وبالا على فرعون، حيث كشفت الحقيقة في صدق موسى عليه السلام، وبطلان ألوهية فرعون، وكان أمر الله قدرا مقدورا. كان هذان نموذجان لحوارين بين موسى وفرعون ظهر فيهما تدرج موسى في الخطاب والحوار أقام فيهما الحجة على القوم، وعلى فرعون، وتبين فيهما لكل منصف بطلان دعوى

(١) التفسير القرآني للقرآن: (٨/ ٨٠٣).

(٢) تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٤)، وينظر: تفسير السعدي: (٥٠٨).

فرعون بالربوبية، صال فيها موسى وجال، وأدى المهمة بالتبليغ لدين الله بالموعظة والحكمة تارة، وبالخطاب العقلي تارة، وكان يلقي فيها الحجج والبراهين على فرعون وملئه، ولا يعدو فرعون في كل مرة تضعف فيها حجته بالفرار من المواجهة بإلقاء التهم على موسى، بالسحر تارة، وبالجنون تارة، وبالتخويف والترهيب بالسجن تارة، والقتل أخرى، وتشويه الصورة بحب المكانة والدنيا والمنصب، وتأليب قومه بأنه لا يريد إلا إخراجكم من الأرض، وتوريث بني إسرائيل هذه الأرض، وهي تهم تدل على ضعف فرعون عن المحاجة من جهة، وهي في نفس الوقت لم تضعف من عزم موسى عليه السلام في الدعوة إلى الدين الصحيح، واجتثاث ربوبية فرعون من قلوبهم.

ولا ريب أن موسى قد حقق انتصارا عظيماً من خلال هذا الحوار، وأظهر حجته على فرعون، ولم يجد من فرعون تلك البراهين الدالة على صدقه.

المبحث السادس:

خطاب موسى مع فرعون بالشدة والتهديد والدعاء عليه بالهلاك.

من خلال عرض الحوارات السابقة بدا لنا بوضوح أن موسى عليه السلام قد بذل مع فرعون شتى الطرق في الإقناع، والبيان تارة باللين، والملاطفة: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [النازعات: ١٨]، وتارة بالحجة والبرهان، والدليل الواضح: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠]، وتارة بالدليل العقلي: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦]، وفي بعض الأحيان تعرض الشدة لأمر عارض رداً على شبهة، أو بيانا لفساد العقل: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٨] ردا على قول فرعون: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

كانت هذه مراحل اقتضتها حكمة الدعوة، وحال فرعون من جهة المنزلة التي كان يتبوأها، واستجابة لأمر الله -جل وعلا- باللين والدعوة بالحسنى.

ولكن التدرج الذي سلكه موسى عليه السلام في الجملة لم يخرج عن اللين في باديء أمره كما أمره الله - جل وعلا -، ثم انتقل إلى الجدال والحوار، مع الدليل العقلي والبرهان الفطري، ثم انتقل أخيراً إلى الشدة والتهديد والوعيد.

فلما أقيمت الحجج والآيات الواضحات البينات على فرعون، وتبين

عناده وكبرياؤه عن اتباع الحق، واتهم موسى كذبا وزورا بالسحر مع ظهور حججه وبراهينه، تغيرت نبرة موسى إلى الشدة والغلظة.

أولاً: اتهام موسى عليه السلام فرعون بالخسارة الدنيوية والأخروية:

حكى الله -جل وعلا- جانبا من مواقف الشدة، والغلظة، والتهديد، والوعيد في عدد من الآيات. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١ – ١٠٢].

والمراد بقوله: (مثبورا): قال ابن عباس: ملعوناً محبوساً عن الخير، وعن ابن عباس أيضاً: قليل العقل، وقال الضحاك: مغلوباً، وقال مجاهد وقتادة: هالكاً. (١)

ولا شك أن موسى عليه السلام لم يصل إلى هذه الجرأة مع الطاغية فرعون إلا بعد أن استنفد جميع المحاولات في الإقناع، وهو ما يشير إليه قول موسى له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾، وأكد موسى كلامه بلام القسم، وحرف التحقيق تحقيقا لحصول علم فرعون بذلك، والمراد بـ(بصائر) أي: حججاً وبراهين بينة على بطلان دعواك.

وإنما أيقن موسى عليه السلام بأن فرعون قد علم بصحة هذه الآيات: إما بوحي من الله أعلمه به، وإما برأي مصيب، أي: إنك لتعلم هذا، ولكن العناد والكبر، يأخذان عليك الإقرار بالحق، واتباعه.

(١) الدر المنثور، السيوطي: (٩/ ٤٥٦)، تفسير ابن كثير: (٥/ ١٢٦).

وأيضا فإن موسى لم يصرح بهذه الغلظة إلا بعد أن أوحى الله له فيما يبدو بقرب هلاك فرعون، وبعد أن رسخت قدمه قوة وثباتا، وكون عددا من الأتباع الذين زادوه تثبيتاً، وثقة بنصر الله.

وإلى ذلك أشار الشعراوي، فقال: (ثم لم يَفُتْ موسى عليه السلام، وقد ثبتتْ قدمه، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة، وأن يُجابهه واحدة بواحدة، فيقول: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فقد سبق أنْ قال فرعون: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١] فواحدة بواحدة، والبادي أظلم...، وكأن الله تعالى أطْلعَ موسى على مصير فرعون، وأنه هالكٌ عن قريب).(١)

وقد أكد هذا الظن بهلاك فرعون بـ(إن) المؤكدة، و(اللام)، وبالقسم، ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾، ويلاحظ أنه ناداه باسمه الصريح لأنه إذا كان فرعون قد استعلى بجبروته، فموسى قد أعلاه الله تعالى بمقام الرسالة، فحق له أن يخاطبه باسمه الصريح.

وقد استشكل أبو حيان الجمع بين هذه الآية وبين الأمر بلين القول، وحاول الإجابة عليه، فقال: (كان أولاً موسى عليه السلام يتوقع من فرعون أذى كما قال: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥] فأمر أن يقول له قولاً ليناً، فلما قال له الله: لا تخف وثق بحماية الله، فصال على فرعون صولة المحمي، وقابله من الكلام بما لم يكن ليقابله به قبل ذلك).(٢)

---

(١) تفسير الشعراوي: (١٤/ ٨٧٨٠).

(٢)البحر المحيط: (٦/ ٨٤).

والأظهر لي – كما سبق – أن موسى لما تبين له أن فرعون معاند مكابر، ويئس من رجوعه بإخبار الله له، أو بغالب ظنه –كما في الآية– أنه قابله عندها بالشدة والغلظة، وأن ذلك كان رداً على قول فرعون وغلظته معه، وأنه الأنسب بالمقام بعد تعداد الآيات، والظاهر أن ذلك بعد لقائه بالسحرة وإيمانهم به، فكانت من أبين الحجج على صدق موسى عليه السلام.

"وهكذا نفهم لين القول لا كما يفهمه بعض المهزومين أمام ضغط الجاهلية والعلمانية والطاغوت...فلا يجب أن نفهم من لين القول في بداية الدعوة والمواجهة أنّه لن تكون هناك مخاشنة إذا اقتضت الأمور، بل إنّ من الضعف أن نواجه صلف الطاغوت بلين نُخفي وراءه ضعف القدرة عن قول كلمة الحق!".[1]

ثانياً: اتهامه بالتكبر، والإعراض عن يوم الحساب:

ومن المواقف الغليظة أيضاً في جانب فرعون ما ذكره الله –جل وعلا– عن موسى في نقاشه مع فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٦ – ٢٧].

وعلى كلا القولين هل كان ذلك خطاباً مباشراً من موسى لفرعون، أم كان خطابا لقومه[2]؛ فإن موسى لما توعده فرعون بالقتل كان غليظا في رده

(١) شخصية فرعون في القرآن، قاسم توفيق: (٣٠٠).

(٢) ذهب الطبري وابن عطية والقرطبي إلى أن الخطاب كان مباشرا، وذهب ابن كثير، وابن عاشور، والآلوسي إلى إن خطاب فرعون وموسى كان لقومهما ولم يكن مباشراً بينهما، =

عليه، وبين ما به من الصفات المنحرفة من التكبر، والقسوة، والإعراض عن يوم القيامة.

قال لقومه مجيباً: ﴿ إِنِّي عُذْتُ ﴾ أي: بالله الذي هو ربي وربكم، ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ فذكره بوصفه لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وللإشارة إلى علة الاستعاذة، وهي التكبر، وليكون على طريقة التعريض ؛ فيكون أبلغ.

وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار، وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى شدة ظلمه، وقال: ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ عقّبه به لأن طبع المتكبر القاسي إبطال الحق، واحتقار الخلق، لكنه قد يتوب إذا كان مقراً خائفاً من الحساب، وأما إذا اجتمع التكبر، والتكذيب بالبعث كان أشد ظلما، فلا كبيرة إلا ارتكبها، فيكون بالاستعاذة أولى وأحق.

وافتتح الكلام بـ(إن) تأكيدا، وتنبيها على أن السبب في دفع الشر هو العياذ بالله تعالى، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وأضافه إليهم حثا لهم على موافقته في العياذ به سبحانه.(١)

وما ذكره الله -جل وعلا- عن قيل موسى هو صورة من صور الشدة

= وإنما سمعه موسى نقلا عن فرعون. ينظر: تفسير الطبري: (٢١/ ٣٧٥)، المحرر الوجيز: (٤/ ٦٢٢)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٣٠٥)، تفسير ابن كثير: (٧/ ١٣٩)، التحرير والتنوير: (٢٤/ ١٢٦)، روح المعاني: (٢٤/ ٦٣).

(١) الكشاف: (٤/ ١٦٦)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٧٣)، روح المعاني: (٢٤/ ٦٣)، روح البيان: (٨/ ١٣٢).

التي اقتضتها الحكمة الدعوية، فلما توعده فرعون بالقتل، واتهمه بما هو بريء منه بإظهار الفساد في الأرض، وهي تهمة لا يستحقها إلا فرعون – الذي قتل الأبناء واستحيى النساء حفاظا على ملكه–، أجابه موسى ببيان صفاته الحقيقية لقومه، وهي صفتا الكبر، والإعراض عن يوم الحساب، فكان جوابا شافيا من موسى أبان عن عزة اتصف بها موسى عليه السلام.

والذي يبدو أن موسى إنما قال ذلك بعد أن بلغ منزلة في قومه، وبعد أن تغلب على السحرة في نزاله، وأصبحت له مكانة تبوأها بين قومه، وإلا لم يجرؤ على هذه الكلمة العظيمة في حق الطاغية فرعون، وقد تبين لفرعون صدقه ونبوته، وبعد أن تبين له أيضاً عناد فرعون وكبريائه عن اتباع الحق.

قال الزمخشري: "والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ، وأن ما جاء به آيات، وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خَب وجَربَزة[١]، وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يَثُلُّ[٢] عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك".[٣]

ثالثاً: التهديد والتخويف في خطاب موسى لفرعون وقومه:

إن من الأساليب التي لم تفارق خطاب موسى مع فرعون، وقومه أسلوب التهديد والوعيد، وتذكيرهم بعقوبة الله لهم عند الإعراض عن الحق، وذلك ما يظهر عند لقائه بفرعون في بادئ أمره، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا

(١) الخَب: الخداع الخبيث، والجُرْبُز: هو الخَب. لسان العرب: (١/ ٣٤١).
(٢) يَثُلُّ: أي: يهدم ويزيل. لسان العرب: (١١/ ٨٩).
(٣) الكشاف: (٤/ ١٦٥).

قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٨].

وهو تعريض بإنذاره على التكذيب، والتولي قبل حصوله من فرعون ليكون البلاغ على أتم وجه.

إن موسى وهارون عليهما السلام لم يواجها فرعون بهذا القول باعتباره من كلامهما، وإنما هو وحي أوحى الله به إليهما، وهما مجرد ناقلان لهذا الوحي.

وقد أكد سبحانه الوحي، والوعيد بـ(قد)، و(أن)، وكان ذلك الترهيب والتأكيد له أثره في نفس فرعون فقد اتجه مباشرة إلى الاستفهام: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾.

وفيه من التلطيف في الوعيد حيث لم يصرحا بحلول العذاب به، وهذا فيه أيضاً ترغيب لفرعون بالإيمان، واتباعهما، وفي نفس الوقت تهديد، غير مباشر كي لا يثيرا كبرياءه، وخاصة في أول أمره: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨].(١)

"وهنا إشارتان: إحداهما: أن موسى عليه السلام كان ربه يكلمه ويوحي إليه، والثانية: أنهما ابتدءا الدعوة بالجزء المخوف منها، وهو العذاب لمن تولى، وأعرض، ونأى بجانبه عن الدعوة، وذلك لأن الجبابرة يرهبهم الأمر المغيب عنهم، ويفزعهم فيحاولون من بعد إرهابهم الاستماع إلى القول، وإن كانت عاقبة الاستماع في الاستجابة غير محققة، فالشر ينازع

(١) تفسير أبي السعود: (٦/ ١٩)، التحرير والتنوير: (١٦/ ١٢٧)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٣٧)، التفسير القرآني للقرآن: (٨/ ٧٩٧)، تفسير السعدي: (٥٠٦).

نفوسهم، ويقاوم الخير، فأيها غلب كانت العاقبة له".[١]

ومن مواقف التذكير، والوعظ، والتهديد بعقوبة الله، ما قاله موسى للسحرة عند لقائه بهم للنزال والمغالبة: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [طه: ٦١].

ففد ابتدأ موسى عليه السلام لقاء السحرة بإرهابهم بقوة الله تعالى وتهديدهم: (ويلكم)، وذلك لأنهم مستعبدون بقوة فرعون، فذكرهم أن قوة الله أعظم، فقال: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ فأوضح لهم قدرة الله تعالى، وأنها تبيد خضراء الظالمين، ليزيل برهبة الله تعالى رهبة فرعون الذي لا يملك شيئا، وإنما قوته تخيل، وهو في ذاته ضعيف كغيره من الناس.

ويجوز أن يكون الخطاب بقوله: (ويلكم): حقيقة الدعاء، فيكون غير جار على لين القول مع فرعون: إما لأن الخطاب بذلك لم يكن مواجها به فرعون مباشرة، بل واجه به السحرة خاصة، وإما لأنه لما رأى أن لين القول لهم غير مجدٍ، فلم يزل فرعون على تصميمه على الكفر، فأغلظ القول زجرا له بأمر خاص من الله في تلك الساعة تقييدا لمطلق الأمر بإلانة القول، وإما لأنه لما رأى تمويههم على الحاضرين فرأى واجبا عليه تغيير المنكر بلسانه بأقصى ما يستطيع، لأن ذلك التغيير والتهديد هو المناسب للمقام[٢].

وعلى كل الاحتمالات الثلاث في تعليل الشدة فإن الحكمة في ذلك الوقت

(١) زهرة التفاسير: (٩/ ٤٧٣٣).

(٢) التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٤٨)، زهرة التفاسير: (٩/ ٤٧٤٥).

تهديدهم ووعيدهم، والخروج من جانب اللين إلى جانب الشدة، وذلك لأن المقام مقام مواجهة ومفاصلة بين الحق والباطل، فقد ائتمروا على القضاء على موسى عليه السلام، وإبادته بهذا الباطل من السحر.

ثم أكد موسى وقوع الهلاك عليهم بقوله: ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ والإسحات: هو الاستئصال، وألا تبقى منهم باقية، ومع هذا الاستئصال: الخيبة، لأن الافتراء أشد الخيبة، ولا يلجأ إليه إلا المهزومون في ذات أنفسهم، وضعيفو الحجة الذين يخشون من عدم ظهور دليلهم وحجتهم.(١)

ولا شك أن بذل النصح والتخويف أسلوب له أثر، و"الكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها، ويبدو أن هذا الذي كان؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة، فتلجلج في الأمر؛ وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همساً خيفة أن يسمعهم موسى: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ طه: ٦٢]".(٢)

وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم ﴾ أي: حصل بينهم النزاع.

قال بعض المفسرين: لما سمعوا كلام موسى قالوا: ليس هذا بكلام ساحر، فحصل بينهم النزاع، والاختلاف، فقالوا: إن كان ساحرا غلبناه، وإن كان نبياً غلبنا.(٣)

---

(١) زهرة التفاسير: (٩/ ٤٧٤٤).

(٢) في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٤١).

(٣) ورد ذلك عن قتادة وغيره. ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٢١٥)، تفسير الخازن: =

فـأجمعوا أمـرهم عـلى قـولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ [طه: ٦٣].

وقد حذرهم موسى في هذه الموعظة أمرين:

الأول: عـذاب الـدنيا والآخـرة، واستئـصال الله لهـم، وإهلاكهـم في قولـه: ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾، والتنـوين، والتنكـير في: (عـذاب) للتعظـيم، والتهويل.

الثاني: الخيبة، والحرمان عن المراد فإن الافتراء زائل لا محالة، فلا يظفر بالنصر، ولا يفوز بالبغية من افترى على الله الكذب، وهـو دليـل عـلى عظـم افتراء الكذب على الله.(١)

رابعاً: الدعاء على فرعون وملئه بالهلاك:

ولما رأى موسى مدى الإعراض الذي اتصف به فرعـون، مـع عظـيم الآيات التي جاء بها اتجه إلى ربه يدعو على فرعون، وملئـه، الـذين يملكـون المال والزينة، الذي تضعف تجاههما قلوب الكثيرين من الأتباع، فتنتهي إلى السقوط أمام الجاه والمال، وإلى الرضا بمنهج الضلال رغبة في المال لا قناعة بهذا المنهج، اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال، وأن يشدد على قلوب أهلها لتزول فتنتهم بهذا المال عن الناس.

قـــال تعـــالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً

= (٤/ ٢٧٣)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٦٦).

(١) ينظر: تفسير الرازي: (٢٢/ ٦٤)، تفسير النيسابوري: (٥/ ٣٠٢)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٧).

وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨]

ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهل، وكثرة المال تمكنهم من الناس، وتخضعهم لكفرهم، فقد عد موسى عليه السلام إمداد فرعون بالنعمة مغريا له بالازدياد في الإعراض عن الدين؛ فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم، بوسائل التشديد عليهم، وهذا المعنى يدل عليه قراءة: ﴿ رَبَّنَا لِيَضلوا عَن سَبِيلِكَ ﴾(١)، أي: يكون المال سبباً في ضلالهم بأنفسهم.

لقد كان المال بيد فرعون ليس سبباً في ضلاله فقط، بل كان وسيلة أيضاً لإضلال الناس عن سبيل الله، وهو ما يدل عليه القراءة الأخرى: ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾، وهذا الإضلال إما أن يكون بالإغراء بالمال وشراء الذمم، وإمّا بالقوة التي يعطيها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين، أو إغوائهم.

ولا ريب أن وجود النعمة في أيدي المفسدين يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أنّ هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنّها كذلك ليست شيئا ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة.(٢)

---

(١) قرأ عاصم وحمزة الكسائي بضم الياء على المعنى المتعدي في الإضلال، وقرأ الباقون بفتحها على المعنى اللازم في الضلال. ينظر: السبعة، لابن مجاهد: (٢٦٧)، النشر، لابن الجزري: (٢/ ٢٦٢).

(٢) الكشاف: (٢/ ٣٤٧)، البحر المحيط: (٥/ ١٨٥)، في ظلال القرآن: (٣/ ١٨١٦)، شخصية فرعون في القرآن: (٢٢٨)، تفسير المنار: (١١/ ٣٨٦).

ومهد موسى لدعائه تمهيدا بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ دلالة على أن ما سأله من الله إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه نفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه، وحلول العذاب بهم لتذليل تكبرهم، ليرجعوا عن ضلالهم، ويسهل قبولهم الإيمان.(١)

ويظهر في الدعاء مدى التذلل والخضوع الذي أظهره موسى عليه السلام بين يدي ربه، بتكرار لفظ الرب -جل وعلا-، وبيان مدى الإفساد الذي أوقعه فرعون في الأرض بهذه الأموال، فقد أضل كثيرا من الناس، ونشأت أجيال على عبودية فرعون، والذل له بسبب هذا الطغيان والتكبر.

فجاء الجواب من الله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩]، وافتتاح الجملة بـ(قَدْ)، والفعل الماضي يفيد تحقق الحصول في المستقبل، فشُبه بالأمر الماضي الواقع لا محالة، ومعنى إجابة الدعوة: إعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوما.(٢)

---

(١) التحرير والتنوير: (١١/ ١٦٣)، وينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٩١)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٧٢).

(٢) أثر محمد بن علي أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: (٨/ ٨٦)، وأثر ابن جريج أخرجه =

قال الزمخشري: (﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾: فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجّة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلاّ قليلاً ولا تستعجلا... ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾).(1)

وهذه فيما يبدو هي المرحلة الأخيرة من دعوة موسى مع فرعون كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان: ٢٢ – ٢٤] حيث لجأ إلى الله –جل وعلا– في القضاء على فرعون وملئه، وإهلاكهم، وذلك بعد اتخاذه سائر سبل الدعوة إلى الله عز وجل في هدايتهم، فلم يأل جهداً في إقامة الحجج، والبراهين، والأدلة عليهم في إثبات ألوهية الله، وبطلان زعم فرعون في الألوهية والربوبية، باللين والملاطفة ابتداءً، وبالحوار والجدال، وإقامة الأدلة البينة الواضحة تارة أخرى، وتخلل هذين الشدة والغلظة في بعض الأحيان، وذكرهم بعقوبة الله –جل وعلا– بالأمم السابقة، والتهديد والوعيد بالآخرة، فلما شعر بعنادهم وكبريائهم ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤]، وظهر له مدى ضررهم على الناس في دينهم وعقيدتهم وصدهم عن سبيل الله، واستخدامهم لنعمة الله من المال والمنصب في إضلال الناس عندها دعا الله –جل وعلا– بإهلاكهم واستئصالهم.

وهذه المراحل في الدعوة، والتدرج تدل على مدى حرص الأنبياء

= الطبري: (١٥/ ١٨٧)، وينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٩١).

(١) الكشاف: (٢/ ٢٤٨)، وينظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ١٧٢).

عليهم السلام في هداية أقوامهم، وأنهم يسيرون على منهج رباني، وأن الله جل وعلا لا يعذب قوما أو يهلكهم إلا بعد أن يعذروا من أنفسهم مهما بلغوا الغاية من الطغيان والكبرياء: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد:

فبعد هذا العرض المختصر لهذا البحث الموضوعي "التدرج في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن الكريم: خطاب موسى مع فرعون أنموذجاً".

فيمكن في الخاتمة إبراز هذه الجوانب فيما يتعلق بالبحث:

أولاً: الحاجة الكبيرة لدى الداعية إلى الله عز وجل في دراسة طرق الأنبياء مع أقوامهم، والنظر في كلام المفسرين للوصول إلى الأصول المرعية في هذا الباب العظيم.

ثانيا: التدرج في الدعوة إلى الله من الأصول الظاهرة في دعوة الأنبياء، وخطاباتهم مع أممهم، وذلك بحسب حال المدعو ومنزلته ومكانته.

ثالثاً: وجوب انطلاق الداعية إلى الله عز وجل في تأصيله الدعوي من خلال القرآن الكريم والسنة، وتطبيقات الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: التدرج في الدعوة إلى الله عز وجل، يكون بحسب حال المدعو، وقربه من الحق وبعده، مع مراعاة حاله، ومنزلته، ومكانته.

خامساً: إن من أهم أسباب الانحراف الكبير في بعض المناهج الدعوية البعد عن تدبر الكتاب والسنة، والنظر في طرق الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى الله.

سادساً: إن النظر في حوارات الأنبياء مع أقوامهم، مع التأمل في كلام

المفسرين يثري الداعية إلى الله في حوار المدعو، وتعليمه فقه الدعوة إلى الله، وهذا ظاهر في حوار موسى عليه السلام مع فرعون، وإبراهيم مع والده.

ومن أهم التوصيات:

ونظراً لتشعب الموضوع فإني أوصي بما يلي:

أولا: ضرورة النظر في كلام الله عز وجل وكلام المفسرين حول طرق الأنبياء وخطاباتهم، وحواراتهم في الدعوة إلى الله عز وجل، ومن هؤلاء الأنبياء:

١- إبراهيم عليه السلام مع قومه، ووالده، والنمروذ.

٢- خطاب موسى عليه السلام مع قومه بني إسرائيل.

٣- خطاب شعيب مع قومه، وغيره من الأنبياء..

ثانيا: العمل على إقامة الحلقات القرآنية التي تُعنى بتدبر كتاب الله عز وجل، تأصيلا للدعوة إلى الله من خلال طرق الأنبياء في الدعوة.

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يعفو عن الزلل والخطل، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

- إحياء علوم الدين - محمد بن محمد الغزالي أبو حامد- دار المعرفة- بيروت، الطبعة الأولى.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى.
- الاستقامة- المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية-جامعة الإمام محمد ابن سعود - الطبعة الأولى، ١٤٠٣- تحقيق: د. محمد رشاد سالم.
- أصول الدعوة- الدكتور عبد الكريم زيدان- بغداد، الطبعة الخامسة.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين بن محمد المختار ابن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت – لبنان. ط. ١٤١٥ هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبدالله الشيرازي البيضاوي، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية.
- البحر المحيط ـ المؤلف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، الطبعة : الأولى.
- بدائع التفسير - شمس الدين بن قيم الجوزية - دار ابن الجوزي - الدمام - الطبعة الأولى، ١٤١٤.
- بدائع الفوائد- المؤلف : شمس الدين بن قيم الجوزية - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة-الطبعة الأولى، ١٤١٦ – ١٩٩٦-تحقيق :

هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي.
- تاريخ الفقه الإسلامي: عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، القاهرة، ط: الأولى.
- التبيان في أقسام القرآن، شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط.١٤١٥هـ.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور- الناشر : الدار التونسية للنشر –تونس–سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
- التدرج في دعوة النبي- المؤلف : إبراهيم بن عبد الله المطلق- الطبعة : الأولى- الناشر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - تاريخ النشر : ١٤١٧هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:١٤٠٢هـ.
- تفسير الشعراوي - محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم - القاهرة، بدون ذكر سنة النشر.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر : ١٩٩٠ م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار الباز، ط: الثانية، ١٤٢٧هـ.
- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، بدون سنة نشر.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان-المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق -الناشر : مؤسسة الرسالة-الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي - أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي- دار النشر : دار صادر ـ بيروت.
- الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد وهف القحطاني، الطبعة : الأولى، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط: ١٤٢٣هـ.
- الخلاصة في الدعوة، علي الشحود، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م،- دار المعمور.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الأولى.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - المؤلف:شهاب الدين محمود الألوسي - دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط. ١٤٢٠

- زاد الداعية إلى الله، الشيخ محمد بن عثيمين، مدار الوطن، الرياض، ١٤١٩.
- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: ١٤٠٨هـ.
- السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق : د.شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ.
- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٩٩٠.
- الصواعق المرسلة، شمس الدين بن القيم الجوزية، دار العاصمة – الرياض، تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ – ١٩٩٨.
- عمدة القاري شرح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، دار إحياء التراث، بيروت.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان-المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري -دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة : الأولى- تحقيق : الشيخ زكريا عميران.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، الناشر : دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، المكتبة العصرية، ط:١٤١٧هـ.
- فقه التدرج في التشريع فهما وتطبيقا، معاوية سيد، مرقوم على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).
- فقه الدعوة في صحيح البخاري، سعيد بن وهف القحطاني، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ، الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- فقه الواقع، د.ناصر العمر، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية.
- فقه الواقع، الشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- في ظلال القرآن- المؤلف : سيد قطب- دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت- تحقيق : عبد الرزاق المهدي.
- اللباب في علوم الكتاب، عمر بن عادل الحنبلي، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، الناشر : دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.
- محاسن التأويل، محمد بن جمال القاسمي، دار الكتب العلمية، ط:

الأولى، ١٤١٨هـ.

- المحرر الوجيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، الطبعة : الأولى
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي، ط: دار النفائس، بيروت، تحقيق: مروان الشعار، الطبعة الأولى.
- مراعاة أحوال المخاطبين، فضل إلهي ظهير، إدارة ترجمان الإسلام، باكستان.
- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، المؤلف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، الطبعة الأولى.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى،١٤٢١هـ،٢٠٠٠ م.

- مفردات القرآن، الحسين بن محمد الأصفهاني، دار العلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبع: ١٤١٢ هـ.
- منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر -تأليف عدنان بن محمد آل عرعور-الطبعة الأولى-١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، الطبعة الثانية.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، دار مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

جزءٌ فيه

معرفةُ مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها

لأبي الحسن عليّ بن خلف بن بلِّيمة

(٤٢٧-٥١٤هـ)

دراسة وتحقيق

إعداد

د.السالم محمد محمود الشنقيطي

د. السالم محمد محمود الشنقيطي

- أستاذ القراءات المشارك بكلية الآداب جامعة طيبة بالمدينة المنورة.
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأطروحته: منهج ابن الجزري في كتابه النشر مع تحقيق قسم الأصول، وهو من أول الكتاب إلى آخر باب : بيان إفراد القراءات وجمعها.
- حصل على درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بأطروحته : التتمة في القراءات الثلاث المتمة للعشر ، تأليف الإمام صدقة بن سلامة بن حسين المسحرائي (ت ٨٢٥هـ) تحقيق ودراسة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا البحث (دراسة وتحقيق) رسالةٍ صغيرة الحجم، كثيرة العلم، كتبها إمامٌ من كبار علماء القراءات ، ألا وهو الإمام المقرئ أبو عليّ الحسن ابن خلف القرويّ ؛ المشهور عند أهل القراءات بابن بلِّيمة (٤٢٧-٥١٤هـ) رحمه الله تعالى.

جاء على غلافها : (**جزءٌ فيه معرفةُ مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها**) وفي بدايتها : " **باب معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها** " قد وصلتنا بحمد الله تعالى مروية مقروءة على المؤلف من قِبَل أحد تلاميذه، وهو أيضاً إمامٌ كبيرٌ في القراءات له مكانته ؛ هو الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن خلف الله القرشي الإسكندري (ت ٥٧٢هـ) ورواها عنه تلميذه الشيخ الإمام المقرئ جعفر بن علي الهمداني (ت ٦٣٦هـ) عن تسعين سنة ، ورواها عنه الشيخ أبو محمد عبد المحسن بن مصطفى بن مصطفي بن أبي الفتوح ، تلميذ الإمام الصفراوي رحمهم الله جميعاً .

وقد قمت بتحقيق هذا (الجزء) للأسباب التالية:

١- مكانة المؤلف العلمية في علم القراءات.

٢- أن هذا الجزء هو ثاني مؤلَّف يصلنا لابن بلّيمة .

٣- عدمُ معرفة كثير من أهل القراءات أن لابن بلّيمة تأليفاً غير التلخيص .

٤- أهمية الموضوع الذي تعرّض له هذا الجزء وهو موضوع (**مخارج الحروف وصفاتها**) وما له من أهمية قُصوى في علم الأداء القرآني.

هذا، وقد تكوّن البحث من مقدمة ، وتمهيدٍ ، وقسمين ، وخاتمة ، وفهارس عامة ، فذكرت في المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ، وخطة البحث ، ومنهج التحقيق فيه ، وذكرت في التمهيد اهتمامَ العلماء بمخارج الحروف وصفاتها ، والمؤلفاتِ فيها باختصار ، وجعلتُ القسمَ الأول دراسة للمؤلف وكتابه ، والقسمَ الثاني للنص المحقق ، ثمَّ الخاتمة ، فالفهارس ، ثم ختمت ذلك بملحوظات على الرسالة ، راجياً من الله تعالى التوفيق والسداد .

هذا ، وقد جاءت خطة البحث كالتالي :

خطة البحث

القسم الأول : دراسة المؤلف ورسالته وفيه مبحثان :

المبحث الأول : دراسة المؤلف ، وفيه ستة مطالب :

المطلب الأول : اسمه وكنيته ولقبه ومولده ونشأته

المطلب الثاني : تلقيه العلم ، وشيوخه

المطلب الثالث: تلاميذه

المطلب الرابع : رحلاته

المطلب الخامس : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

المطلب السادس : مؤلفاته

المطلب السابع : وفاته

المبحث الثاني : دراسة الرسالة وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : المطلب الأول :نسبة الكتاب لمؤلفه

المطلب الثاني : منهج المؤلِّف في رسالته

المطلب الثالث : الملحوظات على الكتاب

المطلب الرابع : وصف النسخة الخطية

القسم الثاني : النصُّ المحقَّق

منهج التحقيق

بعد نسخ المخطوط سلكتُ – في تحقيق نصّه – قدر المستطاع المنهج المتبع عند المحققين ، في نشر نصوص التراث ، وذلك وفق الخطوات التالية:

١- توثيق المعلومات المهمة ، وذلك بالرجوع إلى الكتب المعتمدة في ذلك، ككتب القراءات ، والتجويد ، واللغة ، وغيرها .

٢- ضبط ما يستحق الضبط .

٣- شرح بعض المصطلحات التي ذكرها المؤلف .

٤- حاولت – قدر الإمكان – ذكر ما خالف فيه المؤلف بعض من سبقه في بعض المسائل .

٥- لّمالم يلتزم الإمام ابن بليمة بمنهجيةِ تحقيق الأقوال والآراء في المسائل المختلف فيها كالخلاف في عدد المخارج ، أو الاختلاف في مراتب

التفخيم والتفشي وغير ذلك ، لكون غرضه هو الإشارة وليس تطويل العبارة ، وأنه يريد الاختصار لا التعمق في البحث ؛ فقد اتبعته في تحقيقي لرسالته ، فلم أتخم الحواشي بالتعليقات والتحقيقات في كل جزئية فيها كلام للعلماء ، لأني رأيت أن ذلك يخرج عملي من وصف " المحقِّق " إلى صفة " الشارح " وشتان ما هما .

والله الموفق .

التمهيد

اهتمام العلماء بمخارج الحروف وصفاتها والمؤلفات فيها باختصار :

اهتم العلماء المؤلفون في القراءات بمخارج الحروف وصفاتها ، وذلك لما لها من مكانة مهمة ينبني عليها إتقان التالي لكتاب الله تعالى تلاوة صحيحة وقراءة سليمة ، غير مشوبة باللحن والخطأ .

ومعرفة مخارج الحروف وصفاتها هي " قطب التجويد ، ملاك التحقيق ، وبها ينفصل بعضها من بعض وإن اشتركا في المخرج " .[1]

وتظهر عناية العلماء بهذا الجانب المتعلق بتجويد كلام الله تعالى في كثرة كتاباتهم فيه ، سواء أكانت ضمن كتبهم المتعلقة بالقراءة ، كما في كتاب " النشر في القراءات العشر " للإمام ابن الجزري ، أم من خلال إفرادهم له بمؤلفات خاصة ، كما في كتاب " مخارج الحروف وصفاتها " للإمام أبي الإصبغ الإشبيلي .

وأذكر هنا بعض هذه المؤلفات المفردة للدلالة على ذلك :

- ذكر مخارج الحروف وصفاتها التي يحتاج إليها القارئ، لنور الدين أبي الحسن علي بن ظهير بن شهاب المصري المعروف بابن الكفتي (ت٦٨٩هـ)، مجموعة عارف حكمت (١٤٣/ ٨٠/ ٢).
- رسالة في مخارج الحروف، عبد العزيز بن أحمد سعيد الدريني، (ت٦٩٤هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، (١/ ٢١) مجاميع

(١) التحديد في الإتقان والتجويد للإمام الداني : ١٠٢ .

(١٤٥)، دار الكتب القطرية، الدوحة، التجويد والقراءات(٢٥٧).

- رسالة في مخارج الحروف، عبد العزيز بن علي بن محمد السماني، (٥٦٠هـ)، مكتبة المخطوطات، الكويت، (١٠٤٢)، عن الظاهرية: (٦٦/ ٣٨٠٢)، مكتبة المخطوطات، الكويت، (٤١٩) مج(٣) عن الظاهرية (٦٦/ ٣٨٠٢).
- مخارج الحروف، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، (٥٩٧هـ)، مكتبة المخطوطاتـ الكويت، (١٦٥٧) عن الظاهرية (٤٤٢٥).
- كتاب في تجويد القراءة ومخارج الحروف لأبي إسحاق إبراهيم بن وثيق الإشبيلي (٦٥٤هـ)، طبع بتحقيق الدكتور أبي السعود أحمد الفخراني، مطبعة الأمانة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

والله أعلم.

القسم الأول:

دراسة المؤلف ورسالته

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : دراسة المؤلف.

المبحث الثاني : دراسة الرسالة.

المبحث الأول: دراسة المؤلف

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول :اسمه وكنيته ولقبه:

هو: الحسن بن خلف بن عبد الله بن بَلِّيمة[1] ، أبو علي ، الهواري[2] ، القروي ، المليلي[3] القيرواني الإسكندري.

مولده:

ولد سنة (٤٢٧هـ)، وقيل: سنة (٤٢٨هـ)[4] .

أما نشأته :

فلم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا بذكر شيء من تفصيل ذلك ، ولكن يظهر أنها كانت في طلب العلم وخاصة علم القراءات ، حيث بلغ فيها المرتبة العليا ، قراءة وإقراءً ، تلاميذ وشيوخاً .

المطلب الثاني : تلقيه العلم ، وشيوخه:

تتلمذ الإمام ابن بَلِّيمة-رحمه الله-على كثيرٍ من علماء عصره من أهل القراءات سواء في بلده القيروان أو في المدن التي رحل إليها، وقد تتبع

(١) كذا ضبطها ابن الجزري في غاية النهاية: ١/ ٢١١.

(٢) نسبةً إلى هوَّارة: قبيلةٌ كبيرةٌ بالمغرب، يرجع نسبها إلى حمير الأكبر، وألَّف الزبيدي رسالة بعنوان: (رفع الستارة عن نسب هوَّارة). والله تعالى أعلم. انظر: تاج العروس: (هور)، وتصحف في غاية النهاية: (١/ ٢١١) إلى "الهوازي" بالزاي.

(٣) موضع بالمغرب قرب سبتة.

(٤) انظر : معرفة القراء الكبار: ٢/ ٩٠٢، غاية النهاية: ١/ ٢١١.

الباحثُ الشيخُ سُبَيع حمزة حاكمي محقّق كتابه «التلخيص» ذكرَ شيوخه، وأكتفي هنا بذكر أشهرهم عند أهل القراءات ؛ وهم:

١ - أبو معشر الطبري: عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن علي، شيخ أهل مكة، وصاحب كتاب «التلخيص في القراءات الثمان»، و«سوق العروس»، و«الدرر في التفسير» وغيرها من المؤلفات المفيدة، توفي -رحمه الله- سنة: (٤٧٨هـ)[١].

٢ - ابن نفيس: أحمد بن سعيد بن أحمد[٢] بن عبد الله، أبو العباس، الطرابلسي الأصل ثم المصري، إمامٌ كبيرٌ، انتهى إليه علوّ الإسناد، عُمِّر حتى قارب المائة، توفي سنة: (٤٥٣هـ)، قرأ على ابن غلبون[٣]، وأبي أحمد عبد الله بن الحسين السامري[٤]، وقرأ عليه أبو معشر الطبري[٥]، والهذلي وغيرهما[٦].

---

(١) انظر: معرفة القراء الكبار: ٢/ ٨٢٧، غاية النهاية: ١/ ٤٠١.

(٢) كذا كرر "أحمد" عند ابن الجزري في غاية النهاية: ١/ ٥٦.

(٣) عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون الأب، صاحب كتاب: (الإرشاد في السبع) (٣٠٩-٣٨٩هـ). انظر: معرفة القراء الكبار: ٢/ ٦٧٧، غاية النهاية: ١/ ٤٧٠.

(٤) مسند القراء في زمانه، (٢٩٥-٣٨٦هـ)، من كبار علماء القراءات ورواتهم. انظر: معرفة القراء الكبار: ٢/ ٦٣٤، غاية النهاية: ١/ ٤١٥-٤١٧.

(٥) وبهذا يكون ابن بليمة قد ساوى شيخه أبا معشر في سند هذا الشيخ.

(٦) ترجمة ابن نفيس في: معرفة القراء الكبار: ٢/ ٧٩٤، غاية النهاية: ١/ ٥٦-٥٧.

المطلب الثالث : تلاميذه:

الإمام ابن بلّيمة ، رحمه الله ، من كبار علماء القراءات في عصره ، ومن المحققين فيها ، رواية ودراية ، وقد سجلت الكتب التي ترجمت بعض تلاميذه ، أكتفي بذكر اثنين منهم:

١- أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئة، اللخمي، الفاسي، ثم المصري، إمامٌ صالحٌ، من فضائله-رحمه الله-أنَّه لَّما عيِّن لقضاء مصر سنة: (٥٣٣هـ) أيَّام العبيديين اشترط عليهم ألا يقضي بمذهب الشيعة، فلم يُمكِّنوه، فما قبل منهم القضاء، قرأ على ابن بَلِّيمة وغيره من علماء القراءات، توفي سنة: (٥٦٠هـ)[١].

٢- عبد الرحمن بن خلف الله بن محمد بن عطية، أبو القاسم القرشي، الإسكندري، المالكي المؤدب، شيخ مقرئ صالحٌ ثقةٌ، قرأ عليه الصفراوي[٢] وجعفر الهمذاني[٣]، وتوفي سنة: (٥٧٢هـ)[٤].

وهذا الشيخ هو الذي وصلتنا نسخة من (التلخيص) و(مخارج الحروف وأجناسها) مسندة عنه بقراءته على المؤلف ابن بلِّيمة.

---

(١) انظر: معرفة القراء الكبار: ٢/ ١٠٠٣، غاية النهاية: ١/ ٧١-٧٢.

(٢) عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل، الأستاذ المقرئ صاحب كتاب "الإعلان"، مفتي على مذهب الإمام مالك، توفي سنة: ٦٣٦هـ. غاية النهاية: ١/ ٣٧٣.

(٣) جعفر بن علي بن هبة الله، مقرئ محدّثٌ، وهو الراوي للتلخيص وجزء مخارج الحروف هذا عن شيخه عن المؤلف، توفي سنة: ٧٣٠هـ. غاية النهاية: ١/ ٣٩٣.

(٤) انظر: معرفة القراء الكبار: ٢/ ١٠٣٤، غاية النهاية: ١/ ٣٦٧-٣٦٨.

المطلب الرابع : رحلاته:

بالرجوع إلى مصادر ترجمته-رحمه الله-وجدت له رحلاتٍ إلى كلٍّ من:

١- مكة المكرمة: وفيها قرأ على شيخها وإمامها أبي معشر الطبري-رحمه الله-[١].

٢- الإسكندرية بمصر[٢].

المطلب الخامس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

أستطيع القول بأن الإمام ابن بلّيمة رحمه الله أعطاه الله تعالى مكانة عالية بين علماء القراءات ، سواء في عصره أو في العصور بعده ، ودليل هذا القول عندي هو المكانة التي عُرف واشتهر بها ، حتى عُدّ من الأئمة المحققين الذين اعتمد عليهم وعلى بعض تحقيقاتهم وآرائهم كبار علماء القراءات بعدهم[٣].

وقد أثنى كل من ترجم له أو ذكره ، على علمه ، وفضله ، فهو " المقرئ" ، و"الشيخ " و" الأستاذ "، وهي كلها ألقاب لم تكن تعطى في تلك الأزمان لكل من هبّ ، ودبّ ، بل لا ينالها إلا من يستحقها ، وشهد العلماء المحققون له باستحقاقه ذلك .

(١) غاية النهاية: ١/ ٢١١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) - كاعتماد الإمام ابن الجزري في كتابه النشر على ابن بليمة وكتابه التلخيص .

المطلب السادس : مؤلفاته :

لم أجد من ذكر لـه مؤلفـاتٍ غـيرَ كتابـه المشهور " تلخيص العبـارات بلطيف الإشارات في القراءات الـسبع "[1] ، وغـيرَ هـذه الرسـالة التـي نحن بصدد تحقيقها .

المطلب السابع : وفاته

تـوفي -رحمـه الله- بالإسـكندرية ثالـث عـشر رجـب سـنة أربـع عـشرة وخمسمائة[2] .

(١) مطبـوع محقـق بعنايـة : سُبَيع حمـزة حـاكمي ، ثـم حقـق مـؤخرا جـزء منه بحثـاً تكميليـاً للماجستير في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعناية الباحـث: عبـد الرحمن الزايدي .

(٢) انظر : غاية النهاية: ١/ ٢١١.

المبحث الثاني : دراسة الرسالة

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : عنوان الرسالة ونسبتها لمؤلفها :

عنوان الرسالة :

لم تذكر كتب التراجم أو الفهارس التي رجعتُ إليها أي تأليف للإمام ابن بلّيمة رحمه الله غير كتابه " تلخيص العبارات " ، الذي وصلتنا منه نسختان خطيتان ، جاءت هذه الرسالة – ولله الحمد والمنة – في نفس المجموع مع إحداهما ، حيث جاء في ورقة العنوان:

(جزءٌ فيه معرفةُ مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها).

تصنيف الشيخ الإمام العالم المقرئ أبي عليّ الحسن بن خلف
عرف بابن بلِّيمة

وهو ما اخترته ليكون عنوان هذا البحث.

مع **ملاحظة** أن الكنية والاسم كتبا هكذا (أبي الحسن عليّ) لكن وضع فوق كلمتي (الحسن) و (عليّ) حرف الميم هكذا (مـ) دلالة على التقديم والتأخير ، لذا كتبته هنا على الصواب .

وهذا أيضاً قد وقع مرتين في المتن المحقق ، وهو يدل دلالة واضحة على أن هذا الجزء قد قوبل ، والله أعلم .

أما ورقة بداية المخطوط فقد جاء العنوان فيها بكلمة " باب " بدل كلمة " جزء " هكذا:

" باب معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها"

وأما نسبة الرسالة لمؤلفها :

ذكرت قبل قليل أن هذا الجزء المحقق لم أجد له غير نسخةٍ فريدةٍ ملحقةٍ بإحدى النسختين الخطيتين اللتين وصلتنا من كتاب (تلخيص العبارات) للمؤلف نفسه ، وهذا يجعلني أقول إنَّنا بين أحد أمرين:

الأوَّل: إمَّا أنَّ هذا الجزء هو تتمة لكتاب التخليص، وعليه تكون إحدى النسختين غير كاملة.

الثاني: وإمَّا أنَّه مؤلَّف مفردٌ ومستقلٌّ، وعليه فيضاف إلى مؤلفات ابن بليمة، ويكون كشفاً جديداً في هذا، حيث لم أجد عند أي أحدٍ ممن ترجم له ذكراً لهذا المؤلف.

والذي يظهر – والله أعلم – أنّ الجزء المحقق ألحقه مؤلفه بالكتاب ليكون تتمة وتكملة له، بدليل قوله في بدايته: (باب معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها) فكلمة (باب) لها دلالة على أنَّها ضمن مؤلَّف، وليست تأليفاً مستقلاً، والله أعلم.

المطلب الثاني : مصادر المؤلف في رسالته :

لم يصرح المؤلف رحمه الله في هذه الرسالة باسم أي كتاب أو مصدر ؛ غير ثلاثة أسماء أئمة من كبار علماء هذا الفن ، أعني مخارج الحروف وصفاتها ، وهم حسب ترتيب ذكره لهم كالتالي :

١- محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، المبرِّد ، شيخ أهل العربية والنحو إليه انتهى علمهما ، كان إماماً فصيحاً ، ألّف "المقتضب" ، و"الكامل" توفي رحمه الله سنة: (٢٨٥هـ)[١].

نقل عنه المؤلف مرة واحدة وهي حكايته اللقلقة في اللام ، حيث قال : وفي القاف لقلقة[٢] حكاه المبرد مع صلابة الصوت[٣]"اهـ

٢- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، إمام النحو ، وحجة العرب، وصاحب " الكتاب " ، أخذ النحو عن الأخفش وغيره، توفي سنة: (١٨٠هـ)[٤].

نقل عنه المؤلف مرة واحدة أثناء كلامه على صفة الراء ، وذلك قوله :

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٥٧٦-٥٧٧ ، نزهة الألباء: (ص١٦٤).

(٢) كذا في المخطوط: (وفي القاف لقلقة) ولعل صواب العبارة: (وفي الكاف) بدل (القاف)؛ لأنَّ القاف مجمع على قلقلته، والكاف هو الذي ذكره المبرد ضمن حروفها. والله أعلم. ويقال: قلقلة ولقلقة. انظر: المقتضب: (١/ ١٩٦)، الموضح للقرطبي: (ص٩٣)، الجامع المفيد: (٤٠٣، ٤٠٦).

(٣) انظر ص: ٢٣ من هذا البحث .

(٤) انظر ترجمته في : أخبار النحويين البصريين: ص٣٨ ، سير أعلام النبلاء : ٨/ ٣٥١.

" وفي الراء: تكرير حكاه سيبويه[1] " اهـ

٣- الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن الفراهيدي، إمام اللغة والعروض المشهور، روى عن عاصم وابن كثير، توفي سنة: (١٧٧هـ). [2]

صرّح به المؤلف مرة واحدة ، وذلك قوله : " قال الخليل رحمه الله : "خلق الله سبحانه وتعالى الألف وجعلها ساكنة لا تتحرك، ولو تحرّكت لانقلبت همزة فيسلب طبعها"[3] اهـ.

المطلب الثالث : منهج المؤلِّف في رسالته:

هذا الجزء المحقق هو «باب في معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها»، وهو ما يرجّح كونه امتداداً لكتاب «التلخيص» للمؤلف كما ذكر سابقا.

وهذا الباب المذكور قسَّمه المؤلف-رحمه الله-إلى تسعة فصول، متفاوتة في الطول والقِصَر؛ فبعضها يأخذ نصف ورقة، وبعضها لا يصل إلى ستة أسطرٍ، بل لم يتخط بعضها سطرين ونصف السطر، وهي كالتالي:

الفصل الأوَّل: ذكر فيه عدد المخارج وتعريف المخرج، وكيفية النطق بالحرف ساكناً.

الفصل الثاني: مخرج الحلق.

---

(١) انظر ص : ٢٣ من هذا البحث.

(٢) انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٤٢٩ ، غاية النهاية: (١/ ٢٧٥).

(٣) انظر ص : ٢٧ من هذا البحث.

الفصل الثالث: مخرج الشفتين والخيشوم وحروفها.

الفصل الرابع: حروف اللسان والمخارج فيه.

الفصل الخامس: أجراس الحروف (أصواتها).

الفصل السادس: أجناس الحروف (صفات خروجها).

الفصل السابع: صور كتابة الحروف.

الفصل الثامن: تعاقب صور بعض الحروف.

الفصل التاسع: دخول همزة الوصل على الحروف.

هذه هي المسائل التي جعل المؤلف كلمة (فصل) عند الحديث عنها، وهي كما نلاحظ فيها ما ليس له علاقة بالمخارج والصفات؛ كالفصل السابع والثامن فهما من باب الضبط والهجاء والكتابة وليس من باب صفة المخرج التي تحدث عنها في هذا الباب من أحكام التجويد.

المطلب الرابع : الملحوظات على الكتاب :

هذه ملحوظات ونقاط رأيت تسجيلها :

١ - اعتماد المؤلف في تقريره لبعض المسائل والأحكام على الأئمة الكبار المحققين في هذا الشأن كالخليل بن أحمد وسيبويه والمبرد.

٢ - اتبع رأي سيبويه -رحمه الله- في عدد المخارج فجعلها (١٦) مخرجاً.

٣- توافقه في كثيرٍ من النصوص مع ما كتبه الإمام الداني في «التحديد» والإمام عبد الوهاب القرطبي في «الموضح» توافقاً يكاد يكون حرفياً خاصة مع الأخير، مما قد يدل على أنَّ هذين الكتابين كانا من

مصادره التي رجع إليها. والله أعلم.

٤- لم تكن له منهجية في ترتيب المخارج فلم يتبع ترتيب سيبويه كما يفعله كثيرٌ ممن كتب في المخارج، وكذا لم يتبع غيره.

٥- ذكره مسائل لا علاقة لها بالمخارج والصفات كمسألتي : "صور كتابة الحروف"و" تعاقب صور بعض الحروف" .

المطلب الخامس : وصف النسخة الخطية:

هذا الباب المحقق جاء – كما سبق – ملحقاً بالنسخة الخطية من كتاب (تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع) لابن بليمة، وهي نسخة مكتبة الشيخ إبراهيم شحاتة السمنودي –رحمه الله – ، ولم يشر محقق الكتاب إلى وجود هذا الجزء الملحق ألبتة، فلعله لم يطلع عليه في مصوّرته .

والباب في ثلاث ورقات، ورقة العنوان، ثمَّ ورقتان، كل ورقة فيها وجهان ، وكل وجه فيه (١٩) سطراً، وكل سطر فيه (٩-١٠) كلمات، وجاء في ورقة العنوان:

(جزءٌ فيه معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها)

أبو الحسن علي(كذا) بن خلف بن بلِّيمة

قوبلت بنسخة عليها خط المؤلف، وسمعت على شيخنا الشيخ الإمام أبي الفضل بن جعفر بن أبي الحسن بن أبي البركات الهمذاني

وجاء في بداية الورقة الثانية :

" بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلّا الله عدة للقائه

باب معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها

اعلم وفقنا الله وإياك أنَّ حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً .....

وجاء في نهاية الورقة الثالثة ، وهي خاتمة هذا الجزء :

والغين على أعلاه ، فافهم ذلك توفّق إن شاء الله تعالى.

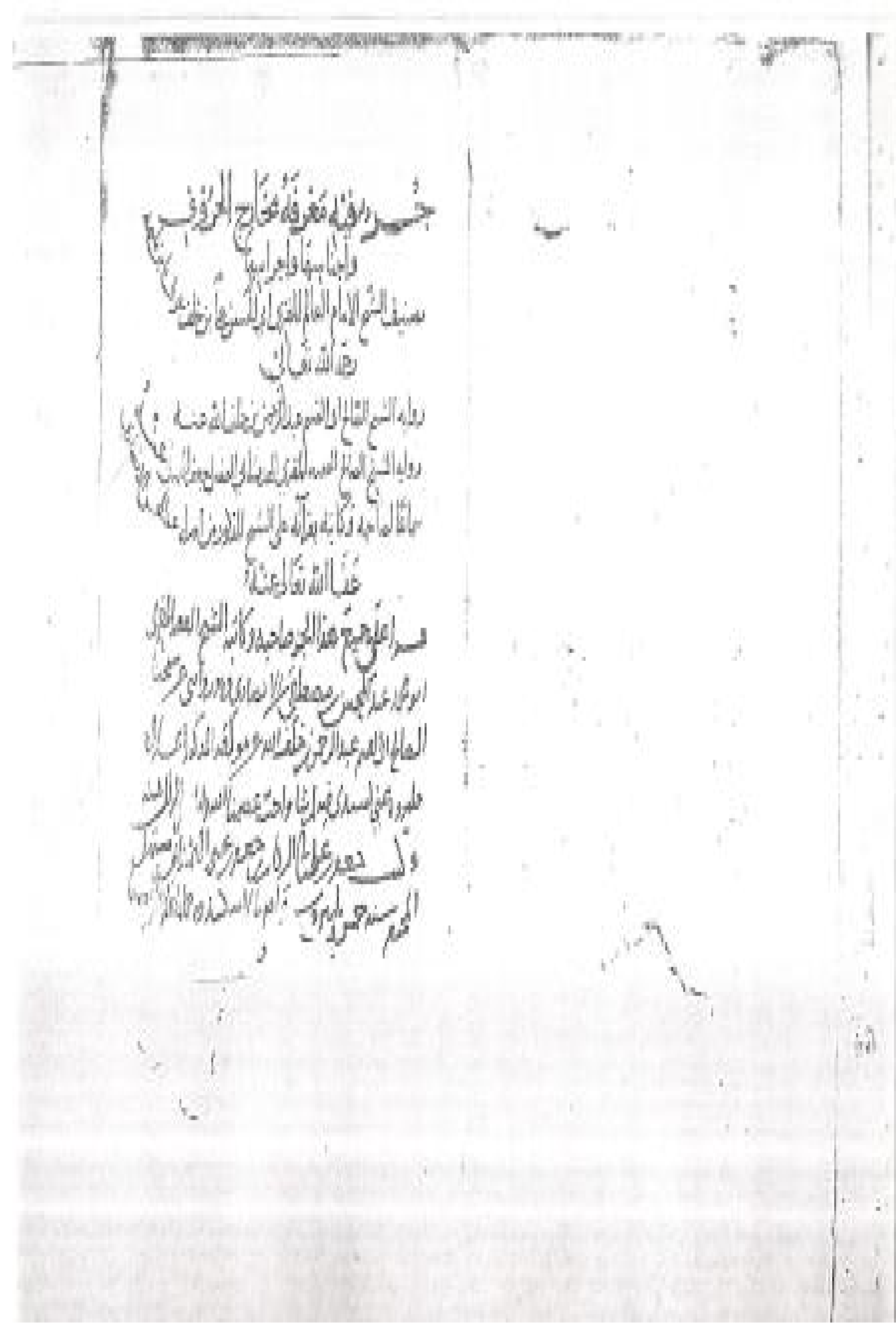
نجزت المخارج ولله الحمد

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلّم تسليما.

وجاء في حاشيتها :

"قوبلت بنسخة عليها خط المؤلف، وسمعت على شيخنا الشيخ الإمام أبي الفضل بن جعفر بن".

صورة المخطوط


جزء فيه معرفة مخارج الحروف

وأجناسها وأجراسها

الورقة الأولى



الورقة الثانية



الورقة الثالثة

القسم الثاني:
النصُّ المحقَّق

جزءٌ فيه معرفةُ مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها

تصنيف الشيخ الإمام العالم المقرئ أبي الحسن علي بن خلف عرف بابن بليمة رحمه الله تعالى

رواية الشيخ الصالح أبي القاسم عبد الرحمن بن خلف الله عنه

رواية الشيخ الصالح الفقيه المقرئ المحدّث أبي الفضل جعفر الهمذاني عنه

سماعاً لصاحبه وكاتبه بقراءته على الشيخ المذكور من أصله عبد المحسن الأنصاري عفا الله تعالى عنه

قرأ عليّ جميع هذا الجزء صاحبه وكاتبه الشيخ الفقيه المقرئ أبو محمد عبد المحسن بن مصطفى الأنصاري، وهو **روايتي** عن شيخنا الصالح أبي القاسم عبد الرحمن بن خلف الله عن مؤلفه المذكور أعلاه **فليروه** عني بسندي فيه لمن شاء وأحبّ عصمنا الله وإياه من الزلل بمنه

وكتب: جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمذاني مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بالإسكندرية حماها الله بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلّا الله عدة للقائه

باب معرفة مخارج الحروف وأجناسها وأجراسها

اعلم * وفقنا الله وإياك *[1] أنَّ حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، تصير خمسة وثلاثين حرفاً بحروفٍ حسنةٍ، وهي: النون الخفيفة التي لا مخرج لها، وإنَّما هي صوتٌ من الخيشوم[2]، (وهمزة بين بين)[3]، والألف الممالة، والشين كالجيم[4]، والصاد كالزاي[5] مثل:

(١) – مابين النجمتين كتب في الحاشية ووضع عليه (صح)

(٢) النون الخفيفة، ويقال: الخفية، أي: الساكنة، نحو التنوين، والنون التي تُخفى عند الكاف والجيم، والتعبير بالخفيفة هو المعبر به في كتابه، أمَّا (الخفية) فهو استحسان بعض شرّاح كتابه، حيث قال: "الرواية: الخفيفة، وقد يجب أن تكون الخفية؛ لأنَّ التفسير يدلّ عليه"اهـ.
انظر: الموضح للقرطبي: (ص٨١)، التمهيد للعطار: (ص٢٧٥)، الكتاب: (٤/ ٤٣١-٤٣٢).

(٣) هي الهمزة المسهلة ؛ وهي التي تُجعل بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها فإن كسرت الهمزة جعلت بين الهمزة والياء، وإن ضُمت جعلت بين الهمزة والواو، وإن فُتحت جعلت بين الهمزة والألف، قال القرطبي-رحمه الله-: "أمَّا همزة بين بين فإنَّ سيبويه جعلها حرفاً واحداً، وكان ينبغي على التحقيق أن تُعدّ ثلاثة أحرف" اهـ. انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣)، الموضح: (ص٨٢).

(٤) هي: كقولك: أشدق في: أجدق؛ لأنَّ الدال حرفٌ مجهورٌ شديدٌ، والجيم حرفٌ مجهورٌ شديد والشين مهموسٌ رخوٌ، فهو ضد الدال بالهمس والرخاوة، فقربوها من لفظ الجيم لقربها من مخرج الشين، وهي موافقة للدال في الجهر.
والمؤلف-رحمه الله-تبع سيبويه-رحمه الله-في عد الشين التي كالجيم من تتمة الحروف الخمسة والثلاثين وجعلها من المستحسن، وأمَّا الجيم التي كالشين في نحو: (اجتمعوا) و(الأجدر) فعدها سيبويه من تتمة الثلاثة والأربعين، وهي مما لا يستحسن. انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٢)، شرح الكتاب للسيرافي: (٦/ ٤٤٨-٤٤٩)، الموضح للقرطبي: (٨٥-٨٦).

(٥) المشهورة عند أهل القراءات بالإشمام كقراءة حمزة في " الصراط " من الروايتين بخلفٍ عن
=

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾[1]، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، وألف التفخيم التي نُحي بها نحو الواو في لغة أهل الحجاز[2]، مثل: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3]، و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾[4]، و﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾[5]، ثم تصير اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير حسنةٍ ولا مستعملةٍ في القرآن ولا في كثيرٍ من الشعر[6].

فصل

ولهذه الحروف ستة عشر مخرجاً[7].

= خلاد من طريق " الطيبة " ، ومعه الكسائي في نحو: (أصدق). انظر: النشر: ٢/ ٢٧٢

(١) من مواضعها، سورة الفاتحة: (٦).

(٢) بيَّن مكي-رحمه الله-أنَّها الألف التي تلفظ في قراءة ورشٍ نحو: (الصلاة) و(الطلاق) بتفخيم اللّام. انظر: الرعاية: (ص١٠٩).

(٣) من مواضعها، سورة البقرة: (٣).

(٤) من مواضعها، سورة البقرة: (٤٣).

(٥) من مواضعها، سورة البقرة: (٨٥).

(٦) من قول المؤلف: (حروف العربية) إلى هنا مأخوذ بتصرف من كتاب سيبويه: (٤/ ٤٣١-٤٣٢).

(٧) اتبع المؤلف هنا قول سيبويه وكثير من النحاة والقراء، وهذا العدد على إسقاط مخرج الحروف الجوفية التي هي حروف المد واللين، وجعل مخرج الألف من أقصى الحلق، والواو والياء من مخرج المتحركتين، وهذا القول مال إليه الداني ومكي في الرعاية والشاطبي من كبار القراء، بينما مال الإمام ابن الجزري-رحمه الله-إلى قول الخليل بن أحمد والهذلي وابن شريح وابن سينا وهو أنَّ المخارج سبعة عشر مخرجاً.
انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣)، التحديد للداني (ص١٠٢)، الرعاية لمكي: (ص٢٤٣)، النشر: (١/ ١٩٨).

والمخرج: المكان الذي ينشأ منه الحرف[١]، وحقيقة معرفة ذلك: أن تنطق بالحرف ساكناً وتُدخل عليه همزة الوصل لتصل إلى النطق به مثل: (ابْ) (الْ) (اتْ) (امْ)[٢].

فصل

فللحلق ثلاثة مخارج، وسبعة أحرفٍ:

فأقصاها مخرجاً من الحلق: الهمزة، والألف، والهاء.

ومن وسط الحلق: حرفان وهي[٣]: الحاء والعين.

ومن أدناها إلى الفم حرفان ، وهما: الخاء والغين[٤].

فصل

وللشفتين مخرجان وأربعة أحرف: فمن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء، ومن بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو، إلّا أنَّ صوت الميم يتصل بالخيشوم من الشفتين، ومن الخيشوم خاصة مخرج النون الخفيفة التي تسمى التنوين[٥].

---

(١) في المخطوط :(الحرف منه) لكن وضع فوق كل كلمة حرف (م) دلالة على التقديم والتأخير ، فلذا كتبتها هكذا لأنه نوع من التصحيح والمقابلة .

(٢) وهناك طريقة ثانية ذكرها الجعبري وهي أن تلحق بالحرف هاء السكت فتقول: بَهْ، حَهْ، قَهْ، انظر: الجامع المفيد: (ص١٥٣).

(٣) كذا في المخطوط (وهي).

(٤) انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣)، التحديد للداني: (ص١٠٢)، التمهيد في معرفة التجويد:(ص٢٧٧).

(٥) انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣-٤٤٤)، الموضح للقرطبي: (٧٨-٧٩)، التحديد: (ص١٠٤).

فصل

ومن هذين المكانين[1] حروف اللسان ولها أربعة أقسامٍ: أعلاه، وأوسطه، وحافته، وطرفه، وهي العَذَبة[2].

فمن أعلاه[3]/ مخرج القاف، ومن أسفل من ذلك مخرج الكاف، ومن وسطه ثلاثة أحرفٍ، وهي: الشين، والجيم، والياء. ١/ب

ومن حافته اليمنى أو اليسرى مخرج الضاد، ومِن الناس مَن ينطق بها من إحداهما دون الآخر، ومنهم من يخرجها من أيّهما شاء[4].

ومن عَذَبة اللسان وَهْي طرَفه مع طرف الحنك مخرجُ الطاء، والتاء، والدال، إلّا أنَّ المخرج ينطبق معهم[5].

---

(١) كتب في الحاشية: (أظنها بين).

(٢) العَذَب: طرف كلَ شيءٍ، ومن اللسان طرفه الدقيق. تاج العروس: (عذب).

(٣) عبَّر المؤلِّف بـ:(أعلاه) والمعبّر به كثيراً عند القدماء والمحدثين هو (أقصاه)، فالقاف مخرجه أقصى اللسان وما فوقه من الحنك، وربما يكون المؤلّف اعتمد على عبارة سيبويه: "ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف". وانظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣)، التحديد: (ص١٠٢).

(٤) الضاد من الحروف التي امتاز بها العرب حتى إنَّها لا توجد في كلام غيرهم إلّا قليلاً أو لا توجد أصلاً، وإخراجها من جهة واحدةٍ صعبٌ فكيف من جهتين، ويحكى أنَّ عمر-رضي الله عنه-كان يخرجها من الجانبين معاً.

ومما ينبغي أن يُعلم هنا ليس المراد من قول علماء التجويد: إنَّ الضاد يخرج من أوَّل الحافة ما يحاذي أقصى اللسان، فإنَّ الضاد ليست محاذية لمخرج القاف والكاف، بل هي أدنى منهما إلى الفم؛ ولذلك عدّها الخليل بن أحمد-رحمه الله-من الحروف الشجرية. انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣)، الجامع المفيد: (٢٦٤-٢٦٦)، سر صناعة الإعراب: (١/ ٢١٤).

(٥) في المخطوط قبل كلمة (ينطبق) كتبت كلمة (ينفتح) ضم وضع فوقها (ضـ) علامة =

ومنه أيضاً مخرج الصاد والزاي والسين، غير أنَّ المخرج ينفتح معهم.
ومن طرفه أيضاً مع أطراف الثنايا العليا مخرج الظاء ، والذال ، والثاء .
ومن طرف اللسان بينه وبين فويق الثنايا مخرج النون ، واللّام[١] ، والراء ، غير أنَّ الراء أدخل إلى اللسان لانحرافها عنه إلى اللّام[٢] .

ومن حافة اللسان إلى منتهى طرفه مما يلي الحنك الأعلى مع فويق الضاحك[٣] والناب[٤] والرَّباعية[٥] والثنية[٦] مخرج اللام[٧] ، فبذلك شاركت بعض الحروف ، فافهم ذلك.

= ضبة ، دلالة على حذفها ، والمؤلف من كلامه من خالف ترتيب سيبويه ، فعنده بعد الضاد يأتي مخرج النون، وعند ابن الجزري تأتي اللّام. انظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٣).

(١) اللام : كتبت في الحاشية ووضع عليها (صح) .

(٢) وصف اللاَّم والراء بالانحراف؛ لانحرافهما عن مخرجهما حتى اتصلا بمخرج غيرهما، وعن صفتهما إلى صفةٍ أخرى.
انظر: سرّ صناعة الإعراب : (١/ ٤٧) الرعاية: ١٣٢، التمهيد لأبي العلاء: (٢٧٧)، شرح المقدمة للدكتور غانم الحمد: (ص٣١٣).

(٣) الضاحك: السنّ التي بين الأنياب والأضراس التي تظهر عند التبسم، وهي أربعة. تاج العروس: (ضحك).

(٤) الناب: هي السِّنُّ التي خلف الرباعية. تاج العروس: (نيب).

(٥) الرَّباعية-بفتح الراء-إحدى الأسنان الأربعة التي تلي الثنايا وهي بين الثنية والناب. لسان العرب: (ربع).

(٦) الثنية: فرد الثنايا وهي الأسنان الأربع في مقدمة الفم. لسان العرب: (ثني).

(٧) هذا كلام سيبويه في الكتاب إلّا أنَّ "فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية" ساقط من طبعة الأستاذ عبد السلام هارون. انظر: سر صناعة الإعراب (١/ ٤٧) الجامع المفيد: (ص٢٧٤)، التحديد: (١٠٤)، شرح المقدمة لغانم الحمد (ص٢٥٦).

فصل

وأمَّا أجراسها؛ أعني أصواتها:

فاللين: صوت الياء والواو لأنَّهنَّ أمهات الحركات(١).

والغنة: صوت النون والميم(٢).

والبحة: صوت الحاء(٣)

والتهوع(٤): صوت العين.

والنبرة: صوت الهمزة.(٥)

واللهت: صوت الهاء(٦).

والتنخي: صوت الخاء(٧).

---

(١) هذا أحد الأقوال في المسألة المشهورة؛ أيهما أصل؛ الحروف أم حركاتها؟ وقد فصَّل الحديث عنها الإمام ابن جني-رحمه الله-وغيره.
انظر: سر صناعة الإعراب: (١/ ١٧-٣٣)، التمهيد لابن الجزري: (ص٩٠-٩٤)، الجامع المفيد: (ص١٨٧-١٩٥).

(٢) هذا عند القراء، أمَّا في اللغة: فالغنة جريان الكلام في اللهات. القاموس المحيط: (غنن)، وانظر: الموضح للقرطبي: (ص٩٧).

(٣) انظر: تهذيب اللغة: ١/ ٤٨

(٤) في الحاشية: والهرع، ووضع عليها (خ) دلالة على أنه من نسخة أخرى.

(٥) النبر: همز الحرف. تاج العروس: (ن ب ر)

(٦) الحرف المهتوت هو الهاء لما فيه من الضعف والخفاء، ونقل الأزهري عن الخليل قوله: "لولا هتَّةٌ في الهاء – وقال مرة: ههّة في الهاء – لأشبهت الحاء، لقرب مخرج الهاء من الحاء" اهـ انظر: تهذيب اللغة: (١/ ٤٨) الموضح للقرطبي: (ح٧).

(٧) لم أجد "التنخي" عند غيره، والعروف هو "الخنخنة"، قال القرطبي: الخنخنة أن =

والغرغرة: صوت الغين[١].

والنفخ: صوت التاء والفاء، وفي الذال والظاء شيء منه للمجاورة[٢].

والتفشي: صوت الجيم والشين، وفي الكاف[٣] والضاد شيءٌ منه، إلّا أنَّ الضاد فيها فرقعةٌ، وفي القاف لقلقة[٤] حكاه المبرد[٥] مع صلابة

= يتكلم بالخاء من أنفه ، وقيل : هي ألّا يبين المتكلم للسامع كلاماً فيخنخن في خياشيمه . الموضح في التجويد: ٢٢١

(١) قال القرطبي : الغين حرف مجهور مستعلٍ ، وينبغي أن لا يغرغر بها ، فيُفرط ، ولا يهمل تحقيق مخرجها فيخفى " اهـ الموضح في التجويد : (١١٦) .

(٢) قال ابن الطحان: "النفخ صوتٌ حاد عند خروج حرفه بضغطه عن موضعه؛ لأنَّك تجد الصوت إذا خرج من الصدر انسلّ آخره، وقد فتر من بين الثنايا، كأنّه وجد منفذاً فيسمع نحو النفخة".

قال: "والنفخ لا يكون إلّا في الوقف، فكل الصفات موجودة في متقلبات الحرف إلّا القلقلة والنفخ فإنَّهما خصيصتان بالوقف".

مخارج الحروف وصفاتها: (ص٩٦-٩٧).

(٣) كذا في المخطوط، ولم أجد من ذكر في (الكاف) (تفشياً) فلعل في العبارة تصحيفاً صوابه: (الفاء) فهو مذكور عند بعضهم ضمن حروف التفشي، وما ذهب إليه المؤلف يخالف رأي الداني وابن الجزري حيث جعلا التفشي للشين فقط . انظر: التحديد: (ص١٠٧)، الموضح للقرطبي: (ص٩٦) ، شرح المقدمة للقسطلاني : ١٠٤ .

(٤) كذا في المخطوط: (وفي القاف لقلقة) ولعل صواب العبارة: (وفي الكاف) بدل (القاف)؛ لأنَّ القاف مجمع على قلقلته، والكاف هو الذي ذكره المبرد ضمن حروفها. والله أعلم. ويقال: قلقلة ولقلقة. انظر: المقتضب: (١/ ١٩٦)، الموضح للقرطبي: (ص٩٣)، الجامع المفيد: (٤٠٣، ٤٠٦).

(٥) سبقت ترجمته.

الصوت.

وفي الراء: تكرير حكاه سيبويه، وفي اللام شيء منه.

وفي الظاء والذال والثاء غِلظ[1].

وفي العين والحاء دَوِيّ.

وفي الصاد والسين والزاي صفيرٌ.

وفي الشين تفشّ.

٢/أ وكل هذا نطق/ وأشير إليه.

فصل

وأما أجناسها؛ أعني صفات خروجها فمنها:

المستعلي: وهي: الصاد والضاد، والطاء والظاء، والخاء والغين والقاف، وما عداها مستفل، يجمعها قولك: (ضغط خص قظ)[2].

ومنها المجهور والمهموس، ومعنى الاستعلاء: صعود الصوت إلى الحنك[3]، ومعنى الجهر: شدة إيقاع الصوت، والاستعلاء ضد الاستفال،

(١) في المخطوط: والثاء والذال، وكتب فوق كل منهما (م) دلالة على التقديم والتأخير، فلذا اعتمدته.

(٢) انظر: التحديد: (ص١٠٦)، الموضح للقرطبي: (ص٩٠)، التمهيد لأبي العلاء: (ص٢٨١).

(٣) قال الداني: "سُمّيت مستعلية لأنَّ اللسان يعلو بها إلى جهة الحنك؛ لأنَّها على ضربين: منها ما يعلو اللسان به وينطبق، وهي حروف الإطباق الأربعة، ومنها ما يعلو ولا ينطبق، وهي الثلاثة: الغين والخاء والقاف"اهـ.

=

والهمس ضد الجهر[١].

فأمَّا الحروف المهموسة: عشرة، يجمعها قولك: (سكت فحثه شخص)، ومعنى الهمس: الإخفاء، وهي حروفٌ ضعف الاعتماد عليها في موضعها فخالطها النفَس في مخرجها[٢]، وما عداها مجهورٌ، ومعنى الجهر: الإعلان، وهي حروف قوي الاعتماد عليها فلم يخالطها النفَس في مخرجها[٣].

والشديدة: ثمانية أحرف يجمعها قولك: (أجد بقطّتك)؛ ولأنَّها اشتد لزومها فمنعت الصوت أن يجاريها[٤].

=وهذا الوصف (الاستعلاء) استخدمه سيبويه رحمه الله. انظر: الكتاب: (٤/ ١٢٩)، التحديد: (ص١٠٧).

(١) قال الدكتور غانم الحمد-حفظه الله-: "سيبويه أقدم من ذكر مصطلح الجهر والهمس وعرّفهما وذكر حروفهما، وأخذ عنه ذلك جميع من جاء بعده"اهـ. شرح المقدمة: (ص٢٨٧)، وانظر: الكتاب: (٤/ ٤٣٤)، التمهيد لابن الجزري: (ص٩٧).

(٢) هذا مأخوذٌ من قول سيبويه: "المهموس حرفٌ أضعف من الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه" اهـ. انظر: (٤/ ٤٣٤).

(٣) هذا أيضاً كأنَّه مأخوذٌ من كلام سيبويه: "المجهورة: حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت"اهـ. المصدر السابق.

(٤) قال سيبويه: "الحرف الشديد: هو الذي يمنع الصوت أن يجري معه" اهـ، وقال الداني: "حرف اشتد لزومه لموضعه حتى منع الصوت أن يجري معه نحو (أجْ) (الحج) فليس يجري في الجيم الصوت"اهـ: الكتاب: (٤/ ٤٣٤)، وقد اتبع ابن الجزري تعريف الداني =

وفيها حروف ليست برخوةٍ ولا شديدة، بل هي متوسطة يجمعها قولك: (يغلو مازن)[1] وما عدا ذلك رخو[2].

ومنها المنطبقة[3]: وهي الطاء والظاء والصاد والضاد، وما عداها مستفتح[4].

ومنها حروف اللين، وهي الألف، والياء المكسور ما قبلها، والواو المضموم ما قبلها فافهم ذلك.

وهذه أبيات تجمع مخارج الحروف:

= وزاد عليه عبارة: "منع الصوت أن يجري معه (عند اللفظ به)"اهـ.، التحديد:(ص٤٠٥-١٠٦)، التمهيد:(ص٩٨).

(١) كذا في المخطوط، ولا شك أنَّها كلمة مصحفة، فلعل صوابها: (يعلو مارن)، وهي نفسها حروف (لم يرو عنا) التي هي حروف بين الشدة والرخاوة، مع أن المشهور في هذا هو حروف " لن عمر" كما عند ابن الجزري وغيره، والله أعلم. انظر: سر صناعة الإعراب: (١/ ٦١)، الموضح للقرطبي: (ص٨٩)، الجامع المفيد: (ص٣٧٩-٣٨٠).

(٢) وهو حرف ضعف الاعتماد عليه في موضعه عند النطق به، فجرى معه الصوت، فهو أضعف من الشديد. الجامع المفيد: (ص٣٧٨).

(٣) لأنَّ اللسان ينطبق على الحنك. انظر: سر صناعة الإعراب: (١/ ٦١).

(٤) كذا في المخطوط، ولعلها: (منفتح) كما يعبّر به علماء التجويد، والانفتاح: أن تطبق ظهر لسانك برفعه إلى الحنك، فلا ينحصر الصوت. قاله القرطبي. الموضح: (ص٩٠).

ونقل أبو شامة عن ابن الحاجب-رحمها الله-أن تسمية هذه الحروف بالمنطبقة والمنفتحة إنَّما هو من باب التجوّز؛ لأنَّ المطبق إنَّما هو اللسان والحنك، وأمَّا الحرف فهو مطبق عنده. والله أعلم. انظر: إبراز المعاني: (٤/ ٣١٦).

الأعل عليها حين خروجها قرأ　　أدل ضمري حلاها شواردا
.... [(١)] راعيات نواعجا　　.... [(٢)] دعجاً على صعائدا

فصل

ولكل حرفٍ صورة تخصه، فإذا شاركته صورة غيره/ فصل بينهما ٢/ب
بكيفية أو كمية إذا اتصلا بغيرهما وانفصلا كما فصلوا بين (الراء) و(الزاي) لمّا اتفقت صورتهما عطّلوا الراء وأشغلوا[(٣)] الزاي بكيفية النقطة، وكذلك الدال والذال والطاء والظاء والصاد والضاد والعين والغين والسين والشين، أشغلوا الذال والظاء والضاد والغين والشين بكيفية النقطة وعطلوا الأُخر.

فصل

ولما اتفقت صورة الباء والتاء[(٤)] في اتصال الكيفية دون انفصالهما

---

(١) كلمتان غير واضحتين.

(٢) كلمة غير واضحتين.

(٣) كذا في المخطوط: (أشغلوا) بالهمزة، وهي تردّد فيها إمام اللغة الفيروزابادي-رحمه الله- حيث قال: "وأشغله: لغة جيد أو قليلة أو رديئة"اهـ. وحكم غيره من علماء اللغة بعدم جودتها في كلام العرب، يقال: أشغلته. والله أعلم. انظر: تاج العروس: (شغل).

(٤) كذا في المخطوط ، وقد أفادني أحد المحكّمين لهذا البحث – فتح الله عليه وجزاه خيراً – بقوله : " لعل الصواب " النون " بدل الباء ، بدليل قوله بعده "" وقد تقدم ذكر النون " حيث إن النون لم يتقدم ذكرها من بداية الفصل ، فالظاهر أن المتقدم هو هذا الموضع ، ولأن الباء والتاء متفقتان في الكيفية حال الاتصال والانفصال ، وإنما تختلف الباء في حال الانفصال عن النون لا عن التاء " . اهـ بنصه .

فصلوا بينهما أيضاً بكيفية النقط، وكذلك الجيم والخاء، أشغلوهما وعطلوا الحاء ليفصل من أختيها، وكذلك الفاء والقاف، وكذلك الياء والتاء إذا اتصلا بغيرهما فصلوا بينهما بكيفية النقط، جعلوا للياء اثنتين من أسفل وللتاء نقطتين من فوق وكذلك الثاء زادوها نقطة ليفصلوا بينها وبين التاء، وقد تقدَّم ذكر النون.

ولما كانت باقي الحروف لا تتشارك في صورها قامت مقام كيفية النقط، هكذا ذكر عن حذَّاق الكتّاب، فافهم ذلك[(١)].

فصل: وكلّ هذه الحروف يدخل عليها همزة الوصل وتسكنها، فيظهر لك المخرج، إلّا الألف وحدها[(٢)].

قال الخليل[(٣)] -رحمه الله-: "خلق الله سبحانه وتعالى الألف وجعلها ساكنة لا تتحرك، ولو تحرّكت لانقلبت همزة فيسلب طبعها، وطبعها اللين والهويُ[(٤)] في الحلق"؛ ولهذا سماها سيبويه الحرف الهاوي[(٥)]، ومعنى

(١) ينظر: المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني: (ص٣٤-٤١)، ففيه كلامٌ طويلٌ متعلق بما ذكره المؤلف-رحمه الله-، وكأنَّ ابن بليمة معتمد عليه فيه، والله أعلم.

(٢) انظر : سرّ صناعة الإعراب : ١/ ٤٤

(٣) انظر ترجمته ص : ١٤ من هذا البحث .

(٤) لم أجد هذا النص المنسوب للخليل-رحمه الله-لا في كتابه العين ولا فيما لدي من مصادر مظنة له ، كالكتاب المنسوب له والمطبوع بعنوان (الجمل في النحو).

(٥) وعبارته: "ومنها الهاوي وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنَّك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قِبَل الحنك، وهي =

الهاوي: أنَّ الناطق لا يعتمد في إخراجها على موضع من الحلق كما اعتمد في الهمزة على أقصاه، والعين على أوسطه، والغين على أعلاه ، فافهم ذلك توفّق إن شاء الله تعالى.

نجزت المخارج ولله الحمد، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلّم تسليما[١]

= الألف". الكتاب: (٤/ ٤٣٥-٤٣٦)، وانظر: التحديد: (ص١٠٨).

(١) جاء في حاشية المخطوط بعده: "قوبلت بنسخة عليها خط المؤلف، وسمعت على شيخنا الشيخ الإمام أبي الفضل بن جعفر بن".

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني لتحقيق هذه الرسالة القيّمة في بابها ، وإني لأرجوه سبحانه وتعالى لي ولمؤلفها رحمه الله ، ولكل من عاون فيها أو حكّمها القبولَ ، وأن يجعل ذلك لنا جميعاً في ميزان حسانتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقبل أن أرفع القلم أذكر

١ – اعتناء السلف رحمهم الله بالتجويد ، وتأليفهم فيه مفرداً عن باب القراءة .

٢ – التجويد هو المصدر الأصيل للدراسات الصوتية المعاصرة .

٣ – مخارج الحروف نالت حظاً وافراً من اهتمام العلماء شرحاً وتأليفاً .

٤ – هذا الجزء المحقق هو ثاني عمل علمي يصلنا لمؤلفه الإمام ابن بليمة رحمه الله .

وفي الختام :

أدعو الباحثين إلى إخراج مثل هذه الرسائل الصغيرة الحجم والكبيرة العلم والعظيمة النفع ، فهي بمثابة تلخيصات مفيدة وتامة لمسائل علمية مهمة .

والله من وراء القصد .

فهرس المصادر والمراجع

- **إبراز المعاني من حرز الأماني**: تأليف عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- **أخبار النحويين البصريين**: تأليف الحسن بن عبد الله بن السيرافي، تحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٣هـ-١٩٦٦م.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: تأليف محمد بن محمد المعروف بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار الهداية، الكويت.
- **التحديد في الإتقان والتجويد**: تأليف عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، تحقيق: د.غانم قدوري حمد، مكتبة دار الأنبار، بغداد-ساعدت جامعة بغداد على طبعه،الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٨م.
- **التمهيد**: تأليف للعطار
- **التمهيد في علم التجويد**: تأليف شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري، تحقيق: الدكتور على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**: تأليف مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق/ فرغلي سيد عرباوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ط:١. ٢٠٠٩م.

- **سر صناعة الإعراب**: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- **شرح الكتاب للسيرافي**: تأليف أبي سعيد حسن بن عبد الله السيرافي.
- **شرح المقدمة**: تأليف الدكتور غانم الحمد.
- **القاموس المحيط**: تأليف مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- **غاية النهاية في طبقات القراء**: تأليف شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري، عني بنشره: ج.براجستراسر، مكتبة ابن تيمية، ١٣٥١هـ.
- **الكتاب**: تأليف أبي بشر عمرو بن قنبر سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
- **لسان العرب**: تأليف محمد بن مكرم بن على ابن منظور الإفريقى، دار صادر-بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
- **المحكم في نقط المصاحف**: تأليف الإمام أبي عمرو الداني، تحقيق/ د.عزة حسن، دار الفكر، دمشق، ط:٢، ١٤١٨هـ.
- **مخارج الحروف وصفاتها**: تأليف عبد العزيز بن علي بن الطحان

الإشبيلي.

- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**: تـأليف شـمس الـدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عـثمان الـذهبي، دار الكتـب العلميـة، الطبعـة: الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- **المقتضب**: تأليف محمد بن يزيد بن الثمالي المعروف بالمبرد، تحقيـق: محمـد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب-بيروت.
- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**: تأليف عبد الرحمن بن محمد بن عبيـد الله الأنـصاري، أبـو البركـات، كـمال الـدين الأنبـاري (المتـوفى: ٥٧٧هـ)، تحقيـق: إبـراهيم الـسامرائي، مكتبـة المنـار، الزرقـاء – الأردن، الطبعـة: الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- **النشر في القراءات العشر**: تأليف شمس الدين أبي الخير محمـد بـن محمـد ابـن الجـزري، تحقيـق: عـلي محمـد الـضباع، المطبعـة التجاريـة الكـبرى، تصوير دار الكتب العلمية.

تُراثُ الفَرَّاءِ فِي رَسْمِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ
مِنْ خِلالِ كِتَابِهِ (مَعَانِي القُرْآن)

إعداد

د. حاتم بن عبد الرحيم آل جلال التميمي

د. حاتم بن عبدالرحيم بن عبدالكريم آل جلال التميمي

- الأستاذ المشارك بكلية القرآن والدراسات الإسلامية بجامعة القدس.
- حصل على درجة الدكتوراه من قسم الدراسات الإسلامية كلية الآداب بجامعة عين شمس القاهرة بأطروحته: (التوجيهات القرآنية في العلاقات الزوجية).
- حصل على درجة الماجستير من قسم أصول الدين كلية الشريعة بالجامعة الأردنية .

ملخص:
يهدف هذا البحثُ إلى دراسة ما اشْتَمَلَ عليه كتابُ (مَعَاني القرآن) للفرَّاءِ من أُصُولِ رسم المصحف الشريف وَمَسَائِلِهِ، مَعَ بَيَانِ مَدَى مُوَافَقَةِ مَا ذَكَرَهُ لِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ في عِلْمِ رسم المصحف الشريف، وَبَيَانِ الأَثَرِ الْعِلْمِيِّ للفَرَّاءِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْعِلْمِ فِي مَنْ جَاؤُوا بَعْدَهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، وأفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد....

فإن كتابَ (**مَعَانِي الْقُرْآنِ**) للإمام أبي زكريَّا يحيى بنِ زيادٍ الْفَرَّاءِ (ت ٢٠٧هـ) مرجعٌ من أهمِّ مراجعِ المكتبةِ الإسلاميةِ؛ لِما اشتمل عليه من الفوائدِ العظيمةِ الجليلةِ في علم التَّفسير، وعلم العربية، وغيرهما. وكان من بين العلومِ التي اشتملَ عليها مسائلُ منثورةٌ في كتابِهِ عن رسمِ المصحفِ الشَّريفِ (الرَّسْم العثْمَانِيِّ). وبعد النظر والتدقيق في هذا الكتاب تبيَّن للباحث أن المواضع التي تحدث عنها الْفَرَّاء عن رسم المصحف غيرُ قليلةٍ، وأنها تستحقُّ أن تُجمع في بحثٍ وتُعرض وتُناقش، مع تبيين ما للفراء، وما عليه؛ حيث إن مَواقِفَهُ من مسائلِ رسم المصحف لم تكنْ واحدةً كما سيظهر من خلال البحث. هذا وقد ألف الْفَرَّاء كتاباً مستقلاً في رسم المصحف الشريف، سماه (اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في الْمَصَاحِف)[1]، ولكنَّ هذا الكتابَ مفقودٌ لا يوجد له أثرٌ. وبما أن كتاب (مَعَانِي الْقرْآنِ) مشتملٌ على طائفةٍ من مسائل رسم المصحف الشريف فبالإمكان الوقوفُ، ولو بشكلٍ جُزْئِيٍّ على تُراثِ الْفَرَّاء في هذا العلم. ومن هنا جاءت فكرة الكتابة في هذا الموضوع.

---

(١) ينظر: معجم الأدباء ٦/ ٢٨١٥. الفهرست ص: ٥٥. معجم المؤلفين ١٣/ ١٩٨.

أسباب اختيار الموضوع

١. ضياعُ كتابِ الْفَرَّاء في رسم المصحف الشريف.

٢. عدمُ وجودِ دراسةٍ مستقلةٍ في الموضوع.

٣. الرغبةُ في الكتابة في موضوع رسم المصاحف الشريفة.

أهداف الدراسة

١. إسداءُ خدمةٍ إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو أشرفُ الكتب، ومن ثَمَّ إسداء خدمةٍ إلى كتابٍ من أهمِّ مراجعِ المكتبةِ الإسلاميةِ؛ وهو كتابُ (مَعَانِي الْقُرْآنِ) للفراء.

٢. الوقوفُ على ما تضمَّنَهُ كتابُ (مَعَانِي الْقُرْآنِ) من مسائلَ متعلقةٍ برسمِ المصحفِ الشريفِ، وبيانُ مدى مطابقتها لما هو مُقَرَّرٌ في علم الرَّسْم.

٣. محاولةُ الوقوفِ على تُرَاثِ الْفَرَّاء في رسم المصاحف الشريفة، بعدَ ضياعِ كتابِهِ (كتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في الْمَصَاحِف).

أهمية الدراسة

١. أنها الأولى –بحسب علم الباحث– التي تناولت هذا الموضوع.

٢. تستمدُّ أهميَّتَهَا من أَهَمِّيَّةِ موضوعِهَا، وهو من أشرفِ العلومِ.

٣. أنها تتعلق بأحد أبرز كتب مَعَانِي الْقُرْآنِ، وأكثرها تداولاً بين الدارسين، وفوق ذلك أنه من أوائلها تأليفاً.

حدود الدراسة:

هذه الدراسةُ محدودةٌ بدراسةِ تُراثِ الْفَرَّاءِ في رسم المصاحف من

خلالِ كتابِهِ (مَعَانِي الْقُرْآنِ).

الدراسات السابقة:

لم يَقِفِ البَاحِثُ عَلَى دِرَاسَةٍ أَصَّلَتْ تُرَاثَ الْفَرَّاءِ في رسم المصاحف بحسبِ المنهجِ العلميِّ.

منهجية البحث:

اتبع الباحثُ المنهجَ الاستقرائيَّ؛ حيث قام باستقراءِ كتابِ (مَعَانِي الْقُرْآنِ)، واستخراجِ أَبْرَزِ المواضعِ التي تحدَّث فيها الفراءُ عن رسم المصاحف وَأَهَمِّهَا. وَاتَّبَعَ الباحثُ أيضاً منهجَ تحليلِ المضمونِ؛ وهو أحدُ أشكالِ المنهجِ الوصفيِّ؛ وذلك بِذِكْرِ ما يتعلَّقُ بالمواضعِ التي تَحَدَّثَ فيها الْفَرَّاءُ عن رسم المصاحف ومناقشتها؛ وصولاً إلى وجه الصواب فيها.

وكانت الخطواتُ الإجرائيَّةُ التي اتَّبَعَهَا الباحثُ على النحو الآتي:

١. تقسيم المواضع التي تم استخراجها وتصنيفها عبر مباحث ومطالب.
٢. مقارنة ما ذكره الْفَرَّاء بالمذكور في أمهات كتب الرَّسْم العثْمَانِيِّ؛ كالمقنع لأبي عمرو الدانيِّ (ت ٤٤٤هـ)، ومختصر التبيين لهجاء التنزيل لأبي داود سليمان بن نجاح (ت ٤٩٦هـ).
٣. مناقشة الْفَرَّاء في ما يذكره من مسائل؛ وصولاً إلى وجه الصواب في كل مسألة.
٤. البحث في مراجع أخرى من أجل الوقوف على مدى إفادتها مما ذكره الْفَرَّاء في (مَعَانِي الْقُرْآنِ).
٥. الآيات القرآنية مكتوبة برواية حفص عن عاصمٍ؛ لأنها أشهر

الروايات في عصرنا، وأكثرها تداولاً بين الناس اليوم.

٦. تسجيل أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال البحث.

وقد جاءَ هذا البحثُ في مقدمةٍ وتمهيدٍ وأربعةِ مباحثَ وخاتمةٍ، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها استعراضُ أدبيَّاتِ البحثِ.

التمهيد: وفيه تعريفٌ بعلم الرَّسْم وبالفراء.

المبحث الأول: مصادر علم الرَّسْمِ عند الفراء في كتابه (مَعَانِي الْقُرْآنِ).

المبحث الثاني: موقف الْفَرَّاء من الالتزام بالرسم أو عدم الالتزام به.

المبحث الثالث: الأمورُ التي تُؤْخَذُ على الْفَرَّاء في علم الرَّسْم.

المبحث الرابع: القيمةُ العلميَّةُ لتُرَاثِ الْفَرَّاء في علم الرَّسْم.

الخاتمة: وفيها أهمُّ النَّتَائِجِ.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

* * *

التمهيد: التعريفُ بعلم الرَّسْم وبالفراء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريفُ بعلم الرَّسْمِ

الرَّسْم لغةً: الأَثَرُ، وقيل: بَقِيَّةُ الأَثَرِ[1]. والرشم -بالشِّين- لُغَةٌ فيه[2]، وقد غلب الرَّسْم -بالسين المهملة- في خط المُصَاحِف[3]. ويرادفه: الخطُّ، والكتابة، والزَّبْر، والسَّطْر، والرَّقْم[4].

وأما اصطلاحاً فالرَّسْم قسمان: قياسيٌّ، وتوقيفيٌّ.

فالرَّسْمُ القياسيُّ هو: تصويرُ الكلمةِ بحروفِ هجائِها على تقدير الابتداء بها، والوقف عليها.

والرَّسْمُ التوقيفيُّ -ويقال له الاصطلاحيُّ؛ نسبةً لاصطلاح الصحابة رضي الله عنهم، ويقال له العُثْمَانِيُّ؛ نسبةً إلى المُصَاحِف التي نسخها عثمان بن عفان ﷺ- هو: علمٌ تُعرف به مخالفاتُ خطِّ المُصَاحِف العُثْمَانِيَّةِ لأصولِ الرَّسْمِ القياسيِّ[5].

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٢٤١. القاموس المحيط ص: ١٤٣٨.

(٢) تاج العروس ٣٢/ ٢٥٥.

(٣) دليل الحيران ص ٢٥.

(٤) دليل الحيران ص: ٢٥. سمير الطالبين ص: ٢٠.

(٥) المرجعان السابقان.

المطلب الثاني: التعريف بالفراء(١)

هو الإمامُ يَحْيَى بنُ زيادِ بْن عَبْدِ الله بْنِ منظورِ بْنِ مَرْوَانَ الأَسْلَمِيُّ الدَّيْلَمِيُّ، المعروفُ بِالْفَرَّاءِ؛ لأنه كان يفري الكلامَ(٢)، ولم يكن يعملُ الْفِرَاءَ ولا يبيعها كما قد يُتَوَهَّمُ. كُنْيَتُهُ أَبو زَكَرِيَّا، ويقال: أَبُو بكر. مولى بَنِي أسدٍ، وقيل مولى بني مِنْقَرٍ. من أهلِ الكوفةِ، نزل بغدادَ، وأملَى بِهَا. وكان مولدُهُ سنة ١٤٤هـ.

كان ثقةً إماماً من أئمةِ مدرسةِ النحوِ بالكوفةِ، ومن أوسعِ الْكوفِيِّين علماً. قال أبو الْعَبَّاسِ ثَعْلِبٌ (ت ٢٩١هـ): " لولا الْفَرَّاءُ لما كانت عربيةٌ؛ لأنه خَلَّصَهَا وَضَبَطَهَا، ولولا الْفَرَّاءُ لسقطت العربيةُ؛ لأنّها كانت تُنَازَعُ، وَيَدَّعِيها كل من أراد، ويتكلمُ الناسُ فيها عَلَى مقادير عقولِهم وقرائحهم فتذهب"(٣). وقال سلمةُ بنُ عاصمٍ (ت ٣١٠هـ): " إِنِّي لأَعْجَبُ مِنَ الْفَرَّاءِ؛ كَيْفَ كَانَ يُعَظِّمُ الكِسَائِيَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالنَّحْوِ مِنْهُ"(٤).

(١) ترجمته في: الثقات لابن حبان ٩/ ٢٥٦. تاريخ العلماء النحويين ص: ١٨٧. تاريخ بغداد ١٦/ ٢٢٤. نزهة الألبَّاء ص: ٨١-٨٤. معجم الأدباء ٦/ ٢٨١٢- ٢٨١٤. إنباه الرواة ٤/ ٧-١٧. وفيات الأعيان ٦/ ١٧٦-١٨١. سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩١- ٢٩٢. البداية والنهاية ١٠/ ٢٨٤. البلغة ص: ٣١٣. غاية النهاية ٢/ ٣٧١- ٣٧٢. تهذيب التهذيب ١١/ ٢١٢- ٢١٣. بغية الوعاة ٢/ ٣٣٣.

(٢) أصل الفَرْيِ: القطع والشق. والفَرْيُ: الأمرُ العظيمُ. وهو أيضاً: أن يبالغ في الأمر حتى يُتَعَجَّبَ منه. [ينظر: العين ٨/ ٢٨٠. غريب الحديث للخطابي ٢/ ٥٧١. مقاييس اللغة ٤/ ٤٩٦].

(٣) تاريخ بغداد ١٦/ ٢٢٤. وينظر: نزهة الألباء ص: ٨١. معجم الأدباء ٦/ ٢٨١٣.

(٤) وفيات الأعيان ٦/ ١٨٠. سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٢.

كان قويَّ الحافظةِ، حتى إنه أَملى كتبه كلَّها حفظاً، وعندما ابتدأ إملاءَ كتابِهِ (مَعَانِي الْقُرْآنِ) حضر مجلسَه الجمُّ الغفيرُ من الناسِ، فأراد بعضُ تلاميذِهِ أن يَعدُّوا الناسَ فلم يستطيعوا، فعدُّوا القُضَاةَ فكانوا ثمانين قاضياً[1].

وكان يقال: الْفَرَّاء أمير المؤمنين في النحو. وقال أبو بكرٍ ابنُ الأنباريِّ (ت ٣٢٨هـ): "لو لم يكن لأهلِ بغدادَ والكوفةِ من علماءِ العربيةِ إلاّ الكسائيُّ والفرَّاءُ لكان لهم بهما الافتخارُ على جميع الناس؛ إذ انتهت العلومُ إليهما"[2].

وعن ثُمَامَةَ بنِ أَشْرَسَ (ت ٢١٣هـ): "رأيت الْفَرَّاء ففاتشته عن اللغة فوجدته بحراً، وفاتشته عن النحو فشاهدت نَسِيْجَ وَحْدِهِ، وعن الفقه فوجدته فقيهاً عارفاً باختلاف القوم، وبالنجوم ماهراً، وبالطب خبيراً، وبأيام العرب وأشعارها حاذقاً"[3].

أخذ القراءةَ عن: أبي بكرِ ابنِ عياشٍ، وعليِّ بنِ حمزةَ الكسائيِّ، ومحمدِ ابنِ حفصٍ الحنفيِّ. وروى القراءةَ عنه: سلمةُ بنُ عاصمٍ، ومحمدُ بنُ الجهمِ، ومحمدُ بنُ عبد الله بنُ مالكٍ، وهارونُ بنُ عبدِ الله[4]. وروى الحديثَ عن: قيسِ بنِ الربيعِ، ومندلِ بنِ عليٍّ، وحازمِ بنِ الحسينِ البصريِّ، وعليِّ بنِ حمزةَ

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد ١٦/ ٢٢٤. إنباه الرواة ٤/ ١٦. وفيات الأعيان ٦/ ١٧٨

(٢) تاريخ بغداد ١٦/ ٢٢٤. نزهة الألباء ص: ٨٣. سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٢

(٣) تاريخ بغداد ١٦/ ٢٢٤. نزهة الألباء ص: ٨٣. وفيات الأعيان ٦/ ١٧٧

(٤) غاية النهاية ٢/ ٣٧١

الكسائيِّ، وأبي الأحوصِ، وأبي بكرِ بنِ عياشٍ، وسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، وآخرين. ولقي أبا جعفرٍ الرؤاسيَّ وحدَّث عنه. وروى عنه: سلمةُ بن عاصمٍ، ومحمد بن الجهم السِّمَّري، وغيرهما(١).

وله تصانيفُ كثيرةٌ نافعةٌ؛ منها: «مَعَانِي الْقُرْآنِ» وهو موضوع هذه الدراسة. وكان سببُ إملائه أن أحد أصحابه، وهو عمرُ بْنُ بُكيرٍ (كان حيّاً ٢٣٦هـ)، كان يصحب الحسنَ بنَ سهلٍ وزير المأمون (ت ٢٣٦هـ)، فكتب إلى الْفَرَّاء: إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت، فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء، فقال له: فقرأ فاتحة الكتاب، ففسرها، حتى مر في القرآن كله على ذلك، يقرأ الرجل والفراء يفسره. وكتابه هذا نحو ألف ورقة، وهو كتاب لم يعمل مثله، ولا يمكن أحداً أن يزيد عليه(٢).

ومن تصانيفه أيضاً: «الْبَهَاء فِي مَا تلحن فِيهِ الْعَامَّة»، «اللُّغَات»، «المصادر فِي الْقُرْآن»، «الْجمع والتثنية فِي الْقُرْآن»، «آلَة الْكتاب»، «الأيام والليالي»، «اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في الْمَصَاحِف»، «الحدود»، «الوقف والابتداء»، «المفاخر»، «النوادر»(٣).

(١) تهذيب التهذيب ١١/ ٢١٢

(٢) إنباه الرواة ٤/ ١٠. وفيات الأعيان ٦/ ١٧٨

(٣) ينظر: معجم الأدباء ٦/ ٢٨١٥. بغية الوعاة ٢/ ٢٩٧

توفي الْفَرَّاء سنة ٢٠٧هـ في طريقِ مكةَ، وعمرُهُ ثلاثٌ وستُّونَ سنةً[١]، رحمه الله تعالى.

(١) تاريخ بغداد ١٦/ ٢٢٤. نزهة الألباء ص: ٨٤. معجم الأدباء ٦/ ٢٨١٤

المبحث الأول: مصادرُ علم الرَّسْمِ عندَ الفَرَّاءِ في كِتابِهِ (مَعَانِي الْقُرْآنِ) وفيه أربعةُ مطالبَ:

المطلب الأول: المُصَاحِف المنسوبةُ إلى بعض الصحابةِ والتَّابعين

حفل (مَعَانِي الْقُرْآنِ) بذكرِ عددٍ من المُصَاحِف المنسوبةِ إلى بعضِ الصحابةِ والتابعينَ رضي الله عن الجميع. وأبرز تلك المُصَاحِف:

١ – **مصحف عبدِ الله بنِ مسعودٍ** ﷺ (ت ٣٢ هـ)، وقد ورد ذكره عند الْفَرَّاء ما يقرب من ثلاثين مرة[١]، والملاحظ على جُلِّهَا أن الفَرَّاءَ كان يذكرها بلفظ «رأيتُ في مصحف عبد الله». وظاهر كلامه أن مصحف ابن مسعود ﷺ قد بقي إلى أيامه، وأنه كان ينقل منه مباشرةً. والملاحظ على تلك المواضع أيضاً أنه كان أحياناً يقول: «مصحف عبد الله»، وأحياناً أخرى يقول: «مصاحف عبد الله». والفرق بينهما كما يوحي به أحد النقول التي أثبتها الْفَرَّاء في سورة الفتح أن لفظ «مصحف عبد الله» يريد به المصحفَ الشخصيَّ المنسوبَ إلى عبد الله بن مسعود ﷺ، وأما لفظ «مصاحف عبد الله» فيقصد به المُصَاحِف المنتسخةَ عن مصحفه.

ومن الأمثلة على نقله من مصحف ابن مسعود ﷺ ما ذكره في تفسيرِ سورةِ الشورى بقوله: "ذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ يَقولُ: ﴿حم سق﴾،

(١) ينظر: معاني القرآن: ١/ ٩٥، ١/ ١٤٥، ١/ ٢٠٢، ١/ ٢٤٩، ١/ ٣٩٣، ٢/ ٤٩، ٢/ ١٣٥، ٢/ ٢٢٠، ٢/ ٢٨٩، ٢/ ٢٩٣، ٢/ ٣١٣، ٢/ ٣٥٠، ٢/ ٣٥١، ٢/ ٤٢١، ٣/ ٢١، ٣/ ٣٠، ٣/ ٣٨، ٣/ ٧١، ٣/ ١٠٢، ٣/ ١٣٢، ٣/ ١٣٦، ٣/ ١٦٠، ٣/ ١٨٩، ٣/ ٢١٤، ٣/ ٢٧٢، ٣/ ٢٧٤، ٣/ ٢٨٦.

ولا يجعل فيها عينا، ويقول: السين كل فرقة تكون، والقاف كل جماعة تكون. قال الْفَرَّاء: ورأيتها فِي بعض مصاحف عَبْد الله «حم سق»، كما قَالَ ابْنُ عَبَّاس"[1].

ومن الأمثلة عليه أيضاً ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦] قال: "وهي فِي قراءة عَبْد الله: «إِنَّني بريءٌ مِمَّا تَعْبُدُون»، ولو قرأها قارئٌ كَانَ صواباً موافقا لقراءتنا؛ لأن العرب تكتب: «يَسْتَهْزِئُ» «يَسْتَهْزِأُ»، فيجعلون الهمزة مكتوبةً بالألف فِي كل حالاتها، يكتبون: «شَيْءٌ» «شَيْأٌ»، ومِثْلُهُ كَثِيرٌ في مصاحف عبد الله، وفي مصحفنا: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ﴾ [الكهف: ١٦]، و﴿يُهَيِّأْ﴾ بالألف"[2].

٢ – مصحف أبيِّ بنِ كعبٍ ﷺ (ت ١٩ هـ)، وقد ورد ذكرُهُ عند الْفَرَّاء في موضعٍ واحدٍ فقط؛ وذلك عند تفسيره قولَ الله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ [يونس: ٢٧] قال الْفَرَّاء: "وهي فِي مصحف أُبَيٍّ: (كأنما يَغْشَى وجوهَهم قِطع من الليل مظلمٌ)"[3]. والملاحظ هنا أنه لم يصرح برؤيته مصحفَ أبيِّ بنِ كعبٍ ﷺ!!

٣ – مصحف الحارثِ بنِ سويدٍ التيميِّ (ت ٧٢هـ)، وقد ورد ذكره عند

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٢١.
(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٣٠.
(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٤٦٢.

الْفَرَّاء في موضعٍ واحدٍ فقط؛ عند تفسيره قولَ الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، قال الْفَرَّاء: "ورأيتها فِي مصحف الحارثِ بْنِ سُويدٍ التيميِّ من أصحاب عَبْد الله: (وكانوا أهلها وأحق بها)، وهو تقديمٌ وتأخيرٌ، وكان مصحفه دفن أيام الحجَّاج"[١].

المطلب الثاني: مناقشة ما نَقَلَه الْفَرَّاء عن الْمَصَاحِف المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين

لم يكن الْفَرَّاءُ هو الوحيدَ الذي اعتمد في كتابه على رسوم الْمَصَاحِف المنسوبة إلى الصحابة والتابعين رضي الله عن الجميع؛ بل فعل غيره ذلك أيضاً. وعند مناقشة هذا الأمر فإن وجود مثل تلك الْمَصَاحِف المذكورة أمرٌ يناقش ولا يُسَلَّم؛ وذلك لأنه قد ثبت أن عثمان رضي الله عنه بعد أن فرغ من نسخ الْمَصَاحِف ردَّ الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفقٍ بمصحفٍ مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحْرَقَ[٢]، فاستجاب الصحابةُ لذلك على الفور[٣]، ما عدا ابن مسعود رضي الله عنه؛ فإن له قصةً مشهورةً في ذلك[٤]. وقد ورد في بعضِ الرواياتِ أن عثمانَ رضي الله عنه وعظه،

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن، الحديث رقم (٤٩٨٧).

(٣) مناهل العرفان ١/ ٢٤٥.

(٤) ينظر: كتاب الْمَصَاحِف ١/ ١٨٣-١٨٩.

وحذَّره الفُرقة، فرجع واستجاب إلى الجماعة، وحثَّ أصحابه على ذلك(١).

فيستنتج من هذا أن الروايات التي أوردها الْفَرَّاء وغيره من أن حرف كذا في مصحف ابن مسعود، أو أبيٍّ، أو غيرهما، مكتوبٌ كذا أو مرسومٌ كذا، فيها نظرٌ؛ لأن الراجحَ أن الجميعَ قد استجابوا لأمر عثمانَ ﷺ بحرق المُصَاحِف. ولو سُلِّمَ بوجود تلك المصاحف فغاية ما هنالك أن ما نُقِلَ عن هذه المصاحف جاءنا بطريق الآحاد، الذي لا تقوم به حجة على قرآنية تلك الروايات، وتدخل في باب الشذوذ رسماً وقراءة.

هذا بشكلٍ عامٍّ، وأما بشكل خاصٍّ فبعضُ أمورِ الرَّسْم التي عزاها الْفَرَّاء إلى مصاحف الصحابة والتابعين يوجد عليها إشكالاتٌ عند النَّقْدِ والتمحيصِ.

ومن الأمثلة على ما وقع من ذلك عند الْفَرَّاء قوله عند تفسير قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]: "ورأيتُها فِي مصحفِ عَبْد الله منقوطةً بالثاء، وَقراءةُ النَّاسِ: ﴿فتبيَّنُوا﴾(٢) [الحجرات: ٦]، ومعناهما متقاربٌ؛ لأن قوله: ﴿فتبيَّنُوا﴾ أمهلوا حَتَّى تعرفوا، وَهذا معنى ﴿فَتَثَبَّتوا﴾"(٣).

وهذا الذي قاله الْفَرَّاءُ فيه نظر؛ فالمُصَاحِف في الصَّدْرِ الأَوَّلِ لم تكن

(١) الانتصار للقرآن ص: ٢٦٤.

(٢) قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ من التَّثَبُّتِ. وقرأ الباقون ﴿فتبيَّنُوا﴾ من التَّبَيُّنِ. [ينظر: النشر ٢/ ٢٥١. إتحاف فضلاء البشر ص: ٢٤٤].

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٧١.

مُعْجَمَةً، وأوَّل محاولةٍ لإعجام المُصَاحِف كانت في نهايةِ القرنِ الهجريِّ الأوَّلِ تقريباً[١]، فكيف يكونُ مصحفُ ابن مسعودٍ ﷺ منقوطاً والنقطُ قد وقع بعده بسنين؟! نعم قد يجاب عن هذا بأن الإعجام أُلحق بالمصاحف المنسوبة إلى ابن مسعود ﷺ بعد اختراع الإعجام، لكنه مجرَّدُ احتمالٍ، ولا بدَّ له من إثباتٍ.

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الْفَرَّاء من أن الحارثَ بنَ سويدٍ -وهو كوفيٌّ صَحِبَ عليَّ بن أبي طالبٍ، وعبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنهما- قد دفن مصحفه أيام الحجَّاجِ (ت ٩٥هـ)، يَرِدُ عليه أن الحارث بن سويد توفي سنة ٧١ أو ٧٢هـ، في ولاية ابن الزبير (ت ٧٣هـ)، في حين أن الحجَّاجَ بنَ يُوسُف وُلِّيَ على الْكُوفَة وَالْبَصْرَة سنة ٧٥هـ[٢].

فإن كان الْفَرَّاء يقصد أن الحارث قد دَفَنَ مصحفه بنفسه فذلك باطلٌ قطعاً، وتأباه التواريخ. وإن كان يقصد أن مصحفه دُفِنَ بعد وفاته فذلك ممكن، ولكنه يثير تساؤلات: من أقدم على دفنه؟ ولماذا؟ ومن الذي قام باستخراج هذا المصحف بعد ذلك؟ ومتى؟ وعند من بقي هذا المصحف طوال تلك السنين حتى وصل إلى أيام الْفَرَّاء ونظر الْفَرَّاء فيه؟

---

(١) كان هذا العمل بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ)؛ حيث أمر كلاً من: يحيى بن يعمر العدواني (ت قبل ١٠٠هـ)، ونصر بن عاصم الليثي (ت ٩٠ هـ) بإعجام المصحف. [ينظر: مناهل العرفان ١/ ٢٨١].

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى ٦/ ١٦٧. سمط النجوم العوالي ٣/ ٢٦١. تاريخ دمشق ١٢/ ١٩٨. مشاهير علماء الأمصار ص: ١٦٨. التعديل والتجريح ١/ ٥١٥. تهذيب التهذيب ٢/ ١٢٤.

ثـم إن للحجَّـاج –بغـضِّ النظـر عـن حَالِـهِ– فـضلاً في المحافظـةِ عـلى المُصَاحِف؛ فالحجَّاج إنـما كـان يـصادر المُصَاحِف المخالفـةَ لمصحفِ عـثمانَ ﷺ؛ فقد وَكَّلَ عاصماً الجحدريَّ، وناجيةَ بنَ رُمْحٍ، وعـليَّ بـنَ أَصَـمَعَ، بتتبّع المُصَاحِف، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحفٍ وجدوه مخالفاً لمصحف عثمان، ويعطوا صاحبه ستين درهماً[(١)]. فإن كان للحـارثِ بـن سـويدٍ مـصحفٌ قـد دُفن آنذاك فذلك حكمٌ عليه بأنه كان مخالفاً لمصحف عثمان ﷺ.

المطلب الثالث: مصاحف الأمصار المذكورة عند الْفَرَّاء ومدى دِقَّته في النقل عنها

تـضمن كتـاب الْفَـرَّاء الـنصَّ الـصريحَ عـلى كـلٍّ مـن مـصاحف أهـل المدينة، وأهل البصرة، وأهل الكوفة، وأهل الشام. وأما مصاحف أهل مكَّة فلم يصرح بذكرها؛ وإنما أومأ إليها إيماءً، كما سيأتي. وقد لاحَظَ الباحثُ أن الْفَرَّاء كان في بعضِ المواضعِ دقيقاً في نقله وعـزوه إلى تلـك المُصَاحِف، وفي مواضعَ أخرى كان غيرَ دقيقٍ. وفي الأمثلةِ الآتيةِ بيانٌ لكلٍّ.

فمن تصريحه بمصاحف أهل المدينة ما ذكره عنـد تفسير قولـه تعـالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهـف: ٣٦] قـال: "وفي بعـض مـصاحف أهـل المدينة ﴿مِنْهُمَا مُنْقَلَباً﴾؛ مردودة على الجنّتين"[(٢)]. وكلامه هـذا غـيرُ دقيـقٍ؛ فهي ليست كذلك في بعض مصاحف أهل المدينة فحسب؛ بل اتَّفَقَتْ جميعُ

(١) تأويل مشكل القرآن ص: ٣٧

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٤٤.

المُصَاحِف المدنيَّةِ، ومعها مصاحفُ أهلِ مكَّةَ والشَّامِ أيضاً على رسمها ﴿مِنْهُمَا﴾. ورسمت في مصاحفِ أهلِ الكوفةِ والبصرةِ: ﴿منها﴾ بغير ميمٍ؛ على التوحيد[١].

ونحو هذا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة: ٥٣]؛ حيث ذكر أنها في المُصَاحِف المدنية ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو[٢]. والكلامُ الدقيقُ أنها بغير واوٍ في مصاحفِ أهلِ مكَّةَ، والمدينةِ، والشامِ[٣].

ومن تصريحه بمصاحف أهل المدينة أيضاً ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢] قال الْفَرَّاء: "فِي مصاحف أهل المدينة (وأوصى)"[٤]. وكلامه فيه قصورٌ؛ فهي مرسومةٌ في المصحف الشامي كذلك[٥].

ومن تصريحه بذكر مصاحف أهل البصرة ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] قال الْفَرَّاء: "قرأها أهل الكوفة بالألف، وكذلك هِيَ فِي مصاحفهم، وأهل المدينة وأهل البصرة يقرؤون: ﴿حُسْنًا﴾ وكذلك هِيَ فِي مصاحفهم"[٦]. وكلامه هذا

(١) مختصر التبيين ٣/ ٨٠٧.
(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٣١٣.
(٣) ينظر: المقنع ص: ١٠٧. مختصر التبيين ٣/ ٤٤٨.
(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٨٠.
(٥) ينظر: المقنع ص: ١٠٦. مختصر التبيين ٢/ ٢١٠.
(٦) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٥٢.

دقيقٌ وموافقٌ لما هو معتمدٌ في كتب الرَّسْم[1]. وكلامه هذا نصٌّ أيضاً على ذكرِ مصاحفِ أهلِ الكوفةِ أيضاً.

وذكر الْفَرَّاء أن الألف أثبتت في كلمة «قواريرا» الأولى من قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦] وحُذِفَتْ من الثانية في مصاحفِ أهلِ البصرةِ[2]. وكلامه هذا أيضاً دقيقٌ وموافقٌ لما في كتب الرَّسْم[3].

ومن تصريحه بذكر مصاحف أهل الكوفة -غير ما تقدم- ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، قال الْفَرَّاء: "﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بالخفض. وفي بعضِ مصاحفِ أهلِ الكوفةِ وعُتُقِ الْمَصَاحِف (ذا القربى) مكتوبة بالألف"[4]. وأكَّده في موضعٍ آخرَ من كتابه بقوله: "... كما أن في بعض مصاحف أهل الكوفة (والجار ذا القربى)، ولم يقرأ بِهِ أحدٌ[5]"[6].

ومن تصريحه بذكر مصاحف أهل الشام ما ذكره عند تفسير قوله

(١) ينظر: المقنع ص: ١١١. مختصر التبيين ٤/ ١١١٨.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٢١٤.

(٣) المقنع ص: ٤٥- ٤٦. مختصر التبيين ٥/ ١٢٥٠- ١٢٥١.

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٢٦٧.

(٥) يحمل قول الفراء: "ولم يقرأ بِهِ أحدٌ" على القراءات المتواترة، وإلا فقد قرأ بذلك أبو حيوة، وهي قراءة شاذة. [ينظر: مختصر في شواذ القرآن ص ٣٣].

(٦) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ١١٤.

تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢]، قال الْفَرَّاء: "ولو قَرَأَ قارئ: ﴿والحبَّ ذا العصفِ والريحانَ﴾ لكان جائزًا، أي: خَلَقَ ذا وذا، وهي فِي مصاحف أهل الشام: ﴿والحبَّ ذا العصفِ﴾، وَلم نَسْمَع بها قارئاً"[(١)]. وكلامُهُ من حيثُ الرَّسْمُ صحيحٌ؛ فهي مرسومةٌ في المصحفِ الشاميِّ كما ذَكَرَ[(٢)]. وأما من حيثُ القراءاتُ فكلامُه غيرُ صحيحٍ؛ إذ قرأها ابنُ عَامِرٍ الشاميُّ ﴿ذا العصف﴾؛ كما هي مرسومةٌ في المصحفِ الشاميِّ[(٣)].

ومن تصريحه بذكر مصاحف أهل الشام أيضاً ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، قال الْفَرَّاء: "وقرأ القراء ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ و(إِنَّنَا)، وهي فِي مصاحف أهل الشام (إِنَّنَا)"[(٤)]. وكلام الْفَرَّاء هذا فيه غَبَشٌ وَعَدَمُ وُضُوحٍ؛ فالْمُصَاحِف مجمعةٌ على رسم هذا الموضع بألفين بينهما نبرتان. فمن قرأها ﴿أَئِنَّا﴾[(٥)] كانت النبرة الأولى صورةً للهمزة المكسور، ومن قرأها ﴿إِنَّنَا﴾ كانت النبرة الأولى صورةً للنون الأولى[(٦)]. وبهذا فإن رسمها متَّفَقٌ عليه في جميع

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ١١٤.

(٢) ينظر: المقنع ص: ١١٢. مختصر التبيين ٤/ ١١٦٥.

(٣) ينظر: التيسير ص: ٢٠٦. النشر ٢/ ٣٨٠. إتحاف فضلاء البشر ص: ٥٢٦.

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٩٩.

(٥) قرأ ابن عامر والكسائيُّ ﴿إننا﴾، وقرأ بقية العشرة ﴿أئنا﴾. [ينظر: تحبير التيسير ص: ٤٩٤. النشر ١/ ٣٧٣. إتحاف فضلاء البشر ص: ٤٣١].

(٦) المقنع ص: ٩٢. مختصر التبيين ٤/ ٩٥٦

الْمَصَاحِف، وليس الأمر كما ذكر الْفَرَّاء. وربما يُظنُّ أن الأمرَ قد التبسَ على الْفَرَّاء بين الرَّسْم والقراءاتِ، غير أن هذا الاحتمالَ بعيدٌ؛ فقد قرأها الكسائيُّ أيضاً بنونين!!

وأما تلميحه إلى الْمَصَاحِف المكيَّة فقد جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨]. قال الْفَرَّاء: "وحدثني أَبُو جَعْفَرٍ الرؤاسيُّ قَالَ: قلت لأبي عَمْرو بْنِ العلاءِ: ما هَذِهِ الفاءُ التي في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؟ قَالَ: جوابٌ للجزاءِ. قَالَ: قلتُ: إنها ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ مفتوحة؟ قَالَ: فَقَالَ: مُعَاذِ اللهَّ إنَّما هِيَ (إِنْ تَأْتِهِمْ)[١]. قَالَ الْفَرَّاء: فظننتُ أَنَّهُ أخذها عنْ أهل مكَّة؛ لأنَّه عليهم قَرَأَ، وهي أيضًا فِي بعض مصاحف الكوفيين: (تأتِهِمْ) بسِنَّةٍ واحدةٍ، ولم يقرأ بها أحدٌ منهم"[٢]. فقول الْفَرَّاء: "فظننتُ أَنَّهُ أخذها عنْ أهل مكَّة... إلخ" يُلْمِحُ فيه إلى أنها مرسومةٌ في مصاحف أهل مَكَّةَ كذلك. وهو ما صرَّح به الدانيُّ وأبو داود[٣].

---

(١) هي قراءة شاذةً، عزاها الهذليُّ إلى البزيِّ والسرنديبيِّ عن ابن كثير، والرؤاسيِّ عن أَبِي عَمْرٍو، وعمر بن عصام عن الكسائي. [ينظر: الكامل ص: ٤٠١. المحتسب ٢/ ٢٧٠].

(٢) معاني القرآن ٣/ ٦١.

(٣) ينظر: المقنع ص: ١١١. مختصر التبيين ٤/ ١١٢٤.

المطلب الرابع: الروايات المسندة عند الْفَرَّاء في رسم المصحف ومدى صحتها

تضمن كتاب (مَعَانِي الْقُرْآنِ) عدداً من الروايات المسندة التي لها تعلق برسم المصحف. ومن المعلوم أن طابع الرواية والسند كان هو الطابع المميز لشتى الفنون، ومنها ما يتعلق برسم المصحف. وهذه الروايات هي:

أولاً: ما أخرجه الْفَرَّاء في موضعين من كتابه عن أَبِي مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرِ[(١)]، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ[(٢)]، عَنْ أَبِيهِ[(٣)]، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[(٤)] [طه: ٦٣]، وَعَنْ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩] وعن قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢] فقالت: يا ابن

---

(١) محمد بن خازم، أبو معاوية الضرير الكوفي، ثقة أحفظ الناس لحديث الأعمش، وقد يهم في حديث غيره، وقد رمي بالإرجاء، ت ١٩٥هـ. [تقريب التهذيب ٢/ ٧٠. تهذيب التهذيب ٩/ ١٢٠].

(٢) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، ثقةٌ فقيهٌ ربما دلس، ت ١٤٥ هـ. [تقريب التهذيب ٢/ ٢٦٧. تهذيب التهذيب ١١/ ٤٤].

(٣) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي المدني، ثقةٌ فقيهٌ مشهور، ت ٩٤هـ. [تقريب التهذيب ١/ ٦٧١. تهذيب التهذيب ٧/ ١٦٣].

(٤) أي في قراءة من قرأ بتشديد نون ﴿إِنَّ﴾، و﴿ساحران﴾ بالألف، وبذلك قرأ جميع القراء ما عدا: ابن كثير، وأبا عمرو، وحفصٍ. [ينظر: النشر ٢/ ٣٢١. إتحاف فضلاء البشر ص: ٣٨٤].

أختي هذا كان خطأً من الكاتب[(١)].

وهذه الرواية -كرواياتٍ أخرى غيرها- اتُّخِذَتْ ذريعةً لدى بعض المشككين في القرآن للطعن في رسم المصحف وتلاوته، وقد أجابَ عنها العلماءُ بما لا يَتَّسِعُ المقامُ لذكره[(٢)]. وشَاهِدُنَا في هذا المقام أنه لا ينبغي لِلْفَرَّاء أن يُورِدَ مِثْلَ هذهِ الروايةِ أصلاً، وإن كان قد أَوْرَدَهَا فَلْيُورِدْهَا على سبيل النقض والإبطال، لا على سبيل الاستشهاد بها. والله المستعان.

ثانياً: ما أخرجه الْفَرَّاءُ عن أَبِي لَيْلَى السِّجِسْتَانِيِّ[(٣)]، عَنْ أَبِي حَرِيزٍ قَاضِي سِجِسْتَانَ[(٤)]، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَ: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]، وَأَنَّ أبا ليلى أعلمه أَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ فِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللهِ (خَيْرُ الْحَافِظِينَ)[(٥)].

---

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ١٠٦، ٢/ ١٨٣]. والأثر أخرجه أيضاً: أبو عبيد في فضائل القرآن ص: ٢٨٧. وابن أبي داود في المَصَاحِف ص: ١٢٩. والدانيُّ في المقنع ص: ١٢١-١٢٢. كلهم من طريق أبي معاوية بسنده المذكور عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) ينظر في الردود على تلك الروايات: الانتصار للقرآن ٢/ ٥٤٠. الكشاف ١/ ٥٩٠. الإتقان ١/ ٥٣٧. رسم المصحف وضبطه ص: ٥٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم ص: ٣٧٣. رسم المصحف ص ٢١٤.

(٣) متفق على ضعفه. ترجمته في: الكامل في ضعفاء الرجال ٥/ ٢٨١. تاريخ ابن معين ١/ ٦٤. التاريخ الكبير ٥/ ٢٠٧. الضعفاء والمتروكون للنسائي ص: ٦٥. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ١٧٧. المجروحين لابن حبان ٢/ ٣٢. الضعفاء والمتروكون للدارقطني ٢/ ١٦٠. الضعفاء والمتروكون لابن الجوزي ٢/ ١٤٣.

(٤) مختلف في حاله. ترجمته في: التاريخ الكبير ٥/ ٧٢. أحوال الرجال ص: ١٥٥. الضعفاء والمتروكون للنسائي ص: ٦١. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٣٤. الثقات لابن حبان ٧/ ٢٤. الكامل في ضعفاء الرجال ٥/ ٢٦٠. تهذيب التهذيب ٥/ ١٦٤.

(٥) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٤٩.

وهذه الرواية غيرُ مستقيمةِ الإسناد أيضاً، وفيها -فضلاً على حال رواتها- انقطاعٌ؛ فأبو حريزٍ لم يلق ابن مسعودٍ، ولا أحداً من الصحابة رضي الله عنهم[١].

وفوق ذلك فيها تناقضٌ لا يخفى؛ فكيف قَرَأَها ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾، وهي مَكْتُوبَةٌ فِي مُصْحَفِه هو، لا في مصحفِ أحدٍ سِواهُ (خَيْرُ الْحَافِظِينَ)!!

ثالثاً: ما أخرجه الْفَرَّاءُ عن أَبِي إِسْحَاقَ التَّيْمِيِّ[٢]، عَنْ أَبِي رَوْقٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا كَمَا هِيَ فِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللهِ (يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ)[٣].

وهذه الروايةُ غيرُ مستقيمةِ الإسنادِ أيضاً، وفيها فَوْقَ ذلك أن القراءةَ المذكورةَ لا تُعَدُّ مِنَ القِرَاءَاتِ بمعناها المعروف المصطلح عليه؛ لأنها مما يطلق عليه اسم «القِرَاءَات التَّفْسِيرِيَّة»؛ وهي ما كان يكتبه بعض الصحابة على مصاحفهم من تفسيرٍ لبعض كلمات القرآن الكريم[٤]. وهي مخالفةٌ

(١) ينظر: تهذيب التهذيب ٥/ ١٦٤.

(٢) قال عنه البخاري: منكر الحديث، ومن قال فيه البخاري منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. ترجمته في: المجروحين لابن حبان ٣/ ٩. التاريخ الكبير ٧/ ٣٨٦. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٣١١. الكامل في ضعفاء الرجال ٨/ ١٩٩. الضعفاء لأبي نعيم ص: ١٤٧. تهذيب التهذيب ١٠/ ٦٢.

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٤٢١.

(٤) ينظر: صفحات في علوم القراءات ص: ٨٢.

للرسم العُثْمَانِيِّ، وهو غير محتملٍ لها.

رابعاً: ما أخرجه الْفَرَّاءُ عن أَبِي جَعْفَر الرؤاسيِّ، قَالَ: قلت لأبي عَمْرو ابن العلاء: ما هَذِهِ الفاء التي في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؟ قَالَ: جوابٌ للجزاء. قَالَ: قلت: إِنْها ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ مفتوحة؟ قَالَ: فَقَالَ: مُعَاذِ اللهَّ إنَّما هِيَ (إِنْ تَأْتِهِمْ)[1].

وهذه الروايةُ ليست مرفوعةً، ولا موقوفةً، ولا مقطوعةً؛ وإنما هي رواية عن أبي عمرو البصريِّ. وفيها -لو سُلِّمَتْ صحَّتُهَا- تناقضٌ لا يخفى؛ فلو كانت صحيحةً فَلِمَ لَمْ يقرأ بها أبو عمرو!! وجميع الطرق الصحيحة عنه أنه قرأها ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾!!

والخلاصةُ بعد ذكر هذه الرواياتِ الأربعِ المتضمِّنَةِ أموراً متعلقةً برسم المصاحف التي أوردها الْفَرَّاء بإسناده لا تحملُ أموراً تتفق مع ما هو مُقَرَّرٌ في علم الرَّسْمِ؛ بل على العكس من ذلك؛ فإنها تحملُ طعناً واضحاً في أمور الرَّسْمِ ومقرَّراتِهِ.

---

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٦١.

المبحث الثاني: موقف الْقُرَّاء من الالتزام بالرسم أو عدم الالتزام به

تحتلُّ مسألةُ الالتزامِ بالرَّسمِ أو عدمِ الالتزامِ بهِ مكاناً بارزاً في علم الرَّسْم، وتأخذ حيِّزاً كبيراً، ونقاشاً واسعاً، بين قائلٍ بوجوب الالتزام بالرسم وعدم مخالفته، وقائل بجواز مخالفته[1].

والذي يتَّصل بموضوعِ هذا البحثِ هو موقفُ الْقُرَّاءِ من هذهِ المسألةِ.

وقد ظَهَرَ للباحثِ من خلالِ هذا البحثِ أنَّ موقفَ الْقُرَّاء من هذه المسألةِ اضْطَرَبَ اضْطِرَاباً كَبِيراً؛ ففي بعض المواضعِ يَقِفُ مُدَافِعاً عن رسم المصحف، ولا يؤيِّدُ مخالفته، وفي مواضع أخرى يُرَى عكس ذلك. وفي المطلبيْن الآتييْن استعراض وبيانٌ لكلا موقفيْه.

---

(١) ينظر: رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة ص: ٦٣ وما بعدها.

المطلب الأول: كلام الْفَرَّاء المؤيِّد للالتزام برسم المصحف

اشتملَ كتابُ (مَعَانِي الْقُرْآنِ) على عِدَّةِ مَواضِعَ كان الْفَرَّاء فيها مؤيِّداً ومدافعاً عن رسم المصحف، وأنه لا تَجُوزُ مُخالفتُهُ، ولا يُقرأ بها كان خارجاً عنه، وأبرز هذه المواضع التي تحدث فيها الْفَرَّاء عن ذلك:

١ – قوله عند تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]: "وقد قرأها الْحَسَن (وشركاؤكم) بالرفع[١]، وإِنَّما الشركاء هاهنا آلهتُهم، كأنه أراد: أجمعوا أمرَكم أنتُمْ وشركاؤُكم. ولست أشتهيه؛ لِخلافه للكتاب"[٢].

ومما يسجل هنا للفراء حرصه على عدم مخالفة رسم المصحف. وأما زعمه بأنها مخالفةٌ للكتاب؛ أي: لرسمِ المصحف فغيرُ سديدٍ؛ لأنها قد رُسمت كذلك في بعض الْمَصَاحِف؛ نقل الأَنْدَرَابِيُّ عن الزعفرانيِّ أنّ هذه الكلمة مرسومةٌ في بعض الْمَصَاحِف (وشُرَكَاؤُكُم) بواوٍ بين الألفِ والكافِ الأخيرةِ[٣]. ولو لم تَكُنْ مرسومةً في أيٍّ مِنَ الْمَصَاحِفِ بالواو فإن قراءتها بالرفعِ مما يحتمله الرَّسْمُ؛ وقد قرَّرَ الْفَرَّاءُ نفسُه في أكثرَ مِنْ موضعٍ مِنْ كِتَابِهِ أنَّ الهمزةَ وحروفَ المدِّ الثلاثةَ قد كَثُرَ حذفُها في الْكِتَابِ[٤]، فيحتمل هنا أنها

---

(١) وهي قراءة يعقوب الحضرمي من العشرة، فلا وجه لإنكار القراءة المذكورة أو تضعيفها؛ لأنها متواترة. [ينظر: النشر ٢/ ٢٨٦. إتحاف فضلاء البشر ص: ٣١٦].

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٤٧٣.

(٣) الإيضاح في القراءات ص: ١٣٠.

(٤) ينظر على سبيل المثال: ١/ ٨٨، ٢/ ٢٧، ٣/ ١٦٠.

رسمت بغير صورةٍ للهمزةِ؛ كي تحتمل القراءتين.

٢ – قوله معقباً على قراءةِ أبي عمرٍو: ﴿إِنَّ هَـٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣]: "ولست أشتهي عَلَى أنْ أخالفَ الكتابَ"(١).

والحقُّ أنَّ قراءةَ أبي عمرٍو ليست مخالفةً للرسم كما يظهر من كلام الْفَرَّاء؛ فقد نصَّ أبو داود أنها رُسمت بحذف الألف التي بعد الهاء، والألف التي قبل النون(٢). وتكون الحكمةُ من حذفِ الألفِ التي قبلَ النُّونِ لكي تحتملَ الكلمةُ القراءتين: ﴿هـذان﴾ و﴿هـذين﴾، وقد نصَّ الْفَرَّاء نفسُه على أنَّ حروفَ المدِّ الثلاثةَ قد كَثُرَ حذفُها في رسمِ القرآنِ الكريم كما تَقَدَّمَ.

٣ – قوله عند تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]: "ومن العرب من يقول: «أُخْرَاتِكُمْ»، ولا يجوز فِي القرآن؛ لزيادة التاء فيها على كتاب الْمَصَاحِف"(٣).

٤ – يبلغ الْفَرَّاء الذروةَ في تأييده للالتزام برسم المصحف، وعدم مخالفته في ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦] حيث يقول: "وقوله: ﴿فما آتَانِ اللهُ﴾ ولم يقل (فَما آتانِيَ اللهُ) لأنها محذوفة الياءِ من الكتاب، فمَنْ كَانَ مِمَّنْ يَسْتَجِيزُ الزيادةَ فِي القرآنِ من

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ١٨٣.

(٢) مختصر التبيين ٤/ ٨٤٦.

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٢٣٩.

الياءِ والواوِ اللاتي يحذفن مثل قولـه: (وَيَدْعُ الإنْسانُ بِالشَّرِّ) فيثبتُ الواو وليست فِي المصحف، أو يقول «المنادي» لـ«المناد» جاز لـه أن يقول في (آتَانِ)[1] بإثبات الياء، وجاز لَهُ أن يُحرّكها إلى النصب كما قيل (وَما لِيَ لا أَعْبُدُ)، فكذلك يجوز (فَمَا آتانِيَ اللهُ). ولست أشتهي ذَلِكَ، ولا آخُذُ بِهِ؛ اتّباعُ المصحف إِذَا وجدتُ لَهُ وجهًا من كلامِ العَرَبِ وقِرَاءَةِ القُرَّاءِ أَحَبُّ إليَّ من خِلافِهِ. وقد كَانَ أَبُو عَمْرو يقرأ ﴿إِنَّ هذينِ لساحران﴾ ولست أجترئ عَلَى ذَلِكَ. وقرأ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُونَ﴾ فزاد وَاوًا فِي الكتاب، ولست أَسْتحبُّ ذَلِكَ"[2].

وهذا النص زاخرٌ بالعديد من الفوائد، منها:

* أبدى الْفَرَّاء ميله إلى قراءة من لم يثبت الياء في ﴿فَمَا آتانِ﴾[3] معللاً ذلك بموافقة الرَّسْم.

* أن إثبات الياء في ﴿فَمَا آتَانِ﴾ وإن كان محتملاً ولـه وجهٌ في الرَّسْم والقراءة إلا أنَّ حذفَهَا أَحْسَنُ؛ لموافقته الرَّسْمَ موافقةً تامةً، وليس احتمالاً وتقديراً.

---

(١) في النسخة المطبوعة (أتمدونن)، والظاهر أنه تصحيف؛ فنسق الكلام يقتضي أن تكون (ءاتانِ). والله تعالى أعلم.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٩٣-٢٩٤.

(٣) قرأ بإثبات الْيَاءَ فِيهَا مَفْتُوحَةً وَصْلاً: نَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَحَفْصٌ، وَرُوَيْسٌ. وحذفها الباقون وصلاً؛ لالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ. وأثبتها في الوقف يعقوبُ بلا خلافٍ، وقالون، وأبو عمرو، وحفصٌ، وقنبلٌ، بخلفٍ عنهم. والباقون بحذفها وجهاً واحداً. [ينظر: النشر ٢/ ١٨٧. إتحاف فضلاء البشر ص: ١٥٥].

* يقرر قاعدةً صريحةً واضحةً بأن اتباع المصحف أحبُّ إليه من خلافه.

* لا يخفى ما في الكلام من تحاملٍ على أبي عمرو، واتهاماتٍ خطيرةٍ له بأنه يجترئ على مخالفة رسم المصاحف.

وعلى الرغم من هذه الفوائد الزاخرة إلا أن هذا الكلام يحمل في طيَّاته أموراً لا تنسجمُ مع ما هو مُقَرَّرٌ في علم الرَّسْم. سيأتي التنبيه إليها في موضعها من هذا البحث.

المطلب الثاني: كلامُ الْفَرَّاءِ المؤيِّدُ لعدم الالتزام برسم المصحف

والذي يُشار إليه ها هنا أن عَدَدَ المواضع التي أيَّد فيها رسم المصحف، ودَافَعَ عنه، هي أضعافُ عَدَدِ المواضع التي لم يؤيده فيها؛ فالباحث لم يعثر من خلال بحثه إلا على موضع واحدٍ من هذا القبيل، وهو ما ذكره الفرّاءُ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]: "وكتبت بلام ألف، وألف بعد ذلك، ولم يكتب في القرآن لها نظيرٌ. و ذلك أنهم لا يكادون يستمرون في الكتاب على جهةٍ واحدةٍ، ألا ترى أنهم كتبوا ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥] بغير ياء، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ [يونس: ١٠١] بالياء!! وهو من سوء هجاء الأوّلين. ﴿وَلأَأَوْضَعُواْ﴾ مجتمع عليه في المُصَاحِف. وأما قوله: ﴿أَوْ لَأَأَذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١] فقد كتبت بالألف وبغير الألف. وقد كان ينبغي للألف أن

تحذف من كله؛ لأنها لام زيدت على ألف كقوله: "لأخوك خير من أبيك". ألا ترى أنه لا ينبغي أن تكتب بألف بعد لام ألف"[1].

ويمكنُ تسجيلُ عدةِ ملحوظاتٍ حولَ هذا النصِّ، أبرزها:

* أنه لم يكن للفراء رأيٌ واحدٌ مستمرٌّ على جهةٍ واحدةٍ في مسألة الالتزام برسم المصحف أو عدم الالتزام به؛ كما هو واضح من هذا النص مقارنةً مع النصوص المتقدمة.

* في هذا النصِّ ما يقرب من التَّصريحِ بأنَّ الفراء يعتبر الرَّسْمَ اجتهاديّاً، وليس هذا فحسب؛ بل ينسب الصحابة -الذينَ هُم خيرُ القرونِ- إلى قلَّةِ المعرفةِ بالهجاءِ: "وهو من سوءِ هجاءِ الأَوَّلين".

* كان هذا النص من الْفَرَّاء مُتَّكَأً لمن جاؤوا بعد الْفَرَّاء وأنكروا كون الرَّسْم توقيفيّاً، ومنهمُ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، كما سيأتي في موضعه من هذا البحث.

* يمكن الجمع بين ما ذكره الْفَرَّاء بقوله: "اتّباعُ المصحف إِذَا وجدتُ لَهُ وجهًا من كلام العرب...إلخ" وقوله: "وهو من سوءِ هجاءِ الأَوَّلين" بأنَّ اتباع الرسم وعدم مخالفته من وجهة نظر الفرّاء هو على سبيل الاستحباب وليس على سبيل الوجوب، ويلمس هذا الموقف واضحاً من خلال تعليقه الكلام على الشرط: "إذا وجدتُ لَهُ وجهًا من كلام العرب"، وعليه فإن لم يجد له وجهاً -كما يزعم- فاتباع الرسم ليس بعزيمةٍ. والله تعالى أعلم.

---

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٤٣٩.

* ما أيد به الْفَرَّاء كلامه من المقارنة بين ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ أمرٌ يسجل لعلم الرَّسْمِ لا عليه؛ فمن فوائد الرَّسْمِ أنه حفظ لهجات العرب، ومنها: حذف الياء لغير جازم؛ لمراعاة النطق بها عند الوصل، أو اكتفاءً بالكسرة التي قبلها، كما هي لغةُ هُذَيلٍ(١)، فحذفت في ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ على لغتهم، وأثبتت في ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ على لغة غيرهم. وكلٌّ صحيحٌ في لغة العرب. وقد صرح الْفَرَّاء نفسُه بجواز ذلك في العربية؛ فقال في موضعٍ آخرَ من كتابه: "وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ﴾ [هود: ١٠٥] كتب بغير الياء، وهو فِي موضعِ رفعٍ، فإنْ أَثْبَتَّ فِيهِ الياء إذا وصلت القراءة كَانَ صَوَابًا، وإنْ حَذَفْتَهَا فِي القطع والوصل كان صواباً... وكلُّ ياءٍ أوْ واوٍ تسكنَان وما قبل الواو مضمومٌ وما قبل الياء مكسورٌ فإن العرب تحذفهما وتَجتزئُ بالضمَّة من الواو، وبالكسرة من الياء"(٢).

* قوله: "ولم يكتب في القرآن لها نظيرٌ" غير صحيحٍ؛ لأن لهذه الكلمةِ نظائرَ ذكرها أهلُ الرَّسْم؛ وهي خمسة: ﴿لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]، ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]، ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ [الحشر: ١٣]، ففي بعض المُصَاحِف رسمت بألفٍ،

---

(١) ينظر: البرهان ١/ ٣٩٨. تاريخ القرآن الكريم ص: ١٧٨. سمير الطالبين ص: ١٧. المدخل لدراسة القرآن الكريم ص: ٣٤٩. رسم المصحف وضبطه ص: ٧٠.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٧.

وفي بعضها بدون ألفٍ[1]، وهو الذي جرى عليه العمل[2].

* جانب الفراءُ الصوابَ، وعكس واقعَ رسمِ الكلماتِ في المصحف؛ فالصواب أن المُصَاحِف اتَّفَقَتْ على زيادة الألف في ﴿لأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾ واختلفت في غيرها؛ وهي المواضعُ الخمسةُ المتقدمُ ذِكْرُهَا.

والخلاصة بعد كل هذا أن الْفَرَّاء لَمْ يقف موقفاً واحداً من مسألة الالتزام بالرسم أو عدم الالتزام به، كما ظهر جلياً من النقطتين السابقتين.

(١) المقنع ص: ٣٦، ٥١، ١٢٠. المحكم ص: ١٧٤ - ١٧٦. مختصر التبيين ٢/ ٣٧٩ - ٣٨١.

(٢) دليل الحيران ص: ٢٧٠. سمير الطالبين ص: ٥٤.

المبحث الثالث: الأمور التي تؤخذ على الْفَرَّاء في رسم المصاحف

تبيَّن مما تقدم أن للفراء معرفةً جيدةً في علم الرَّسْمِ، وأنه كان على اطِّلاعٍ واسعٍ برسومِ المُصَاحِفِ الشريفةِ، غيرَ أن كتابَهُ (مَعَانِي الْقُرْآنِ) قد وقعَ فيه عددٌ من الأمورِ التي تُؤْخَذُ على الْفَرَّاء، ولا تتفق مع ما هو مُقَرَّرٌ في علم الرَّسْم. وفي المطالب الآتية تسجيلٌ لأبرز الأمور التي تُؤْخَذُ على الْفَرَّاء في هذا المجال:

المطلب الأول: عدم التعقيب على مواضعَ فيها مخالفةٌ صريحةٌ لرسم المصاحف أو طعنٌ فيه

سلك الْفَرَّاء سبلاً شتَّى في الترجيحِ بين تفسيرٍ وتفسيرٍ، وبين إعرابٍ وإعرابٍ، معتمداً في ذلك على أمورٍ عدةٍ، وكان من بين ما اعتمد عليه قراءاتٌ لا يوافق رسمُها رسمَ المُصَاحِف المجمع عليه، وتنوعت مواقف الْفَرَّاء من مخالفةِ بعضِ القراءاتِ لرسمِ المُصَاحِف؛ ففي الوقت الذي بيَّن ووضح ضعف بعض القراءات بسبب مخالفتها لمرسوم المُصَاحِف سَرَدَ الْفَرَّاءُ الكثير من القراءات المخالفة للرسم مخالفةً كبيرةً، ساكتاً عنها أحياناً، ومستشهداً ومرجِّحاً بها أحياناً أخرى.

ومن الأمثلة على سكوته وعدم تعقيبه:

١ – القراءة التي نسبها إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِين غُلظاء عَلَى الكافرين)[1] بدلاً من: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٣١٣.

[المائدة: ٥٤].

٢ – القراءة التي نسبها إلى ابن مسعود ﷺ أيضاً: (فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ) بدلاً من: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ [محمد: ٢٠]

٣ – القراءة التي نسبها إلى ابن مسعود ﷺ أيضاً: (خاشِعةً أبصارُهُم)[١]، بدلاً من: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القمر: ٧].

٤ – أنه رأى في مصحف ابن مسعود ﷺ: (وَوَجَدَكَ عديماً فَأَغْنَى) بدلاً من: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]. ولم يعقب الْفَرَّاء عليها بردٍّ ولا إبطالٍ؛ بل جعلها في قوة المتواتر حيث قال: "والمعنى واحد"[٢].

والأمثلة على هذا كثيرةٌ[٣].

ومن الأمثلة على اعتماده على رسوم غير صحيحة في الترجيح:

١ – ما ذكره عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: ٦١]، قال الْفَرَّاء: "فإن شئت جعلت الألف التي في «مصراً» ألفاً يُوقَفُ عليها، فإذا وصلت لم تنوِّن فيها ... وإن شئت جعلت «مِصْر» غير المصر التي تُعرَف، يريد اهبطوا مِصرًا من الأمصار، فإن الَّذِي سألتم لا يكون إلا فِي القرى والأمصار. والوجه الأول أحب إليَّ؛ لأنها فِي

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ١٠٥.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٢٧٤.

(٣) ينظر على سبيل المثال: معاني القرآن ١/ ٩٥، ١/ ١٤٥، ١/ ٢٤٩، ٢/ ١٣٥، ٢/ ٢٩٣، ٢/ ٣٥٠، ٣/ ١٨٩، ٣/ ٢٧٢، ٣/ ٢٨٦.

قراءة عَبْد اللهَّ «اهْبِطوا مِصْرَ» بغير ألف، وفي قراءة أُبَيٍّ: «اهْبِطُوا فَإِنّ لَكُمْ ما سَأَلْتُم وَاسْكُنُوا مِصْر»"(١). وواضح هنا كل الوضوح كيف بنى الْفَرَّاء ترجيحه على قراءتين تخالفان الرَّسْم، والثانية منهما مخالفتها للرسم كبيرةٌ جدّاً.

٢ - ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ١٤٩]، قال الفراء: "«ربَّنا» نصب بالدعاء ﴿لئن لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا﴾، ويقرأ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾(٢). والنصبُ أحبّ إليَّ؛ لأنها فِي مصحف عبد الله: (قالوا ربَّنَا لئن لَمْ ترحمنا)"(٣). ومخالفةُ القراءة المذكورة للرسم ظاهرةٌ واضحةٌ.

٣ - ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ قال الْفَرَّاء: "وهي فِي مصحف أُبَيٍّ: (كأنما يَغْشَى وجوهَهم قِطع من الليل مظلمٌ)، فهذه حجةٌ لمن قرأ بالتخفيف"(٤). ومن العجب تسميته إياها «حجة» مع هذه المخالفة الفاحشة لرسم الْمَصَاحِف!!

٤ - ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٤٣.

(٢) قرأ حَمْزَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: ﴿لئن لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا﴾ بتاء الْخِطَابِ، وَنَصَبِ بَاء ﴿رَبَّنَا﴾، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا﴾ بِياء الْغَيْبِ، وَرَفْعِ الْبَاءِ. [ينظر: النشر ٢/ ٢٧٢. إتحاف فضلاء البشر ص: ٢٩٠].

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٣٩٣..

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٤٦٢.

لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩]، قال الْفَرَّاء: "وَفِي قراءة عبد الله (**لا تقتلوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَك**)، وإنما ذكرت هَذَا لأني سَمِعْتُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ ابْنُ مَرْوَانَ السُّدِّيُّ، يَذْكُرُ عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عبّاسٍ[١]، أنه قال: إنها قالت (قرة عين لي ولك لا)[٢] وَهُوَ لَحْنٌ. وَيُقَوِّيكَ عَلَى رَدِّهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ الله"[٣].

وقد كان يكفي الْفَرَّاءَ أن يرده بالنحو[٤]، كما فعل في غير هذا الموضع من كتابه، وليس بحاجةٍ إلى قراءةٍ شاذةٍ مخالفةٍ للمصحف من أجل أن يردَّ بها ما نُسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

٥ - قوله إن كلمة ﴿**النُّبُوَّةَ**﴾ [آل عمران: ٧٩] مرسومةٌ في مصحف ابن مسعود: «النّبييّة» بياءين[٥]. وهو رسمٌ مخالفٌ لجميعِ الرسومِ المعتمدةِ في المصاحفِ.

---

(١) ويعرف هذا الإسناد بأنه «سِلْسِلَةُ الْكَذِبِ». [ينظر: تدريب الراوي ص: ١١٤].

(٢) ينظر: إيضاح الوقف والابتداء ص: ٤٣٢. منار الهدى ص: ٥٧٩.

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٣٠٢.

(٤) وذلك أنه لو كان الوقف على: (قرة عينٍ لي ولك لا) لوجب أن قال: «تقتلونه»؛ لأن الفعل كان لم يَعُدْ مسبوقاً بلا الناهية، فوجب رفْعُهُ بثبوت النون. [ينظر: إيضاح الوقف والابتداء ص: ٤٣٢. منار الهدى ص: ٥٧٩].

(٥) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ١٣٦.

المطلب الثاني: آراؤه المخالفةُ للمقرر المعلوم من أُسُسِ عِلْمِ الرَّسْمِ

ظَهَرَ من خِلالِ هذا البحثِ أن للفرَّاءِ اطلاعاً على رسوم المُصَاحِف، وقد تكلم في العديد من المواضع من كتابه فَأَجَادَ وَأَفَادَ، غَيْرَ أَنَّه في مَوَاضِعَ أُخْرَى قد خالف بعضاً من الأسس المعلومة المقررة في مرسوم المُصَاحِف. ومن الأمثلة على ذلك:

١ – جزمُه بمخالفة قراءة ﴿يتأَلَّ﴾[١] في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢]، قال الْفَرَّاء: "وقرأ بعض أهل المدينة (ولا يَتَأَلَّ أولو الفضل) وهي مخالفة للكتاب"[٢]. والحقُّ أنَّها ليست مخالفةً للكتاب كما ذكر؛ فقد نقل ابنُ الجزريِّ عن أَبِي مُحَمَّدٍ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْقَرَّاب فِي كِتَابِهِ (عِلَلِ الْقِرَاءَاتِ) أَنَّهُ كُتِبَ فِي المُصَاحِف «يتل»؛ أي بدون صورة للهمزة، وأنه سَاغَ لِذَلِكَ الاخْتِلافُ فِيهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ[٣].

٢ – قوله بأنه رأى في مصحف ابن مسعود كلمة «أخذتم» مكتوبةً فيه (وَأَخَتُّمْ)[٤]، أي بدون ذال. وهذا مُنابذٌ لأصول الكتابة والرَّسْم؛ إذ من أصول الكتابة القياسية تصوير الكلمة بحروف هجائها دون الزيادة عليها أو النقصان منها[٥]. ومن ناحية علم الرَّسْم فلا يُعلم هذا الذي ذكره الْفَرَّاء

(١) وهي قراءة أبي جَعْفَرٍ المدنيِّ. [ينظر: النشر ٢/ ٣٣١. إتحاف فضلاء البشر ص: ٤١٠].
(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٤٨.
(٣) النشر ٢/ ٣٣١.
(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٨٩.
(٥) ينظر: سمير الطالبين ص: ٢٠.

عن ابن مسعود في نقلٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ.

٣ – ما ذكره عن رسم كلمة «لؤلؤ»؛ قال الْفَـرَّاء: "وقولـه: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣] قرأ أهـل المدينـة هَـذِه والتـي فِي الملائكـة[١] (وَلُؤْلُـؤاً) بـالألف. وقـرأ الأعمـش كلتيْهما بـالخفض. ورأيتهـا فِي مـصاحف عبـد الله والتـي فِي الحج خاصَّة (ولُؤْلُأً) وَلا تَهَجَّأْه[٢]. وَذَلِكَ أن مصاحفه قد أجرى الْهَمْز فيها بالألف فِي كل حال إن كَانَ ما قبلها مكسورًا أو مفتوحًا أو غير ذَلِكَ. والتي فِي الملائكة كتبت فِي مصاحفنا (ولؤلؤ) بغير ألف، والتي في الحـج (وَلُؤْلُـؤاً) بـالألف، فخفـضهما ونـصبُهما جـائز، ونـصب التـي فِي الحـج أمكـن؛ لمكـان الألف من التي فِي الملائكة"[٣].

وكلام الْفَرَّاء هـذا فيـه عـدة أمـورٍ لا تَتَّفِـقُ مَـعَ الْمُقَـرَّرِ في عِلْـمِ الرَّسْـمِ، أهمها:

* مـا نقلـه عـن ابـن مـسعودٍ ﷺ لا يحتملـه الرَّسْـم البتـة، ولم يـرد في مصحفٍ من الْمَصَاحِف العُثْمَانِيّة المعتمدة.

* جزمُه بأن التي في الحجِّ بالألفِ صوابٌ مطابقٌ لما في كتـب الرَّسْـم، وأما جزمُه بأن التي في فاطرٍ بغير ألفٍ غير سديدٍ؛ ففيها خلافٌ مشهورٌ بـينَ علماءِ الرَّسْمِ[٤].

---

(١) أي سورة فاطر، الآية: ٣٣.

(٢) أي: لا تراع في النطق هجاء هذه الحروف فتقول: (لولا) بالألف من غير همز. اهـ. من كلام المحققين. [معاني القرآن ٢/ ٢٢٠].

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٢٠.

(٤) ينظر: المقنع ص: ٤٧. مختصر التبيين ٤/ ٨٧٢.

* قولُه بأن نصبهما وخفضهما جائز فيه نظرٌ؛ فأما خفض المرسومة بالألف فجائزٌ ومقروءٌ به، وهو موضعُ الحجِّ التي اتفقت المُصَاحِف على رسمه بالألف، وكذا خفضُ غيرِ المرسومِ بالألفِ واضحٌ جليٌّ، وأما نصبُ المرسومِ بغيرِ ألفٍ فاحتمالُه بعيدٌ، ولا يأتي إلا بتكلُّفٍ وتمحُّلٍ، ولعل هذا ما أشار إليه الْفَرَّاءُ بقوله: "ونصب التي فِي الحجِّ أَمْكَنُ؛ لمكان الألف من التي فِي الملائكة".

٤ – تضعيفه قراءةَ ﴿يألتكم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤] قال الْفَرَّاء: "وقوله: ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ لا ينقصكم... والقُرَّاءُ مجمعون عليها، وَقَدْ قَرَأَ بعضهم[(١)]: ﴿**لا يَأْلِتْكم**﴾، ولست أشتهيها؛ لأنها بغير ألف كتبت في المُصَاحِف، وليس هذا بموضع يجوز فيه سقوط الهمز ألا ترى قوله: (يأتون)، و(يأمرون)، و(يأكلون) لم تلق الألف فِي شيء مِنْهُ؛ لأنها ساكنة، وإنما تلقى الهمزة إِذَا سكن ما قبلها، فإذا سكنت هِيَ تعني الهمزة ثبتت فلم تسقط. وإنما اجترأ عَلَى قراءتها «يألتكم» أَنَّهُ وجد ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١] في موضع، فأخذ ذا من ذَلِكَ[(٢)].

والصوابُ أنَّ رسمها بغير ألف محتملٌ، وله نظائرُ في الرَّسْمِ؛ فكلمة

(١) هي قراءة أبي عمرٍو البصريِّ، ويعقوبَ الحضرميِّ. [ينظر: النشر ٢/ ٣٧٦. إتحاف فضلاء البشر ص: ٥١٣].

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٧٤.

﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ رسمت من غير ألف في جميع مواضعها، واختلف في موضع الأعراف، مع أنها ساكنةٌ[1]!! وحتى لو لم يكن لها نظائرُ في القرآن الكريم فإنها تُرسم بغير ألف؛ لتحتمل القراءتين. فظهر أن ما قاله الْفَرَّاء غير دقيقٍ. والظاهر أنه أراد بكلامِهِ الغمزَ في أبي عمرٍو؛ بدلالة ما تَمَّمَ به كلامَهُ المتقدِّمَ نقلُه.

المطلب الثالث: تناقضه في المسألة الواحدة من موضع إلى آخر في كتابه

وهذا الأمرُ ليسَ بالظاهرةِ البارزةِ في كتابِهِ؛ وأبرزُ مثالٍ لهذا ما ذكره في أكثرَ من موضعٍ من كتابِهِ حولَ قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] فقد أوردها الْفَرَّاء في أكثرَ مِنْ مَوْضِعٍ من كتابِهِ، وكلامُهُ في كلِّ مَوْضِعٍ يختلف عن الموضع الآخر.

فقال في موضع: "وأكثر ما يكون النصب فِي العطوف إذا لم تكن فِي جواب الجزاء الفاءُ، فإذا كانت الفاءُ فهو الرفع والجزم. وإذا أجبت الاستفهام بالفاء فنصبت فانصب العطوف، وإن جزمتها فصوابٌ، من ذلك قوله فِي المنافقين: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [١٠]

(١)نص أبو داود على الحذف في جميع القرآن وسكت عن موضع الأعراف، ولذا جرى عمل المشارقة بإثبات ألفه، وأطلق البلنسيُّ الحذف فشمل الجميع، وبه جرى عمل المغاربة. [ينظر: دليل الحيران ص: ١٧٥].

رددت «وَأَكُنْ» على موضع الفاء؛ لأنها فِي محل جزمٍ؛ إذ كان الفعل إذا وقع موقعها بغير الفاء جزم. والنصب على أن ترده على ما بعدها، فتقول: «وأكونَ»، وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْد اللَّه بْن مَسْعُود «وأكونَ» بالواو. وقد قرأ بها بعض القراء[١]. قال: وأرى ذلك صواباً؛ لأن الواوَ ربما حُذِفَتْ مِنَ الكتاب وهي تُرادُ؛ لكثرة ما تنقص وتزاد فِي الكلام، ألا ترى أنهم يكتبون «الرحمن» و«سليمن» بِطَرْحِ الألفِ، والقراءةُ بإثباتها!! فلهذا جازت. وقد أُسقطت الواوُ من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ومن قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ الآيةَ [الإسراء: ١١]، والقراءة على نيَّة إثبات الواو... فهذا شاهدٌ على جواز: ﴿**وَأَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾"[٢].

وقال فِي موضع ثانٍ: "وقد كَانَ أَبُو عَمْرو يقرأ ﴿**إِنَّ هـذين لَسَاحِرَانَ**﴾، ولست أجترئ عَلَى ذَلِكَ. وقرأ (فَأَصَّدَّقَ وَأَكُونَ) فزاد وَاوًا فِي الكتاب. ولست أَسْتحبُّ ذَلِكَ"[٣].

وقال في موضع ثالث: "وقوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. يُقال: كيف جزم (وأكن) ، وهي مردودة عَلَى فعل منصوب؟ فالجواب فِي ذَلِكَ أن الفاء لو لم تكن فِي (فأصدق) كانت مجزومة، فلما رددت (وأكن) ردّت عَلَى تأويل الفعل لو لم تكن فِيهِ الفاء، ومَن أثبت الواو ردَّه عَلَى الفعل الظاهر فنصبه، وهي فِي قراءة عَبْد اللَّه، ﴿**وَأَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾. وَقد يجوز

(١) وهي قراءة أبي عمرٍو البصريِّ. [ينظر: النشر ٢/ ٣٨٨].

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٨٧-٨٨.

(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٩٣- ٢٩٤.

نصبها فِي قراءتنا، وإن لم تكن فيها الواو؛ لأن العربَ قَدْ تسقط الواو فِي بعض الهجاء، كما أسقطوا الألف من «سليمن» وأشباهه"[1].

وواضحٌ هنا كيف أنه أجاز في الموضعِ الأَوَّلِ والثالثِ قراءة ﴿**وَأَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، والتمس لها التعليلات والتوجيهات، وفي الوقت ذاته زَعَمَ أن أبا عمرو زاد واواً في رسم المُصَاحِف!! ومما يلحظ في هذا السياق أن الْفَرَّاء لم يخطِّئْ هذه القراءةَ في الموضعين: الأول والثالث؛ لأنه نسبها إلى مصحف ابن مسعود، وأما في الثاني فخطَّأها لأنه نسبها إلى أبي عمرو بن العلاء، وكثيراً ما ذكر الْفَرَّاء أبا عمرو في موضع النقد والتخطئة.

المطلب الرابع: ادعاؤه أموراً غيرَ موجودةٍ في رسوم المُصَاحِف

وقع من الفراء بعض السقطات أو الهنات في ما ذكره من أمورٍ متعلقةٍ برسوم المصاحف، ومن ذلك أنه ادَّعى وجودَ كلماتٍ مرسومةٍ في بعض المُصَاحِف على نحوٍ ما، وعند التَّدْقِيقِ وَالتَّمْحِيصِ فإن علماء الرَّسْمِ قد نصوا على عدم وجود ذلك كذلك، أو أنهم لم يذكروها في كتبهم، ومن ثَمَّ فلا يكونُ نَصُّ الْفَرَّاء على تلكَ الأمورِ حجةً مأخوذاً بها في الرَّسْم.

ومن ذلك :

١ – قوله إن قول الله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مرسومٌ في بعضِ مصاحفِ أهلِ الكوفةِ، وعُتُقِ المُصَاحِف: (ذا القربى) بالألف[2]. وكلام

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ١٦٠.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٢٦٧، ٣/ ١١٤.

الْفَرَّاء هذا مجانبٌ للصواب، ومخالفٌ للمقرر في علم الرَّسْم، وقد نقل الدانيُّ كلامَ الْفَرَّاءِ هذا وَخَطَّأَهُ فيه؛ قال الدانيُّ: "ولم نجد ذلك كذلك في شيءٍ من مصاحفهم"(١).

٢ – قوله إن ترك الهمزة من كلمة (الرُّؤْيَا) ونطقها (الرُّيَّا) جائزٌ في كلامِ العربِ، وأمّا في القرآن فلا يجوز؛ لمخالفته الكتاب(٢). وهذا وهمٌ من الفرّاء رحمه الله، وهو مخالفٌ لما في كتب الرَّسْم؛ فقد أجمعت المُصَاحِف على رسمها بغير واوٍ؛ دلالةً على تخفيفها(٣). فالفراء قد عَكَسَ المَسْأَلَةَ.

(١) المقنع ص: ١٠٧.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٣٥.

(٣) ينظر: المقنع ص: ٤٣. مختصر التبيين ٣/ ٧٠٦.

المبحث الرابع: القيمةُ العلميَّةُ لتراثِ الْفَرَّاء في عِلْمِ الرَّسْمِ
وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مظاهرُ التَّمَيُّزِ العِلْمِيِّ للفراء في عِلْمِ الرَّسْمِ

على الرغم من كون كتاب (مَعَانِي الْقُرْآنِ) غير مخصَّصٍ أصلاً للحديث عن قضايا الرَّسْمِ ومسائله غير أنَّ فيه كمّاً لا بأس به من تلك القضايا والمسائل، ومما يسترعي الانتباه في هذا المجال أنَّ نصوص الفراء هذه تعدُّ مِنْ أقدم النصوص التي بأيدينا في بابها؛ حيث إن أقدم كتب الرَّسْم التي وصلتنا هي: كتاب (مرسوم الخط)، لأبي بكر بن الأنباريِّ (ت ٣٢٨هـ)، وكتاب (البديع في الرَّسْم العُثْمَانِيِّ في المصاحف الشريفة)، لابن معاذٍ الجهنيِّ (ت ٤٠٧هـ)، وكتاب (هجاء مصاحف الأمصار)، لأبي العباس المهدويِّ (ت ٤٤٠هـ)، وكتاب (المقنع في رسم مصاحف الأمصار)، لأبي عمرو الدانيِّ (ت ٤٤٤هـ)، وكلُّها جاءت بعد الفراء. وعليه فإن اشتمال كتاب (مَعَانِي الْقُرْآنِ) على مثل هذه القضايا يعدُّ سبقاً علمياً، ومظهراً من مظاهر التميز عند الفراء، يستحق الإشادة به، والتنويه إليه.

وأبرز ما يمكن تسجيله تحت هذا الموضوع يأتي في هذه النقاط:

١ - لا تجوز القراءة بما تحتمله اللغة إن لم يكن موافقاً للرسم

إذا كانتْ قراءةٌ ما صحيحةً من حيث اللغة، وكانت هذه القراءةُ لا توافقُ الرَّسْمَ فإنها تكون مردودةً؛ لأن موافقة الرَّسْم شرط من شروط قبول القراءة.

وقد قَرَّرَ الفراءُ رحمه الله هذه القاعدةَ في أكثرَ من موضعٍ من كتابِهِ؛ ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ [الأنعام: ٩٩] قال: "الوجهُ الرَّفْعُ في القنوان؛ لأن المعنى: ومن النَّخْلِ قِنوانه دانية. ولو نُصِبَ: وأخرج من النخل من طلعها قنوانًا دانيةً لجَازَ في الكلام، ولا يُقرأ بِهَا؛ لمكان الكتاب"[١].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، قال الْفَرَّاء: "والعربُ تَقُولُ: صَلقُوكم. ولا يَجوز في القراءة؛ لِمخالفتها"[٢].

وبهذا فالْفَرَّاء من أوائل من أسسوا لشرط موافقة القراءة للرَّسمِ، ثم جاء بعده الجمُّ الغفير من العلماء الذين نصوا على هذا الشرط؛ ومنهم: أبو عُبيدٍ القاسمُ بنُ سلام (ت ٢٢٤هـ)[٣]، ومكيُّ بنُ أبي طالبٍ القيسيُّ (ت ٤٣٧هـ)، وابن الجزريِّ (ت ٨٣٣هـ)[٤]، وغيرُهم.

٢ – موافقة القراءة للرَّسْمِ قد تكون تامةً، وقد تكون تقديراً

مما نصَّ عليه أئمةُ علمِ الرَّسْمِ والقراءةِ أنه يُشترط في القراءةِ الصحيحةِ موافقةُ رسمِ أحدِ الْمَصَاحِف العُثْمَانِيّةِ ولوِ احتمالاً، قال ابنُ

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٣٤٧.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٣٣٩.

(٣) ينظر: إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٣٣١.

(٤) ينظر: النشر، ١/ ٩، ١١.

الجزريِّ: مُوَافَقَةُ الرَّسْم قَدْ تَكُونُ تَحْقِيقاً؛ وَهُوَ الْمُوَافَقَةُ الصَّرِيحَةُ، وَقَدْ تَكُونُ تَقْدِيراً؛ وَهُوَ الْمُوَافَقَةُ احْتِمَالاً... وَقَدْ تُوَافِقُ بَعْضُ الْقِرَاءَاتِ الرَّسْمَ تَحْقِيقاً، وَيُوَافِقُهُ بَعْضُهَا تَقْدِيراً؛ نَحْوَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ فَإِنَّهُ كُتِبَ بِغَيْرِ أَلْفٍ فِي جَمِيعِ الْمَصَاحِفِ، فَقِرَاءَةُ الْحَذْفِ تَحْتَمِلُهُ تَحْقِيقًا، وَقِرَاءَةُ الأَلِفِ تَحْتَمِلُهُ تَقْدِيراً[١].

ولدى البحث في كتاب (مَعَانِي الْقُرْآنِ) يتبيّن أن الفراء قد سبق إلى الإشارةِ إلى هذا الشرطِ في أكثرَ من موضعٍ من كتابِهِ، ومن ذلك قولُه عند تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]: "وقوله: ﴿فما آتَانِ اللهُ﴾ ولم يقل (فما آتانِيَ اللهُ) لأنَّها محذوفةُ الياءِ من الكتاب"[٢].

ومن الأمثلة عليه أيضاً قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠]: "وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْد اللهَّ بْن مَسْعُود (وأكونَ) بالواو. وقد قرأ بها بعض القراء... وأرى ذلك صواباً؛ لأن الواو ربما حذفت من الكتاب وهي تراد؛ لكثرة ما تنقص وتزاد في الكلام، ألا ترى أنهم يكتبون «الرحمن» و«سليمن» بطرح الألف والقراءة بإثباتها!! فلهذا جازت"[٣].

(١) النشر ١/ ١١. وينظر: شرح النويري ١/ ١١٧. إتحاف فضلاء البشر ص: ١٥.
(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٩٣-٢٩٤.
(٣) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٨٧-٨٨.

ونصوصُ الفراء في هذهِ المسائلِ هيَ من أقدمِ النُّصُوصِ على هذه الدقيقةِ من دقائقِ علمِ الرَّسْمِ.

٣ – اطِّلاعُهُ على وجوهِ الرَّسْمِ المتعددةِ للكلمةِ الواحدةِ

ومما يسجلُ للفراءِ في مجالِ علم الرَّسْمِ أن كلامَه قد تضمنَ في بعضِ المواضعِ الإشارةَ إلى وجوهِ الرَّسْمِ المتعددةِ للكلمةِ الواحدةِ، ومن ذلك حديثُه عن أنَّ كلمةَ (يهيئ) في قوله تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] قد رُسِمَتْ في بعض المُصَاحِف المعتمدة في علم الرَّسْم (وَيُهَيِّأْ) بالألف. قال الفراء: "... لأن العرب تكتب: «يَسْتَهْزِئُ» «يَسْتَهْزِأُ»، فيجعلون الهمزة مكتوبةً بالألف في كل حالاتها، يكتبون: «شَيْءٌ» «شَيْأٌ»، ومثله كَثِيرٌ في مصاحف عبد الله، وفي مصحفنا: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ [الكهف: ١٦]، و﴿يُهَيِّأْ﴾ بالألف"[1]. فقوله: "وفي مصحفنا: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ و﴿يُهَيِّأْ﴾ بالألف" يدلُّ على سَعَةِ اطلاعٍ على مرسومِ المُصَاحِف في هذه الكلمةِ، وكلامُه في هذا الموضعِ موافقٌ لما هو منصوصٌ عليه في أمهاتِ كتبِ الرَّسْمِ؛ فقد نَقَلَ الغازي بنُ قيسٍ الأندلسيُّ (ت ١٩٩هـ) رسمَ هذه الكلمةِ بالألفِ، على نحو ما ذَكَرَهُ الفَرَّاءُ، وشاعَ وذاعَ نسبةُ ذلك الرَّسْم إلى الغازي بنِ قيسٍ وَحْدَهُ[2]، وَقَلَّ –إن لم يكن قد انعدم– من نسبها إلى الفراء، علماً بأنَّهما متعاصران.

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٣٠.

(٢) ينظر: المقنع ص: ٥٧، ٩٠. دليل الحيران ص: ٢٦٢.

ومن هذا القبيل أيضاً ما ذكره من أن قوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ [محمد: ١٨] مرسومٌ في مصاحفِ أهلِ مكَّةَ؛ وبعضِ مصاحفِ الكوفيين: (تأتِهِمْ) بِسِنَّةٍ واحدةٍ[١]. ولم يعثر الباحثُ بعدَ البحثِ والتنقيبِ على نصٍّ أقدمَ من نصِّ الفراءِ في هذه المسألةِ. وما ذكره هو عينُ ما نصَّ عليه أئمةُ الرَّسْم[٢].

المطلب الثاني: أثر الفراء في من جاء بعده في ما يتعلق بعلم الرَّسْم.

كان لما كتبه الفراءُ حولَ علم الرَّسْمِ في كتابه (مَعَانِي الْقرْآنِ) أثرٌ واضحٌ في من جاؤوا بعده.

ومن ذلك تأثيره في ابن جريرٍ الطبريِّ (ت ٣١٠هـ)، وقد ظهر هذا التأثيرُ في مواضعَ كثيرةٍ من تفسيرِ الطبريِّ، ونصوصُهُمَا في ذلك متشابهةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ جدّاً.

ومن الأمثلة على هذا تفسيرُهُمَا قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] قال الفراء: "وقرأها الحَسَن: (لَعْنَةُ اللهَّ وَالْملائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعُونَ)[٣]، وهو جائزٌ في العربية، وإن كان مخالفاً للكتاب"[٤]. وقال الطبريُّ: "وذلك وإن

(١) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٦١.

(٢) ينظر: المقنع ص: ١١١. مختصر التبيين ٤/ ١١٢٤.

(٣) هذه قراءةٌ شاذَّةٌ، وهي تُنسب إلى الحسنِ البصريِّ. [ينظر: تفسير البحر المحيط ١/ ٦٣٥. الدر المنثور ١/ ٣٩٣. تفسير الآلوسي ٢/ ٢٩. إتحاف فضلاء البشر، ص ١٩٦].

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٩٦.

كـان جـائزاً في العربيـة فغـيرُ جـائزةٍ القـراءةُ بـه؛ لأنـه خـلافٌ لمـصاحف المسلمين"[١].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً تفسيرهما لأول سورةِ الشورى؛ قال الفراء: "ذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «حم سق»، ولا يجعل فيها عينا، ويقول: السين كل فرقةٍ تكون، والقاف كل جماعةٍ تكون... ورأيتها فِي بعض مصاحف عَبْد اللهَّ «حم سق»، كما قَالَ ابْنُ عَبَّاس"[٢]. وقال الطبريُّ: "وذُكر عن ابن عباس أنه كان يقرأه: «حم سق» بغير عين، ويقول: إن السين عمر كل فرقة كائنةٍ، وإن القاف كل جماعة كائنةٍ... وذُكر أن ذلك في مصحف عبد الله على مثل الذي ذكر عن ابن عباس من قراءته من غير عين"[٣].

وممن تأثروا بالفراء أيضاً في مسائل الرَّسْم ابنُ فارسٍ (ت ٣٩٥هـ)، فقد احتجَّ لكراهةِ مخالفةِ رسمِ المصحفِ بقول الفراءِ: "اتّباعُ المصحف إِذَا وجدتُ لَهُ وجهًا من كلام العرب وقراءة القرّاءِ أَحَبُّ إليَّ من خلافه"[٤].

وممن تأثروا بالفراء ونقلوا عنه بعض ما في قضايا الرَّسْم: أبو عمرو الدانيُّ (ت ٤٤٤هـ)، وأبو داود بن نجاح (ت ٤٩٦هـ). ومن ذلك ما نقلاه عن الفراء في رسم كلمة (لؤلؤاً) في سورتي الحج وفاطر[٥] أنهما مرسومان في

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٢١.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٠٠.

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/ ٢٩٣. الصاحبي في فقه اللغة ص: ١٨.

(٥) في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، ومثلها في فاطر: ٣٣.

مصاحف أهل المدينة والكوفة بألفين[1].

والظاهر أن الزمخشريَّ (ت ٥٣٨هـ) نقل عن الفراء ما يتعلق بمصحف الحارث بن سويدٍ الذي تقدم ذكره في هذا البحث، ونصهما في ذلك يكاد يكون واحداً[2]. والزمخشريُّ قد أكثر في تفسيره من النقل عن الفراء.

وأذكر أخيراً ممن تأثروا بالفراء في مسائل الرَّسْم، ولكن كان هذا التأثُّرُ سلبيّاً، ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)؛ حيث تكلَّم عن أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم لم يكونوا متقنين لصناعة الخط؛ لمكان العرب من البداوة والتوحّش، وبُعْدِهِمْ عن الصَّنَائِعِ، وَأَنَّهُمْ رَسَمُوا المصحف بخطوطهم وكانت غيرَ مُسْتَحْكِمَةٍ في الإجادة، فخالف الكثيرُ من رُسُومِهِمْ ما اقتضتهُ أقيسةُ رسومِ صناعةِ الخطِّ عندَ أهلِهَا. ووصف من يقولون: إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا محكمين لصناعة الخطِّ بأنهم «مغفلون»، ومثَّل لسوءِ خطِّ الصحابة –بحسب زعمه– بزيادة الألف في رسم كلمة ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١][3].

وما إخال ابنَ خلدونَ في هذا المقام إلا متأثراً بالفراء؛ فهو مَنْ نصَّ على أن زيادة الألف في ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ومثيلاتها هو "من سوء هجاء الأوَّلين"[4]. ونَصُّ ابنِ خلدونَ يحاكي نَصَّ الفراءِ، ويتقاطع معه تقاطعاً واضحاً.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) المقنع ص: ٤٨. مختصر التبيين ٤/ ٨٧٤.

(٢) ينظر: مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣/ ٦٨. الكشاف ٤/ ٣٤٤.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١/ ٥٢٦..

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ ١/ ٤٣٩.

الخاتمة:

وفيها أبرز النتائج التي تَمَّ التَّوَصُّلُ إليها من خلال البحث، وهي:

١ – اشتمل كتاب (مَعَانِي الْقرْآنِ) للفراء على كمٍّ كبيرٍ من قضايا علم الرَّسْم؛ منها ما يتعلق بأصول الرَّسْم ومصادره، ومنها ما يتعلق برسم بعض الكلمات.

٢ – كان الْفَرَّاء رحمه الله مطّلعاً على كثيرٍ من الاختلافات الموجودة بين مصاحف الأمصار، بل كان مطلعاً على دقائقَ كثيرةٍ من دقائقها.

٣ - يسجل للفراء السبق في تقرير بعض الأصول العظيمة لعلم الرَّسْم؛ كسبقه في تقرير أن كل ما صح لغةً لا يصح قراءةً حتى يوافق رسم المصحف.

٤ – كان للفراء أثرٌ واضح في من جاؤوا بعده في ما يتعلق برسم الْمَصَاحِف، وبعض هذه التأثيرات كان في الجانب الحسن، وبعضها كان بعكس ذلك.

٥ – اضطرب موقف الْفَرَّاء اضطرابا واضحاً في مسألة الالتزام برسم المصحف أو عدم الالتزام به. ولكن أغلب نصوصه مؤيدة للالتزام به.

٦ – يؤخذ على الْفَرَّاء بعض المآخذ في مجال رسم المصحف، وهي متفاوتة في عمقها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المراجع والمصادر

- **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي (ت ١١١٧هـ)، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
- **أحوال الرجال**، إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني (ت ٢٥٩هـ)، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البَستوي، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان.
- **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ- ١٩٩٤م.
- **الانتصار للقرآن**، القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) تحقيق: محمد عصام القضاة، دار الفتح، عَمَّان- دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
- **إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ**، أبو بكر محمد ابن القاسم بن بشار الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- **الإيضاح في القراءات**، أَحْمَد بن أَبي عُمَرَ الأَنْدَرَابِيّ (ت بعد ٥٠٠هـ)،

أطروحة دكتوراة، دراسة وتحقيق: منى عدنان غني، بإشراف الأُستاذ الدكتور : غانم قدُّوري حمد، كلية التربية للبنات في جامعة تكريت، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.

- **البحر المحيط،** أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- **البداية والنهاية،** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- **البديع في الرَّسْم العُثْمَانِيّ في المصاحف الشريفة،** محمد بن يوسف بن معاذ الجهني (ت ٤٠٧هـ)، تحقيق: حمدي سلطان العدوي، دار الصحابة، طنطا، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- **البرهان في علوم القرآن، محمد بن بَهادر بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)،** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا.
- **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة،** مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ)، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

- **تاج العروس من جواهر القاموس،** أبو الفيض محمّد مرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- **التاريخ الأوسط،** محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، مكتبة دار التراث - حلب، القاهرة ط١، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.
- **تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم،** المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي (ت ٤٤٢هـ) تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- **تاريخ القرآن الكريم،** محمد طاهر بن عبد القادر الكردي (ت ١٤٠٠هـ)، مطبعة الفتح، جدة، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.
- **التاريخ الكبير،** محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- **تاريخ بغداد،** أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
- **تاريخ دمشق،** أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- **تأويل مشكل القرآن،** أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت

٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **تحبير التيسير في القراءات العشر**، محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق: أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان، عمَّان، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عرفان عبد القادر حسونة العشا، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- **التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح**، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق: أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، حققه: محمود محمد شاكر، خرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- **التيسير في القراءات السبع**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: أوتو برتزل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢،

١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

- **الثقات**، أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- **الجرح والتعديل**، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٢٧١هـ- ١٩٥٢م.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت،١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
- **دليل الحيران على مورد الظمآن في فني الرَّسْم والضبط**، إبراهيم بن أحمد المارغني التونسي (ت ١٣٤٩هـ)، تحقيق: عبد السلام البكاري. دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.
- **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر= (تاريخ ابن خلدون)**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨ م
- **رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية**، غانم قدوري الحمد، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، بغداد، ط١، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- **رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة**، شعبان محمد إسماعيل، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢.

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الآلوسي)**، شهاب الدين محمود بن عبدالله الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، عبد الملك بن حسين العصامي المكي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨ م
- **سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين**، علي محمد الضباع (ت ١٣٧٦هـ)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- **شرح طيبة النشر في القراءات العشر**، أبو القاسم محمد بن محمد النُّوَيْري (ت ٨٥٧هـ)، تحقيق: مجدي محمد باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ- ٢٠٠٣م.
- **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت ٣٩٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- **صفحات في علوم القراءات**، عبد القيوم عبد الغفور السندي، المكتبة الإمدادية، ط١، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

- **الضعفاء والمتروكون**، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرحيم محمد القشقري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- **الضعفاء والمتروكون**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- **الضعفاء والمتروكون**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب ط١، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- **الضعفاء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق: فاروق حمادة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.
- **الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.
- غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، عني بنشره ج برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- **غريب الحديث**، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- **فضائل القرآن**، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان

العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

- **الفهرست**، محمد بن إسحاق بن النديم (ت ٤٣٨هـ)، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- **القاموس المحيط**، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- **الكامل في القراءات العشر**، يوسف بن عليّ بن محمد الهذلي (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: جمال الشايب، مؤسسة سما للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ- ٢٠٠٧م.
- **الكامل في ضعفاء الرجال**، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- **كتاب العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **كتاب المصاحف**، أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٦هـ)، تحقيق: محمد بن عبده، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التّنْزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو

الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- **لسان العرب**، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**، محمد بن حبان التميمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط١، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: علي النجدي ناصف ، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح شلبي، وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م .
- **المحكم في نقط المصاحف**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: عزة حسن، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- **مختصر التبيين لهجاء التنزيل**، أَبُو دَاوُدَ سليمان بن نجاح (ت ٤٩٦هـ)، تحقيق: أحمد شرشال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع**، الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، مكتبة المتنبي، القاهرة.
- **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبة (ت

١٤٠٣هـ)، مكتبه السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

- **مرسوم الخط**، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**، محمد بن حبان التميمي البُستي (ت ٣٥٤هـ) تحقيق: مرزوق على إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
- **معجم الأدباء**، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- **معجم المؤلفين**، عمر بن رضا كحالة (ت ١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **معجم مقاييس اللغة**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- **معرفة الرجال عن يحيى بن معين** (ت ٢٣٣هـ)، رواية أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز، تحقيق: محمد كامل القصار، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- **المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
- **منار الهدى في بيان الْوَقْف والابتدا**، أحمد بن محمد بن عبد الكريم

الأشموني، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ط٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- **النشر في القراءات العشر**، محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تصحيح ومراجعة: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.
- **هجاء مصاحف الأمصار**، أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

موقف المخالفين لأهل السنة والجماعة في الاعتقاد من القراءات القرآنية "دراسة نظرية تطبيقية"

إعداد

د. نمشة بنت عبدالله الطواله

د. شريفة بنت أحمد بن علي الحازمي

د. نمشة بنت عبدالله الطواله

- الأستاذ المساعد بقسم القراءات بجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن.
- حصلت على درجة الدكتوراه من قسم القرآن وعلومه بكلية التربية التابعة لكليات البنات سابقا بأطروحتها : (القراءات القرآنية وأثرها في علوم القرآن).
- حصلت على درجة الماجستير من قسم القرآن وعلومه بكلية التربية التابعة لكليات البنات سابقا بأطروحتها : (نكات القرآن لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن المقرئ من أول سورة آل عمرآن إلى نهاية سورة يونس ، دراسة وتحقيق).

د. شريفة بنت أحمد بن علي الحازمي

- الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن.
- حصلت على درجة الدكتوراه من قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية التابعة لكليات البنات سابقاً بأطروحتها: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» دراسة تحليلية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة.
- حصلت على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة الملك سعود بأطروحتها: العمل وعلاقته بالإيمان عند الفرق الإسلامية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أما بعد .. فإن القرآن كلام الله تعالى وحجته البالغة على عباده، تلقاه جبريل عليه السلام سماعا من الله جل في علاه ؛ ونزل به جبريل عليه السلام فتلقاه النبي ﷺ سماعا من جبريل، فكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلما كانت السنة التي حضر فيها أجل النبي ﷺ عارضه جبريل بالقرآن مرتين ؛ وقد أنزل الله ﷻ القرآن على سبعة أحرف أباح لنبيه ﷺ القراءة بها ليوسع على أمته ؛ ولم تقع الإباحة بأن يكون لكل واحد منهم أن يبدل لفظة مكان لفظة من بعض اللغات من تلقاء نفسه ؛ وإنما كل ذلك مضبوط بالتلقي.(١)

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية: (١/ ٣٠).

وأقرأ جبريل عليه السلام النبي ﷺ القرآن، فتلقاه منه لفظا وأداء ؛ ثم أقرأه النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم كما أقرأه إياه جبريل وكان النبي ﷺ يستمع إلى قراءتهم ويرشد الأمة للأخذ عن أتقنهم، وأمر النبي ﷺ صحابته بتبليغ ما سمعوه فقال :" بلغوا عني ولو آية " فحمله الصحابة إلى من بعدهم وأدوه كما سمعوه، ثم أقام الله لكتابه أئمة ثقات فأدوه إلى من بعدهم كما سمعوه وكلهم يرويه بالسند إلى رسول الله ويتلقى آخرهم عن أولهم ؛ سائرون في إقرائهم على السنة والاتباع لا الرأى والابتداع ؛ وكل ما ثبتت القراءة به عن النبي ﷺ صار أصلا يرجع إليه في الأحكام كلها ؛ وعلى ذلك صار أهل السنة والجماعة " المتمسكون بسنة رسول الله ﷺ الذين اجتمعوا على ذلك ؛ وهم الصحابة والتابعون ؛ وأئمة الهدى المتبعون لهم ؛ ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد والقول والعمل إلى يوم الدين ؛ الذين استقاموا على الاتباع، وجانبوا الابتداع ؛ في أي مكان وأي زمان "[1] والذين كانت لهم العناية الكبرى بالقراءات وأدائها وبنفي تحريف الغالين وانتحال المبطلين عنها ؛ إذ العناية بها متصلة بالعناية بكتاب الله تعالى وبحفظه وبتعظيمه وإجلاله وهو من واجب الذب عن دين الله تعالى.

ولما كان الباطل يبين حينا ويلتبس حينا فلا يظهر لكل أحد كان هذا البحث إسهاما في الذب عن الحق ، وكشفا لبعض صور التحريف والغلو تجاه القراءات القرآنية.

وهو يقع في قسمين أحدهما نظري بين فيه موقف المخالفين لأهل

(١) بحوث في عقيدة أهل السنة: ص١٧

السنة في الاعتقاد من القراءات القرآنية من حيث الثبوت والدلالة وقد عرضنا فيه موقف المعتزلة، وموقف الأشعرية، وموقف الرافضة الإمامية والزيدية من الشيعة إذ إنها المواقف الأكثر بروزا وغيرها لا يخرج عنها غالبا.

والقسم الثاني هو القسم التطبيقي الذين يتبين من خلاله بالأمثلة والنماذج موقف هؤلاء الفرق تجاه القراءات القرآنية من خلال ما سطروه في كتبهم في هذا الباب .

ثم كانت الخاتمة لذكر أهم نتائج هذا البحث .

نسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

القســـم الأول
القسم النـظري

وفيه مباحث:

- المبحث الأول: موقف المعتزلة من القراءات القرآنية
- المبحث الثاني: موقف الأشاعرة من القراءات القرآنية
- المبحث الثالث: موقف الشيعة من القراءات القرآنية

المبحث الأول
موقف المعتزلة من القراءات القرآنية

المطلب الأول: التعريف بالمعتزلة:

المعتزلة فرقة كلامية ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري،حين اعتزل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد مجلس الحسن البصري لاختلافهما معه في حكم مرتكب الكبيرة وقولهما أنه في منزلة بين المنزلتين ؛ يعنون منزلتي الإيمان والكفر[(١)] ؛ وذكر ابن تيمية أنهم إنما سموا بذلك لأنهم اعتزلوا الجماعة في قولهم بالمنزلة بين المنزلتين وتخليد أهل الكبائر في النار ؛ وذلك بعد موت الحسن البصري [(٢)]؛ وهم يرون أنه " ليس يستحق أحد .. اسم الاعتزال ؛ حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ؛ والعدل ؛ والوعد والوعيد ؛ والمنزلة بين المنزلتين ؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " [(٣)] وقد اشتهرت المعتزلة بمنهجها العقلي المتطرف في بحث العقائد الإسلامية وغلوها في تقديم العقل على النقل ؛ ولها ألقاب عديدة منها الجهمية لموافقتها لجهم بن صفوان وأتباعه في مسائل عدة منها نفي الصفات الإلهية ؛ ومنها القدرية والمجوسية لقولهم أن العبد يخلق فعل نفسه ؛ والوعيدية لقولهم في مرتكب الكبيرة، وهم يلقبون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ؛ وبأهل الحق، ونحو ذلك [(٤)].

---

(١) انظر :الملل والنحل: (١/ ٤٣-٤٦)،ومقالات الإسلاميين: (١/ ٢٣٥)،والفرق بين الفرق:ص١١٢ ،والمعتزلة وأصولهم الخمسة:ص ١٤

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٧/ ٤٨٤) (١٤/ ٣٥٠).

(٣) الانتصار للخياط:ص ١٨٨-١٨٩

(٤) انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة:ص ١٤، ٢٢- ٢٦

المطلب الثاني: موقف المعتزلة من القراءات القرآنية من حيث الثبوت:

خالف المعتزلة إجماع أهل السنة[١] في مسألة ثبوت القراءات القرآنية المتواترة، فهم يرون أن القراءات السبع آحاد وليست متواترة . قال العطار:"هذا الحكم – أي تواتر القراءات السبع - مجمع عليه بين أهل السنة إلا من شذ من الحنفية كصاحب البديع، فإنه ذهب إلى أنها مشهورة، وذهب المعتزلة إلى أنها آحاد غير متواترة والمراد نفي التواتر عن قراءة الشيخ المخصوص بتمامها كنافع -مثلا- بل منها ما هو آحاد ومنها ما هو متواتر، وليس المراد نفي التواتر من أصله وإلا لزم نفي التواتر عن القرآن كله والإجماع خلافه.[٢]."أ.هـ.

وأُثر عن بعض أئمتهم إجازتهم القراءة بالمعنى. قال الباقلاني: "قال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءة وأوجه وأحرف إذا كانت تلك الأوجه صوابا في اللغة العربية، وإن لم يثبت أن النبي صلى الله عله وسلم قرأها، بخلاف رأي القياسيين واجتهاد المجتهدين، وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه، وخطئوا من قال بذلك وصار

(١) المراد بمفهوم أهل السنة هنا المفهوم العام الذي يقابل الشيعة فيدخل فيه كل من سوى الشيعة من الفرق الإسلامية انظر: حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين للعقل: ص٣١، منهج الأشاعرة في العقيدة ١٥-١٦

(٢) حاشية العطار على جمع الجوامع للسبكي: (١/ ٢٢٨)،وانظر: البحر المحيط في أصول الفقة للزركشي: (١/ ٣٧٦)،والتحبير شرح التحرير في أصول الفقة لأبي الحسن على المرداوي الحنبلي: (٣/ ١٣٦١)،وشرح الكوكب المنير للفتوحي: (١/ ٢٠٣).

إليه."[1]أ.هـ

وقال الزركشي: "القراءات توقيفية وليست اختيارية، خلافا لجماعة منهم الزمخشري، حيث ظنوا أنها اختيارية تدور مع الفصحاء واجتهاد البلغاء.[2]"أ.هـ.

وقد روي أن عمرو بن عبيد مرّ على أبي عمرو بن العلاء فقال له: كيف تقرأ (وإن يَستَعتبوا)؟ فقال أبو عمرو: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ بفتح الياء في(يستعتبوا) وبفتح التاء في(المعتبين). فقال عمرو ابن عبيد: ولكني أقرأ (وإن يُسْتعتَبوا فما هم من المعتِبين) بضم الياء في (يستعتبوا) وكسر التاء في(المعتبين). فقال أبو عمرو: ومن هنالك أبغض المعتزلة، لأنهم يقولون برأيهم.[3]

وربما وصلت الجرأة ببعض أئمة المذهب إلى وضع القراءة. فقد ذكر الذهبي في ترجمة واصل بن عطاء[4]أنه كان يُمْتَحَنُ بأشياء في الراء، ويُتَحَيَّل لها حتى قيل له: "اقرأ أول سورة براءة"، فقال على البديهة: "عَهْدٌ من الله ونبيه إلى الذين عاهدتهم من الفاسقين فسيحوا في البسيطة هلالين

(١) الانتصار للقرآن للباقلاني: (١/ ٦٩)

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي: (١/ ٣٢١) .وينفي الدومي عن الزمخشري اعتقاده أن القراءات اجتهادية، ويعتذر له عن تضعيفه القراءات وردها بتشديد علماء القراءات على معرفة النحو وقواعد العربية حتى لا يلحن القارئ. انظر: القراءات المتواترة في تفسير الزمخشري دراسة نقدية لمحمد محمود الدومي: ص ٢٧٢-٢٨٩.

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة للالكائي: (٤/ ٨١٧).

(٤) وكان هو وعمرو بن عبيد رأسا الاعتزال.

وهلالين". قال الذهبي بعد ذلك:"وكان يجيز القراءة بالمعنى، وهذه جراءة على كتاب الله العزيز."[١] أ.هـ

قال القسطلاني:"ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد تلاوته وفاقاً لبدعتهم كمن قال من المعتزلة: "وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً"، قرؤوها " وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا" ليجعلوا المكلِّم هو موسى لينفوا بذلك الكلام عن الله سبحانه وتعالى، ومن الرافضة قوله:﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]، قرؤوها "المُضلَّينِ عَضُدًا " يعنون بذلك: أبا بكر وعمر، رأى المسلمون بعد ذلك أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية وكمال العلم أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء واشتهر أمرهم وأجمع أهل مصر على عدالتهم فيما نقلوا والثقة بهم فيما قرؤوا ولم تخرج قراءاتهم عن خط مصحفهم."[٢] أ.هـ

ولذا اشتهر عنهم رد القراءات المتواترة إن لم توافق مذهبهم، وذلك إما بتضعيفها، أو باتهام قارئها[٣]، بل قد تُرد القراءة عندهم إن لم توافق قواعد اللغة التي يسيرون عليها. قال الزمخشري في توجيه قراءة ابن عامر

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي: (٣/ ٧٤٩)

(٢) لطائف الإشارات في فنون القراءات: (١/ ٦٦)، وانظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري: (١/ ٣٧).

(٣) انظر: الموضع السادس من القسم التطبيقي في هذا البحث، وانظر: الزمخشري ومنهجه في توظيف القراءات القرآنية: ص٢٢٤.

لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]: "قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) برفع (القتل) ونصب (الأولاد) وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا كما سمج ورد (زج القلوص أبي مزاده) فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته . والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء . ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء، لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب.[(١)]"أ.هـ

يقول الألوسي معقبا على كلام الزمخشري:" تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا قرأ به اجتهادا لا نقلا وسماعا كما ذهب إليه بعض الجهلة فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه وأخذ يبين منشأ غلطه، وهذا غلط صريح يخشى منه الكفر والعياذ بالله تعالى، فإن القراءات السبعة متواترة جملة وتفصيلا عن أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم فتغليط شيء منها في معنى تغليط رسول الله صلى الله عليه وسلم بل تغليط الله عز وجل نعوذ بالله سبحانه من ذلك.[(٢)]"أ.هـ

---

(١) الكشاف: (٢/ ٥٤)، وانظر:الخصائص لابن جني: (١/ ٧٢)، والحجة للفارسي: (٤/ ٤٢٠)، والكشاف: (١/ ٨٧، ٣٥٧)،(٢/ ٢٣٨،٢١٩)،(٤/ ٦٦٧)،، والبحر المحيط: (٤/ ٣٠٩).

(٢) تفسير الألوسي: (٨/ ٣٣)، وانظر: الحجة للفارسي: (٤/ ٣٩٨)، والبحر المحيط: (٤/ ٢٣٠)

أما القراءة الشاذة فهي حجة لديهم،بل اشتهر عن أئمتهم تقديم القراءة الشاذة والموضوعة وتفضيلها على المتواترة خدمة لمعتقدهم[١]، أو لمجرد الاستحسان اللغوي والنحوي. قال ابن جني:"فإنا نعتقد قوة هذا المسمى شاذّاً،وأنه مما أراد الله تعالى بتقبله وأراد منا العمل بموجبه،وأنه حبيب إليه،ومرضيٌّ من القول لديه،نعم وأكثر ما فيه أن يكون غيره من المجتمع عندهم عليه أقوى منه إعراباً وأنهض قياساً،إذ هما جميعاً مرويان مسندان إلى السلف رضي الله عنهم. فإن كان هذا قادحاً فيه،ومانعاً من الأخذ به فليكُونن ما ضعف إعرابه مما قرأ بعض السبعة به هذه حاله،ونحن نعلم مع ذلك ضعف قراءة ابن كثير "ضئاء" بهمزتين مكتنفيّ الألف،وقراءةِ ابن عامر"وكذلك زُيّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم"أ.هـ[٢].

المطلب الثالث: موقف المعتزلة من دلالات القراءات القرآنية على أصول الاعتقاد :

تقدم في الفقرة السابقة موقف المعتزلة من القراءات القرآنية من حيث الثبوت ؛ وأما موقفهم من القراءات القرآنية من حيث الدلالة فهو لا يختلف عن موقفهم من دلالة نص كتاب الله تعالى ؛ فبالرغم من إثبات

---

(١) انظر: الكشاف (١/ ٢٣٢)،(٤/ ٥٧١)، وانظر مثلا: كلامهم على قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ في القسم التطبيقي.

(٢) المحتسب: (١/ ٣٣)،وانظر: المحتسب: (١/ ١٧٩)،(٢/ ٣٠٠)،والكشاف: (١/ ٣٨١،٢٨٥)، (٢/ ٤١٣،١٦٩).

المعتزلة وعامة المتكلمين لأصل التنزيل وقطعهم بصحة النص وسلامته من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان إلا أنهم لا يقطعون بدلالته ؛ فالقرآن عندهم ظني الدلالة بل غلا بعضهم فزعم أنه لا يجوز الاستدلال بالقرآن على أصول الاعتقاد ؛ و عد القاضي عبد الجبار الاستدلال بالسمع على بعض الصفات إنما هو من قبيل الاستدلال بالفرع على الأصل.[١]

وقد حكمت المعتزلة ومن وافقها من المتكلمين أدلتهم العقلية وأصولهم الاعتقادية التي شابها الكثير من التعصب للمذهب على دلالات النصوص الشرعية والقراءات القرآنية عموما ؛ فقد " أسسوا دينهم على أن باب التوحيد والصفات لا يتبع فيه ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وإنما يتبع فيه ما رأوه بقياس عقولهم" [٢].

وقد جعلوا دلالة السمع تبعا لدلالة العقل وجعلوا من القواعد المنطقية ومن أصولهم العقلية أساسا وعمدة في تأصيل الاعتقاد مع التباين الشديد بين عامة المتكلمين في ذلك ما بين مكثر ومقل [٣].

وبالرغم من كل ذلك إلا أن المعتزلة عند التطبيق يستدلون بكل ما يوافق أصولهم الاعتقادية سواء أكان دليلا عقليا أو سمعيا وسواء أكان قطعي الثبوت أو غير ذلك ويخالفون بذلك ما قرروه في هذا الباب ؛ بل ربما قدموا ما هو شاذ من القراءات على ما هو متواتر ؛ إذا كان الشاذ موافقا للمذهب والمتواتر مخالفا له في الدلالة .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٢٢٦ ؛ ٢٦٢ ؛ وانظر :موقف المتكلمين ١/ ١١٣-١١٤؛١٤٢
(٢) منهاج السنة: (٢/ ١٠٩)
(٣) انظر: القرآن الكريم ومنزلته: (٢/ ١٠٧٨)

فثبوت القراءة عند المعتزلة ليس شرطا لقبول دلالتها. ودلالتها لا تقبل إلا إذا وافقت المذهب، ولربما ردت القراءة المتواترة أو ضعفت في مقابل قراءة أخرى متواترة تدل للمذهب بل في مقابل قراءة شاذة يبرزونها وكأنما تعادل المتواترة إذا ما وافقت هذه المذهب وخالفت تلك وقد سلكوا في رد دلالة القراءات القرآنية المتواترة عدة مسالك ؛ منها تأويل القراءة المتواترة وتحريف ما تدل عليه من معنى ؛ ومنها التصرف في العلامة الإعرابية للفظ الآية لتغيير أثرها ووظيفتها في أداء المعنى ليتواءم مع مسلماتهم في الاعتقاد ؛ ومنها توجيه القراءة إعرابيا بما يتوافق ورؤيتهم الاعتزالية ؛ وقد كان موقف المعتزلة من دلالات القراءات القرآنية منهجا متبعا لديهم وليس مجرد خطأ أو اجتهاد.[١]

بل لقد أدى التعصب المذهبي ببعضهم إلى اختراع قراءة بمجرد الرأي والاجتهاد يؤيد بها مسلماته العقدية[٢]. وروي عن بعضهم ما يدل على تطاولهم وجرأتهم على القرآن العظيم بالتغيير والتحريف لألفاظه الشريفة ؛ فقد ذكر ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية عن المعتزلي المتعصب ابن أبي دؤاد أنه أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم !! فيحرف كلام الله تعالى لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير[٣] ؛ وهكذا جعلت المعتزلة " ما أحدثوه من

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨١٦).

(٢) انظر : موقف المتكلمين: (١/ ١٢٠-١٢١) ؛ الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم لمحمد السيف: (٣/ ١٣٥٥، ١٣٩٣).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية: (١ / ١٢١).

الأقوال التي نفوا بها صفات الله ونفوا بها رؤيته في الآخرة وعلوه على خلقه وكون القرآن كلام الله ونحو ذلك جعلوا تلك الأقوال محكمة وجعلوا قول الله ورسوله مؤولا عليها أو مردودا أو غير ملتفت إليه ولا متلقى الهدى منه "[1]

(١) درء التعارض: (١/ ٢٧٥).

المبحث الثاني
موقف الأشاعرة من القراءات القرآنية

المطلب الأول: التعريف بالأشاعرة:

الأشاعرة فرقة كلامية تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري الذي كان على مذهب أهل الاعتزال ثم تحول عنه إلى مذهب ابن كلاب ثم رجع عنه إلى مذهب أهل السنة والجماعة وإن كان قد بقيت لديه بقية مما سبق،وقد استقر أتباعه على ما كان عليه في طوره الثاني وقد خالفوا أهل السنة في بعض أصول الاعتقاد منها قولهم في الإيمان وفي الصفات والرؤية وفي القدر وغيرها ؛ ومال متأخريهم إلى مذهب المعتزلة في بعض أصول العقيدة وفي منهجهم في الاستدلال وتقديمهم للعقل على النقل[(١)].

المطلب الثاني: موقف الأشاعرة من القراءات القرآنية من حيث الثبوت :

المشهور عن أئمة الأشاعرة تواتر القراءات السبع، واختلف في الثلاث الزائدة على السبع وجمهورهم على تواترها. قال الزركشي: "القراءات عن الأئمة السبعة متواترة عند الأكثرين، منهم إمام الحرمين في البرهان، خلافا لصاحب البديع من الحنفية، فإنه اختار أنها مشهورة. وقال

---

(١) انظر نشأة الأشعرية وتطورها:ص١٦٥،موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/ ٤٣٥ وما بعدها

السُّرُوجي في باب الصوم من الغاية:"القراءات السبع متواترة عند الأئمة الأربعة، وجميع أهل السنة خلافا للمعتزلة فإنها آحاد عندهم. وقال في باب الصلاة: المشهور عن أحمد كراهة قراءة حمزة لما فيها من الكسر والإدغام وزيادة المد، ونقل عنه كراهة قراءة الكسائي، لأنها كقراءة حمزة في الإمالة والإدغام . وهذا خطأ، لأن الأمة مجمعة ما عدا المعتزلة على أن كل واحدة من السبع ثبتت عن رسول الله ﷺ بالتواتر فكيف تكره؟[(١)]."أ.هـ.

والقراءات المتواترة على الجملة مقدمة على الشاذ، وهي حجة عندهم. قال الرازي: "إن القراءة المتواترة حجة بالإجماع، فإذا حصلت قراءتان متواترتان، وأمكن الجمع بينهما وجب الجمع بينهما."[(٢)]أ.هـ. وكثيرا ما يردّ أئمة الأشاعرة تضعيف القراءة المتواترة.[(٣)]

وأما القراءة الشاذة فهي دون المتواترة عندهم، واختلفوا بالاحتجاج بها، وجمهورهم على الاحتجاج بها.[(٤)] قال ابن عطية: "مضت الأعصار

(١) البحر المحيط في أصول الفقة للزركشي: (١/ ٣٧٦). وانظر: التحبير شرح التحرير في أصول الفقة: (٣/ ١٣٦١) .وشرح الكوكب المنير: (١/ ٢٠٣)، والانتصار للقرآن: (١/ ٦٦)، والمجموع شرح المهذب للنووي: (٣/ ٣٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب: (٦/ ٧٣).

(٣) يتفاوت علماء الأشاعرة في ذلك. وانظر مثلا: مفاتيح الغيب: (٩/ ١٧٠)، والدر المصون للسمين الحلبي: (٢/ ٢٩٧)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل: (٦/ ١٤٦)،والإتقان: (١/ ٢٥٧).

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: (١/ ١٦٠)،والمستصفى: (١/ ١٠٢)، والبرهان في علوم القرآن: (١/ ٣٣٦)، ونهاية السول في شرح منهاج الأصول للإسنوي: (٢/ ٣٣٣)، والإتقان: (١/ ٨٢)، وفواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت للكنوي: (٢/ ١٦).

والأمصار على قراءة السبعة، وبها يصلى، لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شاذ القراءات فلا يصلى به،وذلك لأنه لم يجمع الناس عليه. أما أن المروي منه عن الصحابة ﭫ وعن علماء التابعين لا يعتقد فيه إلا أنهم رووه. وأما ما يؤثر عن أبي السمال ومن قاربه فلا يوثق به."[١]أ.هـ.

المطلب الثالث : موقف الأشعرية من دلالات القراءات القرآنية على أصول الاعتقاد :

بالقدر الذي اقترب فيه الأشعرية من أهل السنة والجماعة في موقفهم من القراءات القرآنية من حيث الثبوت والقبول والإجلال والتوقير وتقديم المتواتر من القراءات واعتقاد حجيتها وعدم تعطيلها بمعارض شاذ وعدم الجرأة عليها ؛ اقترب موقف المتأخرين منهم من المعتزلة في موقفهم من دلالات هذه القراءات ؛ وإن لم يصلوا إلى ما وصل إليه المعتزلة من التحريف والوضع للقراءات والجرأة على كلام الله تعالى إلا أنهم يتفقون مع المعتزلة في الموقف من دلالة القرآن، ومن ثم القراءات القرآنية فيتأولون القراءة بناء على مسلماتهم العقدية ؛ فهم يلتقون مع المعتزلة في تقديم دلالة العقل على دلالة النقل وفي تأويلها لتوافق المذهب الذي يذهبون وربما حملهم التعصب للمذهب إلى ما حمل عليه المعتزلة من التأول والرد لدلالة القرآن والقراءات القرآنية إذا خالفت دلالة العقل المعتبرة لديهم ؛ فبالرغم من تعظيم المتكلمين في الجملة ومنهم الأشعرية للقرآن ومعانيه وللقراءات القرآنية مع ما هم عليه من بدع وبالرغم من قولهم أن القرآن حق في نفسه

---

(١) المحرر الوجيز: (١/ ٣٢). وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (١/ ٥٩).

إلا أنهم يرون أن الحق الذي دلت عليه النصوص هو ما فهموه هم بعقولهم؛ فإن خالف ظاهر النص دليل العقل فلابد من تأويله حينها ؛ فالأدلة النقلية أدلة لفظية ظنية الدلالة عندهم ولا تفيد اليقين إلا بتوفر شروط عدة منها انتفاء المعارض العقلي ؛ فإذا وجد المعارض العقلي قدم [(١)]، يقول ابن تيمية :" يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته وأنه مستو على العرش ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقا بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا " [(٢)]

---

(١) أساس التقديس: ص١٣٧،والمحصل: ص١٤٣،والمواقف:ص٤٠،والأثر العقدي: (٣/ ١٣٦٣-١٣٦٥)،والقرآن الكريم ومنزلته: (٢/ ١٠٨٤).

(٢) قاعدة في المعجزات:ص ١٨-١٩ ؛ موقف المتكلمين: (١/ ١٤٥).

المبحث الثالث
موقف الشيعة من القراءات القرآنية

المطلب الأول: التعريف بالشيعة:

الشيعة هم الذين يزعمون مشايعتهم لعلى بن أبي طالب ﷺ وقالوا إنه الإمام بعد النبي ﷺ وذلك بالنص الجلي والخفي وقدموه على سائر أصحاب النبي ﷺ ؛ وقالوا إن الإمامة لا تخرج عنه وعن ولده وإن خرجت فبظلم من غيرهم وتقية منهم وهم يرون أن الإمامة ركن من أركان الدين وأن الأئمة معصومون [(١)].

والشيعة فرق عدة منهم الرافضة الإمامية الإثني عشرية وقد سموا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ وقيل لرفضهم زيد ابن علي بن الحسين لما أنكر عليهم الطعن في أبي بكر وعمر وقال بتوليه لهما فتفرقوا عنه ورفضوه .[(٢)]

وسموا بالإمامية الإثني عشرية لقولهم بإمامة اثنى عشر إماما معصوما من ولد على بن أبي طالب ﷺ وهم يقولون أن الإمامة ركن الدين وإن الأئمة معصومون ويطعنون في صحابة النبي ﷺ[(٣)].

ومنهم الزيدية الذين ينتسبون إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهم مجمعون على إمامته في أيام خروجه زمن

(١) انظر : الملل والنحل: (١/ ١٦٩)، ومقالات الإسلاميين: (١/ ٦٥)

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين: (١/ ١٣٦-١٣٧).

(٣) انظر : الملل والنحل: (١/ ١٨٩)، مقالات الإسلاميين: (١/ ٨٨).

هشام بن عبد الملك ؛ وهم فرق يجمعهم أمور منها القول بخلود مرتكب الكبيرة في النار والخروج على أئمة الجور [1].

وهاتان الفرقتان هما موضع الحديث هنا دون بقية فرق الشيعة لذا كان التعريف بهما[2].

المطلب الثاني: موقف الشيعة من القراءات القرآنية المتواترة من حيث الثبوت :

أولاً :الروافض الإثنا عشرية:

يزعم الروافض الإثنا عشرية أن القرآن الكريم إنما أُنزل على حرف واحد، ويستدلون بأثر عن أبي عبد الله الصادق أنه سُئل عما يقوله الناس من أن القرآن نزل على سبعة أحرف. فقال: "كذبوا ... ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد"[3]. وأن المراد بقوله ﷺ: "أنزل القرآن على سبعة أحرف"[4] هو سبعة أوجه من المعاني. كما يزعمون أن عثمان ﷺ جمع

(١) انظر: الملل والنحل: (١/ ١٧٩) وما بعدها، والتنبيه والرد: ص٣٣، والتبصير في الدين:ص٢٤، ومقالات الإسلاميين: (١/ ١٣٦)، والفرق بين الفرق:ص٣٠

(٢)تم انتقاء الفرقتين السابقتين ، لأن مذهب غالب فرق الشيعة لا يخرج عنهما ، إضافة إلى وجود أتباع لهما في هذا العصر.

(٣) انظر: البيان في تفسير القرآن للخوئي: ص ١١٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف برقم (٤٩٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أَن القرآن على سبعة أَحرف، برقم (٨١٨)، والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب جامع ما جاء في القرآن، برقم (٩٣٧)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة،باب أنزل القرآن على سبعة أحرف برقم (١٤٧٥).

الناس على قراءة زيد بن ثابت ﷺ خاصة، وأحرق المصاحف، وأبطل ما لا شك أنه من القرآن المنزل[١].

واختلف علماؤهم في مسألة تواتر القراءات العشر على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور علمائهم إلى أن القراءات السبع غير متواترة فضلا عن العشرة، وهذا الرأي يكاد يكون إجماعًا عند الروافض الإثني عشرية. واختلاف القراءات وتغايرها عندهم راجع إلى اجتهاد القراء وتوسعهم في القراءة، أو هو ثابت بطريق الآحاد. قال أبو القاسم الخوئي: "المعروف عند الشيعة أنها غير متواترة، بل القراءات بين ما هو اجتهاد من القارئ وبين ما هو منقول بخبر الواحد، واختار هذا القول جماعة من المحققين من علماء أهل السنة. وغير بعيد أن يكون هذا هو المشهور بينهم – كما ستعرف ذلك– وهذا القول هو الصحيح."[٢]أ.هـ

ويقول الفقيه الهمداني:"إن دعوى تواتر جميع القراءات السبعة أو العشرة بجميع خصوصياتها عن النبي ﷺ تتضمن مفاسد ومناقضات لا يمكن توجيهها. وقد تصدى جملة من القدماء والمتأخرين لإيضاح ما فيها من المفاسد لا يهمنا الإطالة في إيرادها ... فالذي يغلب على الظن أن عمدة الاختلاف بين القراء نشأ من الاجتهاد والرأي والاختلاف في قراءة المصاحف العثمانية العارية عن الإعراب والنقط مع ما فيها من التباس بعض الكلمات ببعض بحسب رسم خطه كـ(ملك) و (مالك)، ولذا اشتهر

(١) الشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير: ص٨٧.

(٢) انظر: البيان في تفسير القرآن: ص١٢٣،والشيعة وتحريف القرآن لمحمد مال الله: ص٨٨.

عنهم أن كلا منهم كان يخطئ الآخر ولا يُجوز الرجوع إلى الآخر. نعم لا ننكر أن القراء يسندون قراءاتهم الى النبي ﷺ،وأن الاختلاف قد ينشأ من ذلك. فإنه نقل أن عاصم الكوفي قرأ القراءة على جماعة منهم أبو عبد الرحمن، وهو أخذها من مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وهو من النبي ﷺ. وأن حمزة أخذها من جماعة منهم مولانا الصادق عليه السلام، وهم يوصلون سندها إلى النبي ﷺ، وهكذا سائر القراء ولكن لا تعويل على هذا الأسانيد فضلا عن صيرورة القراءات بها متواترة خصوصا بعد أن ترى أنهم كثيراً ما يعدون القراءات قسيماً لقراءة علي وأهل البيت عليهم السلام."[(١)] أ.هـ

ويقول حسين البروجردي: " إن دعوى التواتر في شيء منها فضلا عن جميعها ليست في محلها... لكنك خبير بأن ما ذكروه في هذا الباب مما سمعت وما لم تسمع كلها قاصرة عن إفادة ذلك، نعم قام الإجماع بل الضرورة على عدم الزيادة في القرآن فالمشترك بين القراءات السبع بل وبين غيرها أيضاً قرآن قطعاً. وأما خصوص ما تفرد به كل واحد من القراء السبعة أو العشرة من حيث تلك الخصوصية لا من حيث المادّة الجامعة فلم يقم إجماع ولا ضرورة على كونه بتلك القراءة الخاصة قرآناً. كيف وقد سمعت أن المستفاد من الأخبار أنه واحد نزل من عند إله واحد، بل قد سمعت سبب الاختلاف في ذلك، وأن كل ما اختلفوا فيه أو خصوص السبعة ليس مما نزل به جبرئيل ولا مما قرأ النبي، ولا مما أقره، بل كيف يكون الأغلاط العثمانية في المصاحف السبعة واختلاف الناس في قراءة كل

---

(١) مصباح الفقيه: (٢/ ٣٧٤)، نقلا عن إتحاف الفقهاء في تحقيق مسألة اختلاف القراءات والقراء للميرزا محسن آل عصفور: ص٥٨.

منها حيث إنها كانت عارية عن النقط والإعراب أصلا في إثبات القرآن النازل من السماء هذا مضافاً إلى استفاضة الأخبار، بل تواترها على مخالفة قراءة الأئمة للقراءات المشهورة. بل كتب القراءة والتفسير مشحونة من قولهم قرأ حفص كذا وعاصم كذا وحمزة وعلي بن أبي طالب كذا وفي كثير منها وفي قراءة أهل البيت كذا وربما ينسبونها إلى واحد منهم فجعلوا قراءتهم قسيماً لقراءة أهل بيت الوحي والتنزيل بل كثيراً ما صدر ذلك من الخاصة وأخبارهم به متظافرة."[1] أ.هـ

القول الثاني: يرى أن القراءات السبع متواترة، وبعضهم يرى أن العشرة متواترة أيضا، ونُسب هذا القول إلى بعض متأخريهم. قال الميرزا محسن آل عصفور: "والذي ينبغي أن يذكر في المقام أن العلامة الحلي في كتاب المنتهى هو أول من ادعى تواتر السبع المشهورة ثم زاد عليها الشهيد الأول دعوى أخرى إضافية مفادها تواتر قراءات القراء الثلاثة أبي جعفر ويعقوب وخلف وهي كمال العشر في القرن الثامن الهجري وهذه الدعوى الأخيرة هي الأساس الذي أوقع من جاء بعد عصره في الالتباس وتأثث شباك الوسواس الخناس. أما قبل القرن الثامن الهجري فلم يكن لهذه الفرية والدعوى عين ولا أثر. ولا يخفى ما فيها من البعد والتهافت لأمور:

فأما أولها: فلما تقدم بيانه وتفصيله من تاريخ القراءات.

وأما ثانيها: للمنع من تواترها عن القراء، لأنهم نصوا على أنه كان لكل قارئ راويان يرويان قراءته نعم اتفق التواتر في الطبقات

(١) من تفسيره الصراط المستقيم، نقلا عن إتحاف الفقهاء في تحقيق مسألة اختلاف القراءات والقراء: ص٥٩-٦٠.

اللاحقة."[(١)] أ.هـ.

وأما جواز القراءة بالقراءات العشر، فجلّ أئمتهم حتى من ينكر تواتر القراءات ويرى أنها اجتهاد من الصحابة ﷺ يصرح بجواز القراءة بالعشر. قال أبو جعفر الطوسي: "واعلموا أن العرف من مذهب أصحابنا والشائع من أخبارهم ورواياتهم أن القرآن نزل بحرف واحد، على نبي واحد، غير أنهم أجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القراء، وأن الإنسان مخير بأي قراءة شاء قرأ، وكرهوا تجويد قراءة بعينها بل أجازوا القراءة بالمجاز الذي يجوز بين القراء ولم يبلغوا بذلك حد التحريم والحظر وروى المخالفون لنا عن النبي ﷺ أنه قال: "نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف" ... وهذا الخبر عندنا وإن كان خبرا واحدا لا يجب العمل به فالوجه الأخير أصلح الوجوه على ما روي عنهم عليه السلام من جواز القراءة بما اختلف القراء فيه."[(٢)] أ.هـ.

وقال الخوئي:" والحق: إن الذي تقتضيه القاعدة الأولية، هو عدم جواز القراءة في الصلاة بكل قراءة لم تثبت القراءة بها من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أو من أحد أوصيائه المعصومين عليهم السلام، لأن الواجب في الصلاة هو قراءة القرآن فلا يكفي قراءة شيء لم يحرز كونه قرآنا، وقد استقل العقل بوجوب إحراز الفراغ اليقيني بعد العلم باشتغال الذمة، وعلى ذلك فلا بد من تكرار الصلاة بعد القراءات المختلفة أو تكرار

(١) إتحاف الفقهاء في تحقيق مسألة اختلاف القراءات والقراء: ص ٥٦-٥٧. وانظر: بحوث في تاريخ القرآن: ص١٧١.

(٢) التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد الطوسي: (١/ ٧-٩). وانظر: بحوث في تاريخ القرآن وعلومه لمير محمدي زرندي: ص٣٣-٣٥، وأكذوبة تحريف القرآن: ص٨٣ وما بعدها.

مورد الاختلاف في الصلاة الواحدة، لإحراز الامتثال القطعي، ففي سورة الفاتحة يجب الجمع بين قراءة (مالك)، وقراءة (ملك). أما السورة التامة التي تجب قراءتها بعد الحمد ـ بناء على الأظهر ـ فيجب لها إما اختيار سورة ليس فيها اختلاف في القراءة، وإما التكرار على النحو المتقدم. وأما بالنظر إلى ما ثبت قطعيا من تقرير المعصومين عليهم السلام شيعتهم على القراءة، بأية واحدة من القراءات المعروفة في زمانهم، فلا شك في كفاية كل واحدة منها. فقد كانت هذه القراءات معروفة في زمانهم، ولم يرد عنهم أنهم ردعوا عن بعضها، ولو ثبت الردع لوصل إلينا بالتواتر، ولا أقل من نقله بالآحاد، بل ورد عنهم عليهم السلام إمضاء هذه القراءات بقولهم: "اقرأ كما يقرأ الناس. اقرؤوا كما علمتم". وعلى ذلك فلا معنى لتخصيص... وصفوة القول: أنه تجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام."[١] أ.هـ

وقيد بعضهم جواز القراءة بالقراءات السبع إلى أن يظهر المهدي المنتظر، ويحتجون بأثر رواه صاحب الكافي بسنده إلى سالم بن سلمة قال :"قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السلام، وأنا استمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: كف عن هذه القراءة، واقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم."[٢]

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ص١٦٧. ونقل مير زرندي اتفاق علماء الشيعة على جواز القراءة بالقراءات العشر وإن اختلفوا في شروط الجواز. انظر: الحدائق الناضرة للبحراني: (٨/ ١٠٠)، وبحوث في تاريخ القرآن: ص١٧٢.

(٢) انظر: الحدائق الناضرة للبحراني: (٨/ ١٠٠)، والشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير: ص٨٣، وإتحاف الفقهاء: ص٧٣،والشيعة وتحريف القرآن لمال الله:ص٦٩.

ثانياً : الزيدية:

اختلف الزيدية في القراءات السبع وكذا العشر، هل هي متواترة أم آحاد، على قولين:

القول الأول: أن القراءات السبع متواترة، قال صاحب كتاب الكاشف لذوي العقول: "تحرم القراءة للقرآن بالقراءات الشاذة، لأنها ليست بقرآن كما تقرر. والشواذ هي ما عدا السبع القراءات التي هي: قراءة نافع، وأبي عمرو بن العلاء النحوي، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وحمزة. وأما هذه فمتواترة قطعا على الصحيح. ومن فتش وجد عدد الرواة لها بالغا حدَّ التواتر. وقال البغوي: بل الشاذ ما عدا العشر القراءات، وهي السبع المتقدمة، وقراءة أبي يعقوب الحضرمي، وأبي معشر الطبري، وأبي محمد خلف ابن هشام البزار، وقيل: بل القراءات كلها آحادية. والصحيح هو الأول، لما تقرر من أن شرط القرآن التواتر وهي الطريق إليه. والشاذ، مثل قراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) هي كأخبار الآحاد في وجوب العمل بها ... ولا يجب العلم بكونها قرآنا."[1] أ.هـ.

القول الثاني: وافقوا فيه المعتزلة فيرى أصحابه أن القراءات السبع آحاد. قال الشوكاني:"ادعى تواتر كل واحدة من القراءات السبع، وهي قراءة أبي عمرو ونافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن كثير وابن عامر دون غيرها، وادعى أيضا تواتر القراءات العشر، وهي هذه مع قراءة يعقوب

(١) الكاشف لذوي العقول عن وجوه معاني الكافل بنيل السؤول لأحمد بن محمد لقمان: ص٦٢ -٦٤.

وأبي جعفر وخلف، وليس على ذلك أثارة من علم فإن هذه القراءات كل واحدة منها منقولة نقلا آحاديا، كما يعرف ذلك من يعرف أسانيد هؤلاء القراء لقراءاتهم، وقد نقل جماعة من القراء الإجماع على أن في هذه القراءات ما هو متواتر، وفيها ما هو آحاد، ولم يقل أحد منهم بتواتر كل واحدة من السبع، فضلا عن العشر، وإنما هو قول قاله بعض أهل الأصول، وأهل الفن أخبر بفنهم. والحاصل : أن ما اشتمل عليه المصحف الشريف، واتفق عليه القراء المشهورون فهو قرآن، وما اختلفوا فيه، فإن احتمل رسم المصحف قراءة كل واحد من المختلفين مع مطابقتها للوجه الإعرابي، والمعنى العربي، فهي قرآن كلها، وإن احتمل بعضها دون بعض، فإن صح إسناد ما لم يحتمله، وكانت موافقة للوجه الإعرابي، والمعنى العربي، فهي الشاذة ولها حكم أخبار الآحاد في الدلالة على مدلولها، وسواء كانت من القراءات السبع أو من غيرها."[١].أهـ

وقال المرتضى المحطوري تعقيبا على كلام صاحب الكاشف لذوي العقول:" وقيل: بل القراءات كلها آحادية": "وهذا قول الإمام يحي والزمخشري ونجم الدين، وظاهر ذلك أنهم يقولون بأنها آحادية مطلقا، أي المتفق عليه بينهم والمختلف فيه. وقيل: ما اتفق عليه السبعة أو العشرة فهو متواتر إجماعا، وإنما الخلاف في الألفاظ المختلف فيها بين السبعة والعشرة، وبهذا صرح إمامنا المنصور بالله في الأساس.[٢]"أ.هـ

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: (١/ ١٢٢). وقد صرح رحمه الله في نيل الأوطار: (٢/ ٢٧٤) بصحة القراءة في الصلاة بكل قراءة متصفة بصحة السند وموافقة العربية ولو كانت لغير القراء العشرة.

(٢) الكاشف لذوي العقول: ص ٦٤.

المطلب الثالث : موقف الشيعة من القراءات القرآنية من حيث الدلالة على أصول الاعتقاد :

أولاً: الروافض الإثنا عشرية:

الرافضة الإثنا عشرية لا يقيمون أي تعظيم لدلالة نصوص كتاب الله تعالى إذ زعموا تحريفه بالزيادة والنقصان ولم يعتبروه حجة،بل قد يحرفون ألفاظ القرآن ويزعمون أنها قراءة عن أئمتهم.(١)

وأما موقف الروافض الإثني عشرية من القراءات من حيث الدلالة،سواء المتواترة أم الشاذة، فيتمثل في ثلاث مسائل:

الأولى: إيرادهم القراءات وخصوصا الشاذة والموضوعة للاحتجاج على عقيدتهم،ونسبت بعض هذه القراءات لآل البيت. يقول علي السالوس في منهج الطوسي والطبرسي في تفاسيرهم: "ذكرهما لبعض القراءات الموضوعة والشاذة ذات الصلة بالمذهب، مثال هذا: ما جاء في تفسير سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾، فإنهما يذكران أن قراءة أهل البيت (وآل محمد على العالمين). وفي سورة الفرقان عند قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾، يفسرها الطوسي بقوله:"بأن يجعلهم ممن يقتدى بأفعالهم الطاعات"، ولكنه يذكر أن قراءة أئمتهم:"وَاجْعَلْ لنَا من الْمُتَّقِينَ

(١) انظر : الشيعة وتحريف القرآن لمال الله: ص١١٩ . وانظر: الموضع الثامن في القسم التطبيقي.

إِمَامًا". والطبرسي يذكر للإمام الصادق أقوالاً في هذه الآية الكريمة يجعلها خاصة بأئمة الجعفرية. كقول الإمام فيها :"إيانا عنى"، وقوله:"هذه فينا". ولا يكتفي بهذا بل يذكر ما يتفق مع الغلاة القائلين بالتحريف، فيخطئ ما جاء بالمصحف الشريف ليصل إلى القراءة التي ذكرها الطوسي، والرواية هي:"عن أبي بصير قال: قلت: واجعلنا للمتقين إماماً، فقال:- أي الإمام الصادق: "سألت ربك عظيماً، إنما هي : واجعل لنا من المتقين إماماً ".و في قوله تعالى:﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب:٢٥] ،يقول الطوسي:"بالريح والملائكة"، وقيل: بعلي، وهي قراءة ابن مسعود، وكذلك هو في مصحفه". وقال الطبرسي: "وكفى الله المؤمنين القتال بالريح والجند"، وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ: "وكفى الله المؤمنين القتال بعلي". وفي قوله تعالى:﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء:٢٤] ، يذكران قراءة لتأييد رأي فقهي ارتبط بالمذهب الجعفري، وهو إباحتهم لزواج المتعة، هذه القراءة هي زيادة "إلى أجل مسمى" بعد (فما استمعتم به منهن)".[(١)] أ.هـ

ويقول في بيان منهج عبد الله شبر في تفسيره:" بالنسبة للقول بتحريف القرآن الكريم أو عدم تحريفه لم أجد لشبر نصاً صريحاً، ولكن يبدو أنه يميل إلى القول بالتحريف، ويظهر هذا الترجيح مما يكثر منه على أنه من القراءات، ومن هذه القراءات . في سورة آل عمران الآيات:(١٠٢، ١٠٤،

---

(١) مع الإثني عشرية في الأصول والفروع لعلي السالوس: (١/ ٥٣٨).وانظر: الحدائق الناضرة: (٨/ ١٠٢-١٠٤).

١١٠)، فالآية الأولى هي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ولكن شبراً يذكر أنها قرئت (تقية) و (مسلّمون) وواضح أن تحريف التقوى بالتقية لتأييد مبدأ من مبادئ الجعفرية، وأما الكلمة الأخرى فيقول عنها شبر: "وقرئ بالتشديد أي منقادون للرسول ثم للإمام من بعده"، والآية الثانية: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ يبدل كلمة (أمة) بأئمة أي أئمة الجعفرية. وكذلك فعل في الآية الثالثة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فيقول: "هم آل محمد عليهم السلام، وقرئ كنتم خير أئمة"[(١)]" أ.هـ

المسألة الثانية: احتجاجهم بوجود القراءات على قولهم بتحريف القرآن بالزيادة والنقص. يقول الخوئي عند ذكره أنواع تحريف القرآن: "الثاني: النقص أو الزيادة في الحروف والحركات، مع حفظ القرآن وعدم ضياعه، وإن لم يكن متميزا في الخارج عن غيره. والتحريف بهذا المعنى واقع في القرآن قطعًا، فقد أثبتنا لك فيما تقدم عدم تواتر القراءات، ومعنى هذا أن القرآن المنزل إنما هو مطابق لإحدى القراءات، وأما غيرها فهو إما زيادة في القرآن، وإما نقيصة فيه.[(٢)]" أ.هـ.

---

(١) المرجع السابق: (١/ ٥٦٦) وانظر: الشيعة وتحريف القرآن: ص١١٥.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ص١٩٨. وانظر: الشيعة والسنة: ص١٤٠، والأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري: (٢/ ٣٥٧)، وأكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة لرسول =

المسألة الثالثة: اتخاذ القراءات الواردة في كتب أهل السنة مطعنا للطعن على أهل السنة، ونسبة القول بتحريف القرآن لأهل السنة. يقول رسول جعفريان: "لقد نقل رواة الشيعة بعض الروايات التي يشم منها التحريف ووقوعه في كتاب الله ظاهراً ... ومن الروايات في هذا الباب قسم يرجع إلى الاختلاف في القراءات، وقد ذكر بعض هذه الروايات في كتب الشيعة، وقسم كبير منها في كتب أهل السنة .. ويوجد في كتب أهل السنة الاختلاف في القراءات أيضاً، كما ألفت في اختلاف القراءات والمصاحف عشرات الكتب، راجع كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستاني حول اختلاف المصاحف أو تفسير الزمخشري أو الطبري أو غير ذلك فسترى شيئاً تتعجب منه قطعاً، وراجع أمثلة أخرى لاختلاف المصاحف في كتب أهل السنة مما نذكره من المصادر في الهامش ... ومن مصاديق هذا الباب ما رواه أهل السنة والشيعة على حد سواء بشأن آية: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) حيث أضيف إليها صلاة العصر

واضح أن إضافة (صلاة العصر) في المصحف لم يكن بمعنى أنها من الآية، بل هو تفسير لهذه الكلمة. ولذا قال القاضي رداً على من نسب إلى ابن مسعود حذف المعوذتين من مصحفه وأن أبيّ بن كعب أضاف إلى مصحفه سورتي الحفر والخلع، أنه يمكن أن يكون قد أثبت بعض التأويلات والدعاء في مصحفه ويقول : "قد ثبت في مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل" ... كما أن السيوطي جزم بأن الرواية التي ذكر فيه الآية: (ليس

= جعفريان: ص٨٢.

عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم (في مواسم الحج) بأنها قراءة تفسيرية، وهكذا بالنسبة إلى إضافات أخرى التي نقلناها عن المصاحف لابن أبي داود في السابق ... ونحن هنا نشير إلى السؤال التالي : كيف يقولون هذا بالنسبة إلى ما رواه كبراؤهم ولا يقولون بنفس هذا الكلام في توجيه ما روي عن أئمة الشيعة عليهم السلام (إن صح وثبت عنهم) . ولكن البعض – وقد يكون بدافع الاتهام لا الموضوعية – قد ذكر بعض هذه الروايات وزعم أنه قد أثبت أن الشيعة يقولون بالتحريف."أ.هـ[1].

ويقول أبو العباس الرازي الرافضي: "المقدمة الحسية المسلّم بها والآتي بيانها إن شاء الله، هي أن (بعض الصحابة كانوا يدعون قرآنية قراءتهم الشاذة)، والمقدمة الثانية التي أثبتناها قبل قليل هي (إن علماء أهل السنة يرون من يدعي قرآنية القراءة الشاذة قد أدخل في القرآن ما ليس منه)، فنستنتج أن (علماء أهل السنة يرون بعض الصحابة قد أدخلوا في القرآن ما ليس منه)، فيثبت تحريف القرآن بالزيادة لبعض الصحابة. أو نقول إن كلام علماء أهل السنة باطل،وأن ما قرأ به الصحابة كان من القرآن، فيصبح هؤلاء العلماء منكرين لقرآنية ما هو من القرآن، وواضح أن اعتقاد علماء أهل السنة بعدم قرآنية ما هو من القرآن تحريف صريح بإخراج بعض القرآن منه. وإما أن نقول إن أمر هذه الشواذ مبهم فلا نعلم أهي من القرآن أم لا، فهذا يعني أن علماء أهل السنة في شك من سلامة القرآن من التحريف لأنهم لا يعلمون أن المصحف قد سقط منه قرآن أم لا، لاحتمال

(١) أكذوبة تحريف القرآن: ص٨٢ -٨٩.

كون الشواذ قرآنا !، وبالنتيجة فهم يشكون في أن عثمان والصحابة تلاعبوا بكتاب الله عز وجل وأسقطوا بعض القرآن أم لا، ويلزم منه عدم إمكانية أخذ أي حكم من القرآن بعد احتمال سقوط آيات من المصحف لا نعلمها، وهذا كما ترى رأي ساقط لا يقبله جمهور أهل السنة كما مرت كلماتهم، والتزاما منا لم نهمل ذكر هذا الوجه لأنه قد يفهم من عبارات بعض علمائهم.

وخلاصة القول : إن الشاذ المخالف لرسم المصحف إما هو من القرآن فيثبت التحريف للنافين وهم علماء أهل السنة، وإما أنه ليس من القرآن فثبت التحريف للمثبتين وهم سلفهم الصالح، وإما أن يشكوا في أمرها فيتطرق الشك حينها إلى سلامة القرآن من التحريف."[(١)]أ.هـ

ومثل هذه القراءات الشاذة وإن وردت في كتب أهل السنة إلا أنهم مجمعون على أنها ليست من القرآن. قال محمد مال الله :"أما روايات التحريف شاذة فإنني ما رأيت أحد علماء الشيعة تعرض لنقد تلك الروايات التي وردت في الكافي وتفسير القمي وأقوال علماء الشيعة مثل الكليني والمفيد والنوري وغيرهم بخلاف أهل السنة فإنهم حكموا بكفر من يعتقد هذا، ولم يذكروا تلك الروايات التي هي شاذة إلا وذكروا أنها منسوخة أو غير متواترة القراءة،فهل هذا يوجد عند الشيعة."[(٢)]أ.هـ.

ثانياً: الزيدية: حكم القراءات الشاذة عند الزيدية، كحكم خبر الآحاد

(١) إعلام الخلف بمن قال بتحريف القرآن من السلف لأبي عمر صادق العلائي: ص٣٢٩ -٣٣٠.

(٢) الشيعة وتحريف القرآن:ص٦٤.

في الدلالة على مدلولها إن صحت. وأما مالم يصح سنده فليس بقرآن ولا ينزل منزلة الآحاد. قال أحمد بن لقمان:"والشاذ مثل قراءة ابن مسعود (ثلاث أيام متتابعات) هي كأخبار الآحاد في وجوب العمل بها،فيجب التتابع لذلك، لأن عدالة الراوي توجب قبول ما رواه، فيتعين كونها قرآنا، أو خبرا آحادياً، وقد بطل باشتراط التواتر كونها قرآنا،فتعين كونها خبرا آحاديا فتقبل كما يقبل الخبر الآحادي إذا تكاملت شروطه، فيجب العمل بها،ولا يجب العلم بكونها قرآنا."[1]أ.هـ.

(١) الكاشف لذوي العقول: ص٦٤. وانظر: إرشاد الفحول: (١/ ١٢١).

القسم الثاني
القسم التطبيقي

- الموضع الأول : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢]

القراءات الواردة في الآية :

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ وَٰعَدْنَا ﴾ فقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (وَعَدْنَا) من غير ألف بعد الواو . وقرأ الباقون (وَاعَدْنَا) بألف بعد الواو.(١)

فقراءة (وَعَدْنَا) من غير ألف على زنة (فَعَل) المجرد تفيد بأن الوعد صدر من الله تعالى وحده وهو سبحانه المنفرد به.

أما قراءة إثبات ألف المفاعلة (وَاعَدنَا) على زنة (فَاعَل) فهي صيغة مفاعلة. وحقيقة هذه الصيغة تدل على حصول الفعل الواحد من فاعلين فأكثر على وجه المشاركة في ذلك الفعل. قال ابن عاشور: "وواعدنا بألف بعد الواو على صيغة المفاعلة المقتضية حصول الوعد من جانبين ؛ الواعد والموعود، والمفاعلة على غير بابها لمجرد التأكيد على حد سافر وعافاه الله، وعالج المريض وقاتله الله، فتكون مجازا في التحقيق، لأن المفاعلة تقتضي

(١) انظر : السبعة لابن مجاهد : ١٥٥، والنشر: (٢/ ٢١٢)

تكرر الفعل من فاعلين فإذا أخرجت عن بابها بقي التكرر فقط من غير نظر للفاعل ثم أريد من التكرر لازمه وهو المبالغة والتحقق فتكون بمنزلة التوكيد اللفظي.

والأشهر أن المواعدة لما كان غالب أحوالها حصول الوعد من الجانبين شاع استعمال صيغتها في مطلق الوعد وقد شاع استعمالها أيضا في خصوص التواعد بالملاقاة كما وقع في حديث الهجرة وواعداه غار ثور ... واستعملت هنا لأن المناجاة والتكلم يقتضي القرب فهو بمنزلة اللقاء على سبيل الاستعارة ولذلك استغنى عن ذكر الموعود به لظهوره من صيغة المواعدة .

وقيل المفاعلة على بابها بتقدير أن الله وعد موسى أن يعطيه الشريعة وأمره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه أن يمتثل لذلك، فكان الوعد حاصلا من الطرفين وذلك كاف في تصحيح المفاعلة بقطع النظر عن اختلاف الموعود به، وذلك لا ينافي المفاعلة لأن مبنى صيغة المفاعلة حصول فعل متماثل من جانبين لا سيما إذا لم يذكر المتعلق في اللفظ."أ.هـ.(١)

وقد اختلف العلماء في توجيه قراءة ﴿ وَٰعَدۡنَا ﴾ بإثبات الألف على قولين :

الأول: أن المفاعلة على غير بابها وإنما هي لمجرد التأكيد، كقول : طارقت النعل، وعاقبت اللص. وإلى هذا ذهب البغوي ومكي بن أبي طالب، وغيرهم(٢).

---

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٥٠٠) وانظر : جامع البيان : (١/ ٦٠) والكشف عن وجوه القراءات وعللها لمكي: (١/ ٢٣٩)،الكشاف: (١/ ١٣٩)، البحر المحيط : (١/ ٢٠٠).

(٢) انظر: علل القراءات للأزهري: (١/ ٤٧)، وإعراب القرآن للنحاس: (١/ ٢٢٤)، وحجة القراءات: ص٩٦، والكشف: (١/ ٢٤٠) معالم التنزيل: (١/ ٩٥)، والمختار: (١/ ٤٦).

وقد علل بعض من قال بهذا القول ذلك، بأن المفاعلة تفيد الاشتراك في أصل الفعل بين طرفين، فأرادوا تنزيه الله تعالى عن اشتراك أحد معه في فعل من الأفعال، لأن المواعدة إنما تكون بين المتكافئين، والله سبحانه وتعالى منفرد بالوعد والوعيد في كل خير وشر.(١)قال ابن عادل:"قرأ أبو عمرو ويعقوب (وَعَدْنا) هنا، وما كان ثلاثيا، وقرأ الباقون (وَاعَدْنا) بالألف. واختار أبو عبيد قراءة أبي عمرو، ورجحها بأن المواعدة إنما تكون من البشر، وأما الله عز وجل فهو المنفرد بالوَعْد والوعيد على هذا وجدنا القرآن نحو: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [المائدة: ٩]، ﴿ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] "(٢)أ.هـ.

الثاني : أن المفاعلة حقيقة على بابها من المشاركة. وإلى هذا ذهب الطبري والزجاج والزمخشري وغيرهم، ثم اختلفوا في تفسير المواعدة على قولين:

الأول: أن الوعد وإن كان من الله تعالى، فقبوله كان من موسى عليه السلام وقبول الوعد وعدا. قال الطبري: "من أخبر عن شخص أنه وعد غيره اللقاء بموضع من المواضع، فمعلوم أن الموعود ذلك واعد صاحبه من لقائه بذلك المكان، مثل الذي وعده من ذلك صاحبه، إذا كان وعده ما وعده إياه من ذلك عن اتفاق منهما عليه . ومعلوم أن موسى صلوات الله عليه لم يعده ربه الطور إلا عن رضا موسى بذلك، إذ كان موسى غير مشكوك فيه أنه كان بكل ما أمر الله به راضيا، وإلى محبته فيه مسارعا . ومعقول أن الله تعالى

---

(١) انظر :إعراب القرآن للنحاس: (١/ ٢٢٣)، ومعاني القراءات للأزهري: (١/ ١٤٩) والحجة للفارسي: (٢/ ٦٦) والحجة لابن زنجلة:٩٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب: (٢/ ٦٧).

لم يعد موسى ذلك، إلا وموسى إليه مستجيب . وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الله عز ذكره قد كان وعد موسى الطور، ووعده موسى اللقاء . فكان الله عز ذكره لموسى واعدا مواعدا له المناجاة على الطور، وكان موسى واعدا لربه مواعدا له اللقاء . فبأي القراءتين من " وعد " و" واعد " قرأ القارئ، فهو للحق في ذلك – من جهة التأويل واللغة – مصيب، لما وصفنا من العلل قبل.

ولا معنى لقول القائل : إنما تكون المواعدة بين البشر، وأن الله بالوعد والوعيد منفرد في كل خير وشر . وذلك أن انفراد الله بالوعد والوعيد في الثواب والعقاب، والخير والشر، والنفع والضر الذي هو بيده وإليه دون سائر خلقه – لا يحيل الكلام الجاري بين الناس في استعمالهم إياه عن وجوهه، ولا يغيره عن معانيه . والجاري بين الناس من الكلام المفهوم ما وصفنا : من أن كل اتعاد كان بين اثنين، فهو وعد من كل واحد منهما صاحبه، ومواعدة بينهما، وأن كل واحد منهما واعد صاحبه مواعد، وأن الوعد الذي يكون به الانفراد من الواعد دون الموعود، إنما هو ما كان بمعنى " الوعد " الذي هو خلاف " الوعيد""أ.هـ.[1]

الثاني: أن الله تعالى عز وجل وعد موسى الوحي، ووعد موسى عليه السلام ربّه المجيء للميقات إلى الطور. قال الزمخشري: " قرئ (واعدنا)، لأن الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور.[2]"أ.هـ

(١) جامع البيان : (١/ ٦٠)، وانظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (١/ ١٣٣)، وشرح الهداية للمهدوي: (١/ ١٦٤)

(٢) الكشاف: (١/ ١٣٩)، وانظر : الحجة للفارسي: (٢/ ٦٦).

وأهل السنة والجماعة يرون أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام، وأعطاه التوراة في هذه المواعدة، بخلاف أهل الكلام من الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم فإنه ينفون تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام(١).

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾

فقد اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ ﴾ فقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب (وَوَعَدْنَاكُم)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (وَوَاعَدتُّكُمْ)، وقرأ الباقون (وَوَاعَدْنَاكُم)(٢)

• **الموضع الثاني**: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]

القراءات الواردة في الآية:

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فقرأ ابن عامر بنصب الفعل المضارع (فَيَكُونَ)، وقرأ الباقون برفعه (فَيَكُونُ)(٣).

وجهت قراءة رفع (فيكونُ) بأوجهٍ هي:

الأول: الرفع على أن (فيكون) معطوف على (يقول)، وعلى هذا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: (١/ ١٤٣)

(٢) انظر: النشر: (٢/ ٢١٣)

(٣) انظر: السبعة: ص١٦٢، والنشر: (٢/ ٢٢٠) ومثل موضع البقرة موضع آل عمران [٤٩]، وموضع النحل [٤٠]، وموضع [٣٥]، وموضع يس [٨٢] وموضع غافر [٦٨] فقد اختلف القراء في ﴿ فَيَكُونُ ﴾، فقرأ ابن عامر بنصب النون في الستة، ووافقه الكسائي في موضعي النحل ويس. وقرأ الباقون بالرفع. انظر: المرجع السابق.

فالأمر حقيقي، وأمره سبحانه وتعالى للشيء بـ(كن) لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجودا إلا وهو مأمور بالوجود. وهو الذي رجحه الطبري والفراء(١).

ورد هذا الوجه ابن عطية وتبعه ابن عادل فقال:"والثاني أن يكون معطوفا على ﴿ يَقُولُ ﴾، وهو قول الزجاج والطبري، ورد ابن عطية هذا القول، وقال:" إنه خطأ من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود."انتهى. يعني أن الأمر قديم، والتكوين حادث، فكيف يعطف عليه بما يقتضي تعقيبه له؟. وهذا الرد إنما يلزم إذا قيل بأن الأمر حقيقة. أما إذا قيل: بأنه على سبيل التمثيل وهو الأصح فلا."(٢)أ.هـ.

الثاني: الرفع على الاستئناف، و(فيكون) خبر لمبتدأ محذوف. ورجحه أبو علي الفارسي(٣). قال القرطبي:" قوله تعالى:﴿ فَيَكُونُ ﴾ قرئ برفع النون على الاستئناف. قال سيبويه:" فهو يكون، أو فإنه يكون. وقال غيره: هو معطوف على يقول، فعلى الأول كائنا بعد الأمر، وإن كان معدوما فإنه بمنزلة الموجود إذا هو عنده معلوم."(٤).أ.هـ

الثالث: أن يكون معطوفا معنى لا لفظا على (كن)، فمعناه الخبر لا الأمر.

وأما قراءة ابن عامر فنصب (فيكون) لأنه واقع في جواب الطلب،

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٧٤) تفسير الطبري: (١/ ٥٤٤)

(٢) اللباب: (٢/ ٤٥٢). وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية: (١/ ٢٠٢).

(٣) انظر: الحجة للفارسي: (٢/ ٢٠٨)

(٤) الجامع لأحكام القرآن: (٢/ ٨٨)

فالأمر حقيقي. وهذه القراءة صريحة في نسبة القول إلى الله عز وجل. قال ابن زنجلة:" قرأ ابن عامر: (فيكونَ) نصب، كأنه ذهب إلى أنه الأمر، تقول: أكرم زيدًا فيكرمك."[1]أ.هـ

وقد ضعف هذه القراءة بعض من ينفي صفة الكلام من المعتزلة، لكونها صريحة في إثبات صفة الكلام لله تعالى. قال الفارسي:"أجمع الناس على رفع (يكون) ورفضوا فيه النصب إلا ما روي عن ابن عامر، وهو من الضعف بحيث رأيت، فالوجه في (فيكون) الرفع."[2]أ.هـ

وعللوا هذا التضعيف بأن (كن) وإن كان بلفظ الأمر إلا أن معناه الخبر، ومن شرط النصب بالفاء في جواب الأمر أن يختلف الفعلان، نحو: (ائتني فأكرمك)، تقديره: "إن تأتني أكرمك"، فأما إذا اتفق الفعلان فلا يجوز النصب، وفي الآية لا يصح النصب، لأن التقدير عندهم: "إن يكن يكون"[3].

وأول بعضهم معنى هذه الآية على قراءة ابن عامر ؛ فقالوا: بأن الاعتبار بظاهر اللفظ لا المعنى، فساغ النصب في (فيكون)، لأن (كن) لفظه لفظ الأمر وإن كان ليس أمرًا حقيقيا.[4]

---

(١) الحجة: ص١١١.

(٢) الحجة: (٢/ ٢٠٦). وممن ضعفها أو استشكلها أو وصفها بالبعد الأنباري في إعراب القرآن: (١/ ٢٠)،ومكي في الكشف: (١/ ٢٦١)، المهدوي في شرح الهداية: (١/ ١٧٩)، وابن عطية في المحررالوجيز: (١/ ٢٠٢)، وابن إدريس في المختار في معاني قراءات أهل الأمصار: (١/ ٧٢) والعكبري في إعراب القراءات الشواذ: (١/ ١٠٩) .

(٣) انظر: المراجع السابقة، والمختار في معاني قراءات أهل الأمصار: (١/ ٧٣) .

(٤) انظر: الحجة للفارسي: (٢/ ٢٠٧) والبحر المحيط: (١/ ٥٨٦)، والدر المصون: (٢/ ٨٩).

و"إذا كان المعتزلة قد ضعّفوا قراءة ابن عامر لصراحتها في نسبة القول إلى الله عز وجل، فإن بعض الأشاعرة قد ضعّف توجيه العطف في قراءة الرفع لصراحته في اقتران القول والتكوين، وهذا مخالف لأصولهم، حيث إن القول عندهم قديم، والتكوين حادث عند الجميع.

ولهذا يلزمهم القول إما بحدوث الكلام أو بقدم المكوَّنات ... ويضطر بعضهم للخروج من تضعيف العطف إلى موافقة المعتزلة في حمل الأمر فيها على المجاز."[1]أ.هـ

وينفي المعتزلة ومن تبعهم من الشيعة صفة الكلام عن الله عز وجل[2]، وأما الأشاعرة فوافقوا أهل السنة والجماعة في إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وأن الله يتكلم بكلام غير مخلوق، واختلف الأشاعرة مع أهل السنة في معنى هذه الصفة، حيث يرى الأشاعرة أن كلام الله نفسي قديم في الأزل متعلق بذاته لا بمشيئته، ولا يوصف بالحدوث ولا التجدد[3]، وقد ذكر ابن تيمية أن الرازي يرى أن النزاع بينهم وبين المعتزلة في هذه المسألة لفظي "حيث إن المعتزلة سمت ذلك المخلوق كلام الله وهم لم يسموه كلام الله"[4]

● **الموضع الثالث:** قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ

(١) الأثر العقدي: (٣/ ١١٣١). وانظر:اللباب: (٢/ ٤٢٧) وما بعدها.

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة ٥٣٢ وما بعدها؛ المختصر في أصول الدين(ضمن رسائل العدل والتوحيد ٢٢٣-٢٢٥

(٣) انظر : قواعد العقائد١٨٢وما بعدها؛ الإرشاد ١٣٠-١٣٢ ؛ جوهرة التوحيد٧٣؛

(٤) التسعينية ٢/ ٦١٨

مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤]

القراءات الواردة في الآية:

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ فقرأ ابن عباس رضي الله عنهما (وعلى الذين يطوقونه)،وقرأ جمهور القراء (يُطيقونه)، وقراءة ابن عباس شاذة لمخالفتها رسم المصاحف[١].

قال الطبري:"وأما قراءة من قرأ ذلك (وعلى الذين يطوقونه) فقراءة لمصاحف أهل الإسلام خلاف، وغير جائز لأحد من أهل الإسلام الاعتراض بالرأي على ما نقله المسلمون وراثة عن نبيهم ﷺ نقلا ظاهرا قاطعا للعذر، لأن ما جاءت به الحجة من الدين هو الحق الذي لا شك فيه أنه من عند الله، ولا يعترض على ما قد ثبت وقامت به حجة أنه من عند الله بالآراء والظنون والأقوال الشاذة."[٢]أ.هـ

وقد احتج بهذه القراءة وأمثالها الشيعة على نسبة القول بتحريف القرآن لأهل السنة يقول العلائي بعد نقله لكلام الطبري السابق:" أقول: ما قرأ به الصحابة إن كان من القرآن فلماذا لا تجوز القراءة به ؟! وإن لم يكن قرآنا فكيف أدخل الصحابة ما ليس من القرآن فيه ؟!. وأما القول أنه لا تجوز قراءته لعدم تحقق القطع بأن تلك الزيادات من القرآن أم لا، يعني أن عقيدة أهل السنة في مصحف المسلمين هي عدم العلم بشمول المصحف لكل آيات القرآن، إذ من المحتمل أن هذا الذي قرأ به الصحابة من القرآن ولم يكتب فيه."[٣]أ.هـ.

---

(١) انظر: جامع البيان: (٢/ ٨٢)،والدر المنثور: (١/ ١٨٧)

(٢) جامع البيان: (٢/ ٨٢).

(٣) إعلام الخلف: ص٥٤٤ – ٥٤٥.

- **الموضع الرابع**: قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٨ – ١٩]

القراءات الواردة في الآية :

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: (إن الدين)، فقرأ الكسائي بفتح همزة (أن)، وقرأ الباقون بكسر همزة (إن)[(١)].

فقراءة كسر (إن) على أن الجملة مستأنفة، والكلام قبله تام. أما قراءة الفتح فعلى أنها بدل من قوله تعالى: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾. والتقدير: "شهد الله بأنه لا إله إلا هو، وبأن الدين عند الله الإسلام."[(٢)]

وقد وجه الفارسي وتبع الزمخشري القراءات الواردة في الآية وفق مذهبهما، فجعلا القراءات تتعاضد في الدلالة على أصلين من أصول المعتزلة هما: العدل والتوحيد[(٣)]، فقال الزمخشري:" وقرئ (أنه) بالفتح، و﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ بالكسر على أنّ الفعل واقع على أنه بمعنى شهد اللهّ على

---

(١) انظر: السبعة: ص٢٠٢، والنشر: (٢/ ٢٣٨).

(٢) انظر: الكشف: (١/ ٣٨٨)، وشرح الهداية: (١/ ٢١٥)، والمختار: (١/ ١٤١)، والموضح: (١/ ٣٦٤).

(٣) التوحيد عند المعتزلة يدور حول ما يثبت لله، وما ينفى عنه من الصفات. والمراد بالعدل البحث في أفعال الله تعالى، فهم يرون أن أفعال الله كلها حسنة، وهو سبحانه لا يفعل القبيح، كما ينزهونه عن الإخلال بما هو واجب عليه، وبناء على ذلك نفوا أمورا وأوجبوا أخرى، فنفوا أن يكون الله خالقا لأفعال عباده. انظر:المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للعتيق: ص٨١، ١٥٣.

أنه، أو بأنه. وقوله:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلت : ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت : فائدته أن قوله:﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ توحيد، وقوله:﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾تعديل، فإذا أردفه قوله:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند اللهَّ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدّى إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين اللهَّ الذي هو الإسلام، وهذا بين جلى كما ترى. وقرئا مفتوحين، على أن الثاني بدل من الأوّل، كأنه قيل:"شهد اللهَّ أن الدين عند اللهَّ الإسلام"، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بيانا صريحاً، لأن دين اللهَّ هو التوحيد والعدل. وقرئ الأوّل بالكسر والثاني بالفتح، على أن الفعل واقع على إنّ، وما بينهما اعتراض مؤكد. وهذا أيضا شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك.[1]"أ.هـ

قال أبو حيان تعقيبا على قول الزمخشري:"وهو على طريقة المعتزلة من إنكار الرؤية، وقولهم : إن أفعال العبد مخلوقة له لا لله تعالى . وأما قراءة الكسائي ومن وافقه في نصب: (أنه، وأن)، فقال أبو علي الفارسي:"إن شئت جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، ألا ترى أن الدين الذي هو الإسلام يتضمن التوحيد والعدل، وهو هو في المعنى ؟ وإن شئت جعلته من بدل الاشتمال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد والعدل. وقال:"وإن

(١) الكشاف: (١/ ٣٤٤). وانظر: الحجة للفارسي: (٣/ ٢٣).

شئت جعلته بدلا من القسط، لأن الدين الذي هو الإسلام قسط وعدل، فيكون أيضا من بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة". انتهت تخريجات أبي علي، وهو معتزلي، فلذلك يشتمل كلامه على لفظ المعتزلة من التوحيد والعدل، وعلى البدل من أنه لا إله إلا هو، خرجه غيره أيضا وليس بجيد ؛ لأنه يؤدي إلى تركيب بعيد أن يأتي مثله في كلام العرب، وهو: عرف زيد أنه لا شجاع إلا هو."[1]أ.هـ

• **الموضع الخامس**: قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]

القراءات الواردة في الآية :

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ فقرأ إبراهيم النخعي بنصب اسم الجلالة (الله)، وهذه القراءة شاذة لا يقرأ بها. وقرأ جمهور القراء برفع اسم الجلالة[2].

فقراءة الرفع على أن اسم الجلالة فاعل، و(مُوْسَى) مفعول به تدل على أن الله تعالى كلَّم موسى ﷺ ففيها إثبات صفة الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله سبحانه.

وقد أول بعض أهل الكلام معنى قراءة الرفع، بأن (كلم) من الكَلْم بمعنى الجرح، وهو من بدع التفاسير. قال ابن حجر: "أجمع السلف والخلف من أهل السنة وغيرهم على أن (كلم) هنا من الكلام، ونقل

---

(١) البحر المحيط: (٢/ ٤٠٨). وانظر: اللباب: (٥/ ١٠١).

(٢) انظر: المحتسب لابن جني: (١/ ٢٠٤)،ومختصر في الشواذ لابن خالويه:ص٣٠، والبحر المحيط: (٣/ ٣٩٩)

الكشاف عن بدع بعض التفاسير أنه من الكلم بمعنى الجرح، وهو مردود بالإجماع المذكور."(١)أ.هـ.

وأما قراءة النصب فعلى أن اسم الجلالة مفعول به مقدم، و(مُوْسَى) فاعل مؤخر، فموسى عليه السلام هو المُكَلِم.

وقد احتجت المعتزلة بهذه القراءة على نفي صفة الكلام عن الرب تبارك وتعالى. قال ابن كثير:"قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة، ولهذا يقال له الكليم. وقد ... جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلا يقرأ: (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر. قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على عليٍّ بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾. وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش ـ رحمه الله ـ على مَنْ قرأ كذلك لأنه حرَّف لفظ القرآن ومعناه، وكان من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحدًا من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ. (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) فقال له: يا ابن اللخناء: كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] يعني أن هذا لا يحتمل التحريف، ولا التأويل." (٢)أ.هـ ؛ وتأكيد الكلام بالمصدر ينفي

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: (١٣/ ٤٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤٧٤)، وانظر: البحر المحيط:(٣/ ٤١٤)، ولطائف =

احتمال التأويل في معنى الكلام[1].

وصفة الكلام صفةٌ ذاتية باعتبار النوع، وصفة فعلية باعتبار أفراد الكلام ؛ قال ابن تيمية "الكلام من صفاته وليس كالصفة القائمة به التي لا تتعلق بمشيئته ؛ لأن الكلام متعلق بمشيئته ولهذا قال أحمد في رواية حنبل : لم يزل متكلما عالما غفورا ... فذكر أحمد ثلاث صفات : متكلما عالما غفورا ؛ فالكلام [2] يشبه العلم من وجه ويشبه المغفرة من وجه فلا يشبه بأحدهما دون الآخر ؛ فالطائفة التي جعلته كالعلم من كل وجه والطائفة التي جعلته كالمغفرة من كل وجه قصرت في معرفته وهذا ليس وصفاً له بالقدرة على الكلام بل هو وصف له بوجود الكلام إذا شاء "[3]، فالله تعالى يتكلم متى شاء وكيف شاء بكلام مسموع، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة [4].

وقد زعمت المعتزلة وغيرهم أن الله تعالى لا يتكلم – تعالى الله عن ذلك – وأن القرآن ليس من كلامه الذي هو صفة له ولم يبد منه وأن الله إنما أضافه له تشريفا وتكريما كبيت الله وناقة الله.

وغاية شبهة المعتزلة زعمهم أن إثبات صفة الكلام لله تعالى يلزم منه التشبيه والتجسيم. وأن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين

= الإشارات في فنون القراءات للقسطلاني: (١/ ٦٦)

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ١٣)، واللباب: (٧/ ١٣٥).

(٢) في المطبوع (فالمتكلم)، ولعل الصحيح ما أثبت والله أعلم.

(٣) التسعينية لابن تيمية: (١/ ٣٣٦-٣٣٧)

(٤) انظر مجموع الفتاوى: (١٢ / ٣٧-٣٨)، والتسعينية: (١/ ٣٣٦) والقواعد المثلى:ص ٢٥.

ولسان. ويرد عليهم أن تعالى يتكلم بحرف وصوت مسموع على الوجه الذي يليق بجلاله لا كما يتكلم المخلوق والاشتراك في الاسم لا يلزم منه الاشتراك في الحقيقة والمسمى وبهذا تنتفي هذه الشبهة من أساسها.(١)

• **الموضع السادس**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]

القراءات الواردة في الآية:

روي عن ابن مسعود ﷺ قال:"كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك أن عليا مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)." والقراءة شاذة مخالفة لرسم المصحف فلا يقرأ بها. (٢)

وهذه القراءة المنسوبة لابن مسعود ﷺ احتج بها الروافض على تكليف النبي ﷺ بتبليغ إمامة علي ﷺ، وزعموا أنَّ إمامة علي ﷺ هي الأمر الذي يتكفل الله تعالى من خلاله بحفظ الإسلام كله، وذلك لأن عليا ﷺ بصفته خليفة النبي ﷺ يقوم بممارسة وظائف النبي ﷺ.

ثم زعموا أن النبي ﷺ كتم ذلك خوفا من ارتداد الصحابة رضوان الله عليهم حسدا لعلي ﷺ. يقول الفيض الكاشاني: "لما وقف -أي محمد ﷺ- بالموقف أتاه جبرئيل عن الله تعالى. فقال: يا محمد، إن الله تعالى يقرؤك السلام، ويقول لك: إنه قد دنا أجلك ومدتك وأنا مستقدمك على ما لا بد منه ولا عنه محيص فاعهد عهدك وقدم وصيتك واعمد إلى ما عندك من

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش: (١/ ٤٥٨)، التسعينية: (٢/ ٤٤٦، ٥٠٤).

(٢) انظر: الدر المنثور: (٣/ ١٠٩)، وفتح القدير: (١/ ٣٨٤).

العلم وميراث علوم الأنبياء من قبلك والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء فسلمها إلى وصيك وخليفتك من بعدك حجتي البالغة على خلقي علي بن أبي طالب ﷷ، فأقمه للناس علما وجدد عهده وميثاقه وبيعته، وذكرهم ما أخذت عليهم من بيعتي وميثاقي الذي واثقتهم به وعهدي الذي عهدت إليهم من ولاية وليي ومولاهم ومولى كل مؤمن ومؤمنة علي بن أبي طالب ﷷ ... فخشي رسول الله ﷺ قومه وأهل النفاق والشقاق أن يتفرقوا ويرجعوا جاهلية لما عرف من عدواتهم ولما تنطوي عليه أنفسهم لعلي ﷷ من البغضة ... فقال: يا جبرئيل إني أخشى قومي أن يكذبوني ولا يقبلوا قولي في علي ﷷ فرحل فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرئيل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهار والعصمة من الناس فقال: يا محمد إن الله تعالى يقرؤك السلام، ويقول لك " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في علي وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس."[1] أ.هـ

وهذه القراءة على فرض صحتها فإنها مخالفة للقراءة المتواترة، ولما انعقد الإجماع عليه من أن محمدًا ﷺ بلغ ما أنزل إليه، ولم يكتم شيئا[2].

قال القرطبي:" قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قيل: معناه أظهر التبليغ ؛ لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفا من المشركين، ثم أمر بإظهاره في هذه الآية، وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس، وكان عمر ﷺ أول من أظهر إسلامه وقال: لا نعبد الله سرا ؛ وفي ذلك

(١) التفسير الصافي للكاشاني: (٢/ ٥٤-٥٥) وانظر: تفسير الميزان للطباطبائي: (٦/ ٥٤).
(٢) انظر: أضواء البيان: (١/ ٢٨٥)

نزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، فدلت الآية على رد قول من قال: إن النبي ﷺ كتم شيئا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه، وهم الرافضة، ودلت على أنه ﷺ لم يسر إلى أحد شيئا من أمر الدين؛ لأن المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك ظاهرا، ولولا هذا ما كان في قوله عز وجل: ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فائدة، وقيل: بلغ ما أنزل إليك من ربك في أمر زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، وقيل غير هذا. والصحيح القول بالعموم ... وقبح الله الروافض حيث قالوا: إنه ﷺ كتم شيئا مما أوحى الله إليه كان بالناس حاجة إليه."(١)أ.هـ

● **الموضع السابع**: قال تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

القراءات الواردة في الآية:

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَشَآءُ ﴾ فقرأ الحسن، وعمرو بن فائدة (أصيب به من أساء) بالسين المهملة، وقراءة السين المهملة شاذة لا يقرأ بها. وقرأ جمهور القراء (من أشاء) بالشين (٢).

قال ابن عادل: "قال الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن، ولا عن طاووس، وعمرو بن فائد رجل سوء واختار الشافعي هذه القراءة، وقرأها سفيان بن عيينة، واستحسنها فقام عبد الرحمن المقرىء فصاح به وأسمعه. فقال سفيان: "لم أفطن لما يقول أهل البدع". يعني عبد الرحمن أن

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ١٧٩).

(٢) انظر: المحتسب: (١/ ٢٦١)، والبحر المحيط: (٤/ ٤٠٠).

المعتزلة تعلقوا بهذه القراءة في أن فعل العبد مخلوق له، فاعتذر سفيان عن ذلك."(١)أ.هـ.

وقد تعلقت المعتزلة بهذه القراءة من وجهين :

أحدهما: القول بإنفاذ الوعيد. قال ابن جني:"هذه القراءة –أي قراءة السين المهملة– أشد إفصاحاً بالعدل من القراءة الفاشية التي هي (من أشاء)، لأن العذاب في القراءة الشاذة مذكور عله الاستحقاق، وهو الإساءة، والقراءة الفاشية لا يُتناول من ظاهرها علة إصابة العذاب له، وأن ذلك لشيء مرجع إلى الإنسان ... وظاهر قوله تعالى:﴿ مَنۡ أَشَآءُ ﴾ بالشين المعجمة ربما أوهم من يضعف نظره من المخالفين أنه يعذب من يشاء من عباده أساء أو لم يسئ."(٢)أ.هـ

الآخر: القول بخلق العبد لأفعاله ؛ فقوله: (أساء) لا فعل فيه لله على مذهبهم وإنما الفعل فيه للعبد باستقلال تام.(٣)

أما الأشعرية ومن تابعهم فقد استدلوا بقراءة الجمهور على مذهبهم في القدر وما تفرع عنه ؛ حيث يقول الرازي في معنى الآية بناء على منهجه في القدر وتعريفه للظلم:"﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ ﴾ معناه إني أعذب من أشاء وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي، ومن تصرف في خالص ملكه فليس لأحد أن يعترض عليه."(٤).أ.هـ

---

(١) اللباب: (٩/ ٣٣٨) وانظر: المحرر الوجيز: (٧/ ١٧٥).

(٢) المحتسب: (١/ ٢٦١)، وانظر: الكشاف: (٢/ ٢٢).

(٣) انظر: المحرر الوجيز: (٧/ ١٧٥).

(٤) التفسير الكبير للرازي: (١٥/ ٢١).

وليس في الآية دليل على ما ذهب إليه كلا الفريقين سواء من احتج بقراءة الجمهور أو من احتج بالقراءة الأخرى ؛ فقراءة:﴿ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أساء ﴾ بالسين المهملة ليس فيها إنفاذ الوعيد بقدر ما فيها الإخبار بأن المسيئ، ومرتكب المعصية دون المحسن هو المستحق للعقوبة وقراءة الجمهور (مَنْ أَشَاءُ) تدل على بطلان قولهم بإنفاذ الوعيد على مرتكب الكبيرة دون الشرك؛ بل هو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ؛ يؤيد هذا قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] وقد ذكر في تفسيرها قولان : الأول : أصيب به من أشاء من خلقي كما أصيب به قومك والثاني : أصيب به من أشاء في التعجيل والتأخير[١].

• **الموضع الثامن**: قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٞ ﴾ [الحجر: ٤١]

القراءات الواردة في الآية :

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى:﴿ عَلَيَّ ﴾، فقرأ يعقوب (عَلِيٌّ) بكسر اللام ورفع الياء منونة، وقرأ الباقون (عَلَيَّ) بفتح اللام والياء من غير تنوين[٢].

فقراءة يعقوب (عَلِيٌّ) فعيل صيغة مبالغة من العلو. وهو وصْف وصِف به الصراط، والمعنى: هذا طريق رفيع شريف في الدين والحق، وهي

(١) انظر: جامع البيان: (١٣/ ١٥٦) والجامع لأحكام القرآن: (٧/ ٢٦٦)

(٢) انظر: النشر: (٢/ ٣٠١)، والإتحاف: ص٣٤٦..

كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف:٤].

والإشارة إلى الإخلاص، فلما استثنى إبليس من أخلص، قال الله له: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله.

وقراءة الباقين (عَلَيَّ) فـ(على) حرف جر اتصلت به ياء المتكلم. و(على) بمعنى (إلى)، والمعنى الآية: هذا طريق مرجعه إلي فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾[الفجر:١٤][(١)]. ويجوز أن يكون المراد: على أمري وإرادتي[(٢)].

وذهب ابن جني وتبعه الزمخشري إلى أن (على) دالة على الوجوب في الآية، وإنما جعلوها دالة على الوجوب حقيقة لزعمهم بإيجاب مراعاة الأصلح على الله تعالى.[(٣)]

قال الألوسي:"كلمة (عليّ) تستعمل للوجوب، والمعتزلة يقولون به حقيقة لقولهم بوجوب الأصلح عليه تعالى، وقال أهل السنة: إن ذلك وإن كان تفضيلا منه سبحانه وتعالى إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكد ثبوته وتحقق وقوعه بمقتضى وعده جل وعلا فجيء بـ(على) لذلك."[(٤)]أ.هـ.

وقد زعم بعض غلاة الروافض أن القراءة الصحيحة لقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾ بترك تنوين (صراط) وكسر لام (علي)، ويزعمون

---

(١) انظر: جامع البيان: (١٧/ ١٠٤)، ومعاني القراءات: (١/ ٢٩٥)، والمختار: (١/ ٤٤٨) والموضح: (٢/ ٧٢٠)، وتفسير القرآن العظيم: (٤/ ٥٣٦)

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠٣)

(٣) انظر: المحتسب: (٢/ ٤)، والكشاف: (٢/ ٣٩١).

(٤) روح المعاني: (١٤/ ٥٠).

أن المقصود بها علي بن أبي طالب ﷺ. قال المجلسي: "قرأ السبعة (الصراط) مرفوعا منونا، و (علي) بفتح اللام، وقرأ يعقوب وأبو رجاء وابن سيرين وقتادة والضحاك ومجاهد وقيس بن عبادة وعمرو ابن ميمون (علي) بكسر اللام ورفع الياء منونا على التوصيف، ونسب الطبرسي هذه الرواية إلى أبي عبد الله ﷺ. فإن كان أشار إلى هذه الرواية فهو خلاف ظاهرها، بل الظاهر أنه (علي) بالجر بإضافة الصراط إليه. ويؤيده ما رواه في الطرائف عن محمد بن مؤمن الشيرازي بإسناده عن قتادة عن الحسن البصري قال: كان يقرأ هذا الحرف: (هذا صراط علي مستقيم) فقلت للحسن: ما معناه، قال: يقول: هذا طريق علي بن أبي طالب، ودينه طريق ودين مستقيم فاتبعوه وتمسكوا به فإنه واضح لاعوج فيه."[(١)]أ.هـ

- **الموضع التاسع**: قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

القراءات الواردة في الآية:

قرأ عمرو بن فائد وموسى الأسواري (أَغْفَلَنا) بفتح اللام، ورفع (قَلْبهُ)، وقراءة عمرو بن فائد شاذة لا يقرأ بها. وقرأ جمهور القراء (أَغْفَلْنا) بإسكان اللام، ونصب (قَلْبَهُ) [(٢)].

فقراءة الجمهور على أن (أَغْفَلْنَا) فعل أسند لناء الفاعلين، و(قلبه)

(١) بحار الأنوار للمجلسي: (٢٤/ ٢٣-٢٤). وانظر: الشيعة وتحريف القرآن: ص١٠٧.

(٢) انظر: المحتسب : (٢/ ٢٨)، ومختصر في الشواذ لابن خالويه: ص٧٩.

مفعول به منصوب. والمعنى: جعلنا قلبه غافلا وشغلناه عن ذكرنا، فالإغفال من فعل الله في العبد بمشيئته وإرادته سبحانه وتعالى. قال الشنقيطي:"قوله في هذه الآية الكريمة:﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ ﴾ يدل على أن ما يعرض للعبد من غفلة ومعصية، إنما هو بمشيئة الله تعالى، إذ لا يقع شيء البتة كائنا ما كان إلا بمشيئته الكونية القدرية جل وعلا:﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩] ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام:٣٥]، ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن كل شيء من خير وشر، لا يقع إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض. فما يزعمه المعتزلة، ويحاول الزمخشري في تفسيره دائما تأويل آيات القرآن على نحو ما يطابقه من استقلال قدرة العبد وإرادته فأفعاله دون مشيئة الله، لا يخفى بطلانه كما تدل عليه الآيات المذكورة آنفا، وأمثالها في القرآن كثيرة."[1]أ.هـ

وأما قراءة (أغفلنا) بفتح اللام، ورفع (قلبه) فعلى أن (قلبه) فاعل. والمعنى: من نسينا قلبه فصار غافلا.

وقد احتج المعتزلة بهذه القراءة، لأنهم يرون أن الله عادل منزه عن فعل القبيح. وأن للعبد فعل مستقل قال ابن جني في توجيه هذه القراءة:"يقال: أَغْفَلت الرجل: وجدته غافلا . .فإن قيل: فكيف يجوز أن

(١) أضواء البيان: (٣/ ٢٦٦)

يجد الله غافلا؟ قيل: لما فعل أفعال من لا يرتقب ولا يخاف صار كأن الله غافل عنه."[١]أ.هـ

قال أبو حيان معلقا على قول الزمخشري في هذه الآية:" وهذا على مذهب المعتزلة، والتأويل الآخر تأويل الرماني وكان معتزليا قال:لم نسمه بما نسم به قلوب المؤمنين بما يبين به فلاحهم كما قال:﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] من قولهم بعير غفل لم يكن عليه سمة، وكتاب غفل لم يكن عليه إعجام، وأما أهل السنة فيقولون: إن الله تعالى أغفله حقيقة وهو خالق الضلال فيه والغفلة."[٢]أ.هـ

واحتجت الأشاعرة بقراءة الجمهور على أن الله تعالى أن الله هو الخالق لفعل العبد والعبد كسب فعل نفسه بقدرة مقارنة لإيجاد الفعل ؛ يقول الرازي:" احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى هو الذي يخلق الجهل والغفلة في قلوب الجهال لأن قوله:﴿ أَغْفَلْنَا ﴾يدل على هذا المعنى، قالت المعتزلة: المراد بقوله تعالى: ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أنا وجدنا قلبه غافلاً وليس المراد خلق الغفلة فيه " [٣]

والحق أن الآية ترد قول الطائفتين معا وتبطله ؛ فالله سبحانه أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو فالإغفال فعل الله والغفلة فعل العبد.[٤]

---

(١)المحتسب: (٢/ ٢٨)، وانظر: الكشاف: (٢/ ٤٨٢)، والإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير: (٢/ ٤٨٢)،واللباب: (١٢/ ٤٧١).

(٢) البحر المحيط: (٦/ ١١٩)

(٣) التفسير الكبير: (٢٠/ ١١٥).

(٤) انظر : شفاء العليل ١/ ٣٠٦

• **الموضـــع العـــاشر**: قـــال تعـــالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات:١٢]

القراءات الواردة في الآية :

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿عَجِبْتَ ﴾ فقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء (عَجِبْتُ)، وقرأ الباقون بفتحها (عَجِبْتَ)(١)

فقراءة فتح التاء على الخطاب، والخطاب للنبي ﷺ . والمعنى:"بل عجبت أنت يا محمد من إنكارهم البعث وتكذيبهم، أو عجبت من إعراضهم عن الحق وانصرافهم عن الهدى".

ويجوز أن يكون الكلام على تقدير همزة الاستفهام، أي بل أعجبت ؟.

وأما قراءة ضم التاء للمتكلم (عَجِبْتُ)، والضمير يعود على الله جلّ وعلا، وفيها إثبات صفة العجب لله تعالى كما يليق بجلال الله وعظمته. وهي من الصفات الفعلية الثابتة بالكتاب – على هذه القراءة – والسنة وإجماع السلف، فيجب إثباتها لله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهو عجب حقيقي يليق بالله. "، فهذه الآية من آيات الصفات على هذه القراءة." (٢)

" والعجب نوعان:

أحدهما: أن يكون صادرًا عن خفاء الأسباب على المتعجِّب فيندهش له ويستعظمه ويتعجب منه، وهذا النوع مستحيل على الله، وهو خاص

(١) انظر: السبعة: ص ٥٤٧، والنشر: (٢/ ٣٥٧).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء: (٢/ ٣٨٤)، ومعاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٠٠) وعلل القراءات: (٢/ ٥٧٤)، والحجة لابن زنجلة: ص٦٠٧ ، وأضواء البيان (٧/ ٥٤)

بالمخلوق،لأن الله لا يخفى عليه شيء .

الثاني: أن يكون سببه خروج الشيء عن نظائره، أو عما ينبغي أن يكون عليه مع علم المتعجِّب، وهذا هو الثابت لله تعالى"[١].

وقد أنكر إثبات صفة العجب أهل الكلام، ووجهوا قراءة ضم التاء بوجهين:

الأول: أن في الآية صرفاً للكلام عن ظاهره، والمخاطب هو محمد ﷺ، والمعنى: قل يا محمد: بل عجبتُ أنا.

الثاني: تأويل صفة العجب بالحلم والصفح عنهم، والإنكار لعظيم فعلهم. قال الفارسي:"والضم فيما زعموا قراءة علي وعبد الله وابن عباس، وروي عن شريح إنكاره له، وأنه قال: إن الله لا يعجب. وقد احتج بعضهم للضم بقوله:﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥] وليس في هذا دلالة على أن الله سبحانه أضاف العجب إلى نفسه، ولكن المعنى: وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ... ولا يجوز أن يكون الوصف بالعجب في وصف القديم سبحانه، كما يكون في وصف الإنسان، لأن العجب فينا إنما يكون إذا شاهدنا ما لم نشاهد مثله، ولم نعرف سببه، وهذا منتفٍ عن القديم سبحانه."[٢]أ.هـ.

● **الموضع الحادي عشر**: قال تعالى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤]

(١) شرح لمعة الاعتقاد ٦٠

(٢) الحجة: (٦/ ٥٣)، وانظر الكشف: (٢/ ٢٢٣)، وشرح الهداية: (٢/ ٤٨٨)، والمختار: (٢/ ٧٤٨)،والموضح: (٣/ ١٠٨٦).

القراءات الواردة في الآية:

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ فقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد، وموسى الأسواري (يُسْتَعتبوا) مبنيا للمفعول، (المُعْتِبِين) بكسر التاء اسم فاعل، وقراءة الحسن لا يقرأ بها. وقرأ جمهور القراء (يَستعتبوا) مبنيا للفاعل، و(المعتبين) بفتح التاء اسم مفعول[1].

ومعنى قراءة الحسن إن طُلب منهم أن يرضوا ربهم، فما هم فاعلون، لأنهم فارقوا الدنيا دار الأعمال.

ويجوز أن يكون المعنى: لو طلبت منهم العتبى وردوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله وطاعة رسله، فما هم من الراجعين إلى ما يرضي ربهم، بل يرجعون إلى كفرهم الذي كانوا عليه أولا. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨][2].

وقد روي أن عمرو بن عبيد مرّ على أبي عمرو بن العلاء فقال له: كيف تقرأ (وإن يَستَعتبوا)؟ فقال أبو عمرو: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ بفتح الياء في(يستعتبوا) وبفتح التاء في(المعتبين). فقال عمرو ابن عبيد: ولكني أقرأ (وإن يُسْتعتَبوا فما هم من المعتِبين) بضم الياء في (يستعتبوا) وكسر التاء في(المعتبين). فقال أبو عمرو: ومن هنالك أبغض

(١) انظر: المحتسب: (٢/ ٢٤٥)، ومختصر في الشواذ لابن خالويه: ص١٣٣، والبحر المحيط: (٧/ ٤٩٤)

(٢) انظر: اللباب: (١٤/ ٤٤)، والبحر المحيط: (٧/ ٤٩٤)، وأضواء البيان: (٢/ ٤٢٣).

المعتزلة، لأنهم يقولون برأيهم.[١]

قال ابن جني في توجيه قراءة الحسن:"أي لو اسْتُعتِبُوا لما أُعتبوا، كقولك: لو استُعطفوا لما عَطَفوا، لأنه لا غناء عندهم، ولا خير فيهم، فيجيبوا إلى جميل، أو يدعوا إلى حسن."[٢]أ.هـ

أما قراءة الجمهور فيجوز فيها معنيان:

الأول: وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات. وإليه ذهب ابن كثير والشنقيطي.

الثاني: وإن يسألوا العتبى، وهي الرجعة لهم إلى الذي يحبون، بتخفيف العذاب عنهم، فليسوا بالقوم الذين يرجع بهم إلى الجنة، فيخفف عنهم ما هم فيه من العذاب. وإليه ذهب الطبري.[٣]

والاستعتاب: أصله طلب العُتبى، والعُتبى: اسم من الإعتاب لا من العتب، وهي: الرضا بعد الغضب، يقال: استعتب فلان فلاناً فأعتبه، إذا أرضاه.[٤] وفي الحديث: (لك العتبى حتى ترضى)، وإذا بُني لما لم يسم فاعله فالأصل أن يكون نائب فاعله هو المطلوبَ منه الرضا، تقول: استُعتِب فلانٌ فلم يُعْتب. وأما ما وقع في القرآن منه مبنيّاً لما لم يسم فاعله فقد وقع نائب فاعله ضمير المستعتبين كما في هذه الآية .

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨١٦).

(٢) المحتسب: (٢/ ٢٤٥). وانظر: الكشاف: (٣/ ٤٥١).

(٣) انظر: جامع البيان: (٢١/ ٤٥٨)، ومعالم التنزيل البغوي: (٧/ ١٧١)، وأضواء البيان: (٢/ ٤٢٣).

(٤) انظر: القاموس المحيط: ص١١٧، ومعجم مقاييس اللغة: (٤/ ٢٢٦).

قال ابن القيم: "فالعتب منه على عبده ؛ والعتبى والإعتاب له من عبده ؛ فههنا أربعة أمور:

الأول: العتب وهو من الله تعالى فإن العبد لا يعتب على ربه فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك غلط أقبح غلط.

الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين فإعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله تعالى عليه.

الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضا ومن العبد بالاعتبارين فالله تعالى يستعتب عباده أي يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه.

الرابع: العتبي وهي اسم الإعتاب فاشدد يديك بهذا الفضل الذي يعصمك من تخبيط كثير من المفسدين لهذه المواضع ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب" أي يطلب من ربه إعتابه إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبة عليه، والاستعتاب نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى وفي الأثر "إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه وإن الله ليسترضى فيرضى " لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب فإنه طلب رضوان الله تعالى والاستعتاب طلب إزالة غضبه وعتبه وهما متلازمان."[1]أ.هـ.

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٢٥٤-٢٥٥)

• **الموضع الثاني عشر**: قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]

القراءات الواردة في الآية:

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فقرأ أبو السمال بالرفع (كُلُّ)، وقراءة أبي السمال لا يقرأ بها. وقرأ جمهور القراء بالنصب (كُلَّ)(١).

فقراءة نصب (كُلَّ) على إضمار فعل يفسره ما بعده، فهو من باب الاشتغال، والتقدير: "إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر" وهي دالة على أن الله سبحانه وتعالى عالم بمقادير الأشياء وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أنه سبحانه أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث شيء إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه.

أما قراءة رفع (كلُّ) فتحتمل أمرين:

١- (كل شيء) مبتدأ و (خلقنا) خبره، و(بقدر) حالاً، والمعنى على هذا الإعراب موافق لقراءة النصب.

٢- (كل شيء) مبتدأ، و(خلقناه) صفة، و(بقدر) خبر المبتدأ، والمعنى: "إن كلَّ شيء مخلوق لله بقدر" وهو يوهم وجودَ شيء ليس بقدر، لأنه غير مخلوق له تعالى. وقد احتج بهذه القراءة بعض المعتزلة على أن الأفعال غير مخلوقة.

" وقد تنازع أهل السنة والقدرية في الاستدلال بهذه الآية، فأهل السنة يقولون: كُلّ شيء مخلوق لله تعالى، ودليلهم قراءة النصب ؛ لأنه لا

(١) انظر: المحتسب: (٢/ ٣٠٠)، ومختصر في الشواذ: ص ١٤٨، والبحر المحيط: (٨/ ١٨١).

يفسر في هذا التركيب إلا ما يَصِحُّ أن يكون خبراً لو رفع الأول على الابتداء.

وقال القَدَرِيَّة: القراءة برفع "كل" و "خَلَقْنَاهُ" في موضع الصفة لـ "كلّ" أي أمْرُنَا أو شَأْنُنَا كُلُّ شيء خَلَقْنَاه فهو بقدر أو بمقدار . وعلى حد ما في هيئَتِهِ وزمنِهِ (وَغيْرِ ذَلِكَ) ." [(١)]

قال مكي بن أبي طالب: "كان الاختيارُ على أصول البَصْريين رفع "كل" كما أن الاختيارَ عندهم في قولك "زيدٌ ضربْتُه" الرفعُ، والاختيارُ عند الكوفيين النصبُ فيه بخلاف قولِنا "زيد أكرمتُه"، لأنه قد تقدَّم في الآية شيءٌ عَمِل فيما بعده وهو "إنَّ" والاختيارُ عندهم النصبُ فيه. وقد أجمع القرّاءُ على النصبِ في "كل" على الاختيار فيه عند الكوفيين لِيَدُلّ ذلك على عموم الأشياء المخلوقاتِ أنها لله تعالى بخلافِ ما قاله أهلُ الزَيْغِ مَنْ أنَّ ثمَّ مخلوقاتٍ لغير الله تعالى، وإنما دلَّ النصبُ في "كلَّ" على العموم؛ لأن التقديرَ: إنَّا خَلَقْنا كلَّ شيء خَلَقْناه بَقَدَر، فَخَلَقْناه تأكيدٌ وتفسيرٌ لـ"خَلَقْنا" المضمر الناصبِ لـ"كلَّ". وإذا حَذَفْتَه وأَظْهَرْت الأولَ صار التقديرُ: إنَّا خَلَقْناه كلَّ شيءٍ بَقدَر، فهذا لفظٌ عامٌ يَعُمُّ جميع المخلوقاتِ. ولا يجوز أَنْ يكون "خَلَقْناه" صفةً لـ"شيءٍ" لأنَّ الصفةَ والصلةَ لا يعملان فيما قبل الموصوفِ ولا الموصولِ، ولا يكونان تفسيراً لِما يعملُ فيما قبلهما. فإذا لم يكن "خَلَقْناه" صفةً لشيء، لم يَبْقَ إلاَّ أنه تأكيدٌ وتفسيرٌ للمضمر النصب، وذلك يَدُلُّ على العموم. وأيضاً فإن النصبَ هو الاختيارُ عند الكوفيين، لأنَّ "إنَّا"

---

(١) انظر: اللباب: (١٨/ ٢٨٣)، والمحتسب: (٢/ ٣٠٠)، ومعاني القرآن للأخفش: (٢/ ٧٠٠).

عندهم يَطلبُ الفعلَ فهو أَوْلى به، فالنصبُ عندهم في "كل" هو الاختيارُ، فإذا انضاف إليه معنى العموم والخروج عن الشُبَهِ، كان النصب أَقوى كثيرا من الرفع."[(١)] أ.هـ.

• **الموضع الثالث عشر:** قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ [البروج: ١٢ – ١٥]

القراءات الواردة في الآية :

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ فقرأ حمزة والكسائي وخلف بجر لفظ (المَجِيْدِ)، وقرأ الباقون بالرفع (المَجِيْدُ)[(٢)] .

فقراءة رفع لفظ (المجيد) تدل على أن المجيد اسم من أسماء الله الحسنى، وهو متضمن ما يدل عليه من صفات.

والمجيد بمعنى : شريف الذات حسن الخصال جميل الفعال، والمجد هو السعة في الكرم وفي الجلال، والله تعالى بالغ الغاية في المجد الأعلى والشرف التام.[(٣)]

أما قراءة جر لفظ (المجيد) فتدل على أن المجيد وصف لعرش الرحمن تبارك وتعالى. وفيه دليل على أن كلمة المجيد يجوز إطلاقها على المخلوق ويجوز وصفه بها، ولا يلزم من اتفاق الاسمين اتفاق المسميين، ولا من

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي: (٢/ ٣٤٠)، وانظر: إعراب القرآن للنحاس: (٣/ ٢٨٢)، وإملاء ما من به الرحمن للعكبري: (٢/ ١٣٤)، والجامع لأحكام القرآن: (١٧/ ١٤٧)، والدر المصون: (٦/ ٢٣٢).

(٢) انظر: النشر: (٢/ ٣٩٩).

(٣) انظر : المفردات: ص٤٦٣، وأسماء الله الحسنى: ص٦٢، والآثار السلوكية لمعاني أسماء الله الحسنى: ص ٩٨

اتفاق الألفاظ اتفاق المعاني من كل وجه، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله جلَّ وعلا وهو أعظمها وأجلها. قال أبو عبد الله القرطبي: "والعرش مخلوق عظيم شريف كريم ليس فوقه مخلوق، يلي صفحته العُليا العَدَم، ويلي صفحته السُّفلى الجنة، فإنه سقفها".أهـ.[1] ووصف المجيد يدل على النهاية في الكرم والفضل.

وقد أنكر بعض النحاة وصف العرش بالمجيد قال ابن القيم:"بعض النحويين يستبعد الخفض، لأن المجيد معروف من صفات الله."[2]أ.هـ.

والعرش هو سرير الملك. قد فسر بعضهم العرش بالملك، وفسِر بالكرسي، وفسر الكرسي بالعلم. والصحيح أن العرش غير الملك وغير الكرسي، والكرسي غير العلم، فالكرسي من مخلوقات الله العظيمة الذي وسع السماوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، بل هو أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها ؛ لأن الله استوى عليه.[3] قال ابن أبي العز الحنفي: "والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] . وليس هو فلكا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب. فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات... وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ . وقد قيل: هو

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لأبي عبد الله القرطبي: ص١٥٧

(٢) إعراب القرآن للنحاس: (٥/ ١٩٥)، وانظر الحجة للفارسي: (٦/ ٣٩٣)، والموضح: (٣/ ١٣٥٦).

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٣٦٦- ٣٧١

العرش، والصحيح أنه غيره." [(١)].أ.هـ

- **الموضع الرابع عشر**: قال تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق: ٢].

القراءات الواردة في الآية:

قرأ عمرو بن عبيد بتنوين (شرٍ)، وقراءة عمرو بن عبيد لا يقرأ بها. وقرأ جمهور القراء بترك التنوين (مِنْ شَرِ)[(٢)].

فعلى قراءة الجمهور (ما) موصولة، وفيها دلالة على أن الله تعالى خالقُ الشَّرِّ، وهو سبحانه خالق كل شيء. أما قراءة التنوين فـ(ما) نافية، وتعلق بها المعتزلة ليثبتوا مذهبهم في خلق أفعال العباد، وأن الله تعالى لا يخلق الشر. قال مكي:"من قرأ﴿ مِن شَرٍّ ﴾ بالتنوين، فقد ألحد وغيّر اللفظ والمعنى، لأنه يجعل (ما) نفيا، ويقدم (من)، وهي متعلقة عنده بـ(خلق) فيقدم ما بعد النفي عليه، وذلك لا يجوز عند جميع النحويين، لأن التقدير عنده:"ما خلق من شر"، فيخرج الكلام عن حدّه ومعناه، ويصير إلى النفي، فبعد ما هو دعاء وتعوذ يصير خبرا نفيا معترضا بين تعوذين، وذلك إلحاد ظاهر، وخطأ بين.[(٣)]"أ.هـ

وهذه المسألة تتعلق بمسألة أخرى وهي : هل يخلق الله الشر ؛ وهل الشر في فعل الله عز وجل أو في مفعوله؟

ومذهب أهل السنة في هذه المسألة أن الله تعالى هو خالق كل شيء ؛ وأنه ليس في فعله شر بالكلية، فقد جاء في الحديث قول النبي ﷺ:"والخير

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٣٦٦ –٣٦٨

(٢) انظر: البحر المحيط: (٨/ ٥٣٠)،

(٣) المشكل: (٢/ ٥١١).

كله في يديك، والشر ليس إليك"، فالشر لا ينسب إلى الله سبحانه، وهذا هو مفهوم قوله: (والخير كله في يديك).

ولهذا أسند الشر في قوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه فخلق الرب الذي هو فعله لا شر فيه بوجه من الوجوه والشر لا يلحق ذات الرب تبارك وتعالى فذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما وأفعاله كذلك لها الكمال المطلق .(1)

وأهل السنة يثبتون أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فالله تعالى هو خالق الخير والشر ؛ ولكن هنا أمران ينبغي التمييز بينهما :

الأول: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا ولا يكون وصفا للباري جل في علاه ولا فعلا من أفعاله .

الثاني: أن كونه شرا هو أمر نسبي إضافي ؛ فهو خير من جهة تعلق فعل الرب به ومن جهة تكوينه له ؛ لما فيه من الحكمة البالغة، وهو شر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه (2) .

وبهذا نعلم فساد ما ذهبت إليه المعتزلة فرارا من القول بأن الله لا يخلق الشر تنزيها له بزعمهم حيث وقعوا فيما هو أشنع مما فروا منه وهو القول بأن الإنسان يخلق فعل نفسه ؛ وبهذا أثبتوا مع الله خالقين والعياذ بالله .

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى: (14/ 266)، وبدائع الفوائد: (2/ 289- 291)

(2) انظر: بدائع الفوائد (2/ 290-291)

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد فإن أهم نتائج هذا البحث تتمثل في الآتي :

- القراءات القرآنية توقيفية وليست اختيارية وهي سنة متبعة تروى بالسند الثابت إلى رسول الله ﷺ وينقلها الآخر عن الأول .
- ترى المعتزلة أن القراءات السبع آحاد وليست متواترة ؛ و تخالف بذلك إجماع أهل السنة.
- يظن المعتزلة أن القراءات اختيارية تدور مع الفصحاء واجتهاد البلغاء.
- يحكم المعتزلة أدلتهم العقلية وأصولهم الاعتقادية وقواعدهم المنطقية في دلالات النصوص الشرعية ؛ ويجعلون دلالة السمع تبعا لدلالة العقل .
- يستدل المعتزلة بكل ما يوافق أصولهم الاعتقادية سواء أكان دليلا عقليا أو سمعيا وسواء أكان قطعي الثبوت أو غير ذلك ويخالفون بذلك ما قرروه في هذا الباب ؛ بل ربما قدموا ما هو شاذ من القراءات على ما هو متواتر ؛ إذا كان الشاذ موافقا للمذهب والمتواتر مخالفا له في الدلالة .
- ثبوت القراءة عند المعتزلة ليس شرطا لقبول دلالتها ؛ ودلالتها لا تقبل إلا إذا وافقت المذهب ولربما ردت القراءة المتواترة أو ضعفت في مقابل قراءة أخرى متواترة تدل للمذهب
- سلكت المعتزلة في رد دلالة القراءات القرآنية المتواترة عدة مسالك ؛ منها تأويل القراءة المتواترة وتحريف ما تدل عليه من معنى ؛ ومنها التصرف في العلامة الإعرابية للفظ الآية لتغيير أثرها ووظيفتها في أداء المعنى ليتواءم مع مسلماتهم في الاعتقاد ؛ ومنها توجيه القراءة إعرابيا بما

يتوافق ورؤيتهم الاعتزالية ؛ و موقف المعتزلة من دلالات القراءات القرآنية منهجا متبعا لديهم وليس مجرد خطأ أو اجتهاد

- أدى التعصب المذهبي ببعض المعتزلة إلى اختراع قراءة بمجرد الرأي والاجتهاد يؤيد بها مسلماته العقدية وإلى التطاول والجرأة على القرآن العظيم بالتغيير والتحريف لألفاظه الشريفة .
- يرى الأشعرية تواتر القراءات السبع، واختلفوا في الثلاث الزائدة على السبع وجمهورهم على تواترها.
- تأول الأشاعرة دلالة القراءات القرآنية إذا خالفت دلالة العقل المعتبرة لديهم .
- يزعم الروافض الإثني عشرية أن القرآن الكريم إنما أُنزل على حرف واحد .
- ذهب جمهور علماء الروافض الإثني عشرية إلى أن القراءات السبع غير متواترة فضلا عن العشر، وهذا الرأي يكاد يكون إجماعًا عند الروافض الإمامية. واختلاف القراءات وتغايرها عند من يرى هذا الرأي راجع إلى اجتهاد القراء وتوسعهم في القراءة، أو هو ثابت بطريق الآحاد.
- يرى جمهور الرافضة الإثنى عشرية جواز القراءة بالقراءات العشر إلى أن يظهر المهدي المنتظر، رغم جزمهم بعدم صحة هذه القراءات .
- اختلف الزيدية في القراءات السبع وكذا العشر، هل هي متواترة أم آحاد، على قولين ؛ القول الأول يرى أن القراءات السبع متواترة والقول الثاني يوافق أصحابه المعتزلة فيرون أن القراءات السبع آحاد.
- يتمثل موقف الروافض من القراءات الشاذة في مسألتين؛ الأولى

إيرادهم القراءات الشاذة والموضوعة للاحتجاج على عقيدتهم، ونسبت بعضها لآل البيت والثانية اتخاذ القراءات الشاذة الواردة في كتب أهل السنة مطعنا للطعن على أهل السنة، ونسبة القول بتحريف القرآن لأهل السنة.

- الرافضة من الشيعة والغلاة منهم لا يقيمون أي تعظيم لدلالة نصوص كتاب الله تعالى ولا لدلالة القراءات القرآنية فهم يرون أن القرآن حرف بالزيادة والنقصان ولم يعتبروه حجة .

المصادر والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر/ لشهاب الدين أحمد البنا/ بيروت/ دار الكتب العلمية/ ط١/ ١٤١٩هـ
- الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم جمعا ودراسة / محمد السيف / دار التدمرية/ الرياض / ط١/ ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- إتحاف الفقهاء في تحقيق مسألة اختلاف القراءات والقراء / للميرزا محسن آل عصفور/ مكتبة العزيزي / الأحساء / عام ١٤١٠هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / لمحمد الأمين الشنقيطي/ القاهرة / مكتبة ابن تيمية/ ١٤٠٨هـ.
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير/ بهامش الكشاف/ تحقيق: محمد قمحاوي/ مصر/ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي/ ط الأخيرة / ١٣٩٢هـ.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول / لمحمد بن علي الشوكاني/ بيروت/ دار المعرفة/ ١٣٩٩هـ.
- إعراب القراءات الشواذ / لأبي البقاء عبد الله العكبري/ تحقيق:محمد عزوز/ بيروت/ عالم الكتب/ ط١/ ١٤١٧هـ
- إعراب القرآن / لأبي جعفر النحاس/ تحقيق: زهير غازي/ بغداد / مطبعة العاني/ ١٣٩٧هـ.
- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات / لأبي البقاء العكبري/ بيروت/ دار الكتب العلمية/ ط١/ ١٣٩٩هـ.

- إعلام الخلف بمن قال بتحريف القرآن من السلف / لأبي عمر صادق العلائي / نسخة للكتاب محملة على موقع شبكة الشيعة العالمية.
- البحر المحيط / لأبي عبد الله محمد بن حيان الأندلسي/ الرياض/ مكتبة ومطابع النصر الحديثة/ ب.ت.
- البرهان في علوم القرآن / لبدر الدين الزركشي/ تحقيق: محمد أبو الفضل/ ط٢/ ١٤٠٠هـ.
- القراءات المتواترة في تفسير الزمخشري دراسة نقدية / لمحمد محمود الدومي / رسالة دكتوراة في تخصص التفسير وعلوم القرآن بجامعة اليرموك في الأردن.
- التبيان في تفسير القرآن / لأبي جعفر محمد الطوسي / تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي / ب.د.ت.
- أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة / لرسول جعفريان / مكتبة النافذة / مصر / ط١/ ٢٠٠٦م.
- بحوث في تاريخ القرآن وعلومه / لمير محمدي زرندي / الطبعة١ / ١٤٢٠ هـ / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.
- البيان في تفسير القرآن / لأبي القاسم الموسوي الخوئي/ دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت / لبنان / ب.ت.
- التفسير الصافي / للكاشاني / مكتبة الصدر / طهران / ط ٢ / ١٤١٦هـ.
- تفسير القرآن العظيم / لأبي الفداء إسماعيل بن كثير/ القاهرة/ مكتبة دار التراث/ ب.ت.

- المجموع شرح المهذب / للنووي / مطبعة المنيرية / ب.ط.ت.
- تفسير الميزان / للطباطبائي/ منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية / قم / ب.ت.ط،
- الحدائق الناضرة / للبحراني / تحقيق: محمد تقى الإيراواني / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري/ مصر/ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/ ط٢/ ١٣٨٨هـ.
- الجامع لأحكام القرآن / لأبي عبد الله محمد القرطبي/ القاهرة/ دار الكتاب العربي/ ١٣٨٧هـ.
- الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد / لأبي علي الفارسي/ تحقيق:بدرالدين قهوجي،وبشير جويجاتي/ بيروت / دار المأمون للتراث / ط١/ ١٤١١هـ.
- حجة القراءات / لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة / تحقيق: سعيد الأفغاني/ بيروت / مؤسسة الرسالة/ ط٣/ ١٤٠٢هـ.
- السبعة في القراءات / لأبي بكر أحمد بن مجاهد / تحقيق: شوقي ضيف/ القاهرة / دار المعارف/ ط٢/ ١٤٠٠هـ.
- الكاشف لذوي العقول عن وجوه معاني الكافل بنيل السؤول / لأحمد بن محمد لقمان / تحقيق: المرتضى بن زيد المحطوري الحسني / مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر / الطبعة٢ / ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- شرح الأصول الخمسة/ عبدالجبار بن أحمد / ت:عبد الكريم

عثمان/ مكتبة وهبة / القاهرة/ ط٢/ ١٤٠٨ه- ١٩٨٨م.

- شرح العقيدة الطحاوية / لعلي بن أبي العز الحنفي/ تحقيق: عبد الله التركي، وشعيب الأرنؤوط/ بيروت/ مؤسسة الرسالة / ط١/ ١٤٠٨هـ.
- شرح الهداية / لأبي العباس أحمد المهدوي/ تحقيق: حازم حيدر/ الرياض/ مكتبة الرشد/ ط١/ ١٤١٦هـ.
- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضا ونقدا/ سليمان الغصن/ دار العاصمة / الرياض/ ط١/ ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- حاشية العطار على جمع الجوامع / للسبكي / دار الفكر للطباعة والنشر/ ب.ت.
- البحر المحيط في أصول الفقة للزركشي / تحقيق:محمد تامر / دار الكتب العلمية/ بيروت / ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- التحبير شرح التحرير في أصول الفقة / لأبي الحسن على المردادي الحنبلي/ تحقيق: عبد الرحمن الجبرين وآخرون / مكتبة الرشد / الرياض/ ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- علل القراءات / لأبي منصور محمد الأزهري/ تحقيق: نوال الحلوة/ ط١ / ١٤١٢هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوايل في وجود التأويل/ لمحمود الزمخشري/ تحقيق: محمد قمحاوي/ مصر/ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي/ ط الأخيرة / ١٣٩٢هـ.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها / مكي بن أبي

طالب/ تحقيق: محي الدين رمضان/ دمشق/ مطبوعات مجمع اللغة العربية/ ١٣٩٤هـ.
- اللباب في علوم الكتاب / لأبي حفص عمر بن عادل الحنبلي/ تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين/ بيروت/ دار الكتب العلمية/ ط١/ ١٤١٩هـ.
- لطائف الإشارات في فنون القراءات/ لشهاب الدين القسطلاني/ تحقيق: عامر عثمان،عبد الصبو شاهين/ القاهرة / المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية/ ١٣٩٢هـ.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها/ لعثمان بن جني/ تحقيق: علي النجدي وآخرين/ دار سزكين/ ط٢/ ١٤٠٦هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / لعبد الحق بن عطية/ تحقيق: المجلس العلمي بفاس/ المغرب/ مطابع الفضالة/ ب.ت.
- الشيعة والسنة / إحسان إلهي ظهير/ إدارة ترجمان السنة/ باكستان/ ط٣/ ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- شرح الكوكب المنير / للفتوحي/ مطبعة السنة المحمدية / ب.ت.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية / ابن تيمية/ ت:محمد سالم/ ط٢/ ١٤١١ه-١٩٩١م / إدارة الثقافة والنشر/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- القرآن الكريم ومنزلته بين السلف ومخالفيهم دراسة عقدية / محمد طاهري / دار التوحيد / الرياض/ ط١/ ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.
- درء تعارض العقل والنقل/ ابن تيمية/ ت:محمد سالم / ط٢/ ١٤١١هـ

-١٩٩١م/ إدارة الثقافة والنشر/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- المواقف في علم الكلام/ الإيجي/ دار عالم الكتب/ بيروت.
- كتاب المحصل / فخر الدين الرازي/ ت:حسين أتاي/ مكتبة دار التراث/ القاهرة/ ط١/ ١٤١١ه-١٩٩١م .
- المعجزة وكرامات الأولياء/ ابن تيمية/ ت: مصطفى عطا/ دار الكتب العلمية / بيروت/ ط١/ ١٤٠٥ه-١٩٨٥م.
- أساس التقديس في علم الكلام / فخر الدين الرارزي/ مؤسسة الكتب الثقافية/ بيروت/ ط١/ ١٤١٥ه-١٩٩٥م.
- مع الإثني عشرية في الأصول والفروع / لعلي أحمد السالوس وآخرين/ دار الفضيلة بالرياض / الطبعة ٧ / ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل / ابن القيم/ ت: عمر الحفيان/ مكتبة العبيكان/ الرياض / ط١/ ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.
- نقض المنطق / ابن تيمية / ت محمد حمزة – سليمان الصنيع / مكتبة السنة المحمدية / القاهرة .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية / جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد / دار عالم الكتب – الرياض / ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .
- المختصر في أصول الدين ضمن رسائل العدل والتوحيد / القاضي عبد الجبار بن أحمد / ت محمد عمارة / دار الشروق – القاهرة / ط٢ – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م .
- جوهرة التوحيد / البيجوري / دار الكتب العلمية – بيروت /

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد / الجويني / تحقيق أسعد تميم/ مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت / ط١ – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- قواعد العقائد / أبو حامد الغزالي / ت موسى محمد علي / عالم الكتب – بيروت / ط٢ – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- التسعينية/ ابن تيمية / ت محمد العجلان / مكتبة المعارف – الرياض/ ط١ – ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- جامع المسائل / ابن تيمية / ت محمد شمس / دار عالم الفوائد – مكة المكرمة / ط١ – ١٤٢٢هـ .
- الآثار السلوكية لمعاني أسماء الله الحسنى / رياض أدهمي / المكتب الإسلامي –بيروت / ط١-١٤٢٠ه-١٩٩٩م .
- أسماء الله الحسنى / حسنين مخلوف / دار المعارف.
- المفردات في غريب القرآن / الراغب الأصفهاني / ت محمد الكيلاني/ دار المعرفة – بيروت .
- اجتماع الجيوش الإسلامية / ابن القيم / مكتبة الرشد – الرياض / ط٣ – ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب / ابن قيم الجوزية / ت بشير عيون/ مكتبة المؤيد – بيروت / ط٢-١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- بحار الأنوار / للمجلسي / مؤسسة الوفاء / بيروت / ط٢ / ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية / ابن تيمية / ت

سليمان الغفيص / مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – ١٤٢٦هـ .

- الشيعة وتحريف القرآن / لمحمد مال الله / دار الوعي الإسلامي / بيروت / ١٤٠٢هـ.
- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد / شرح محمد صالح / ت أشرف عبد المقصود / مكتبة طبرية / ط٣-١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- منهج الأشاعرة في العقيدة / سفر الحوالي / الدار السلفية / الكويت ط١ / ١٤٠٧ه-١٩٨٦م.
- بدائع الفوائد / ابن القيم / ت محمد الزغلي / دار المعالي – عمان / ط١ – ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- الملل والنحل / الشهرستاني / ت أمير مهنا – علي فاعور / دار المعرفة – بيروت / ط٦ – ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين / أبو الحسن الأشعري / ت محمد عبد الحميد / المكتبة العصرية – بيروت / ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
- معالم التنزيل / لأبي محمد البغوي/ تحقيق: خالد العك ومروان سوار/ بيروت/ دار المعرفة/ ط٢/ ١٤٠٧هـ.
- معاني القرآن / للأخفش/ تحقيق: عبد الأمير أمين/ بيروت/ عالم الكتب/ ط١/ ١٤٠٥هـ.
- معاني القرآن/ لأبي زكريا الفراء/ بيروت/ عالم الكتب/ ط٢/ ١٩٨٠م.
- معاني القرآن وإعرابه/ لأبي إسحاق الزجاج/ تحقيق: عبد الجليل

شلبي/ بيروت / عالم الكتب/ ط١/ ١٤٠٨هـ.

- معجم مقاييس اللغة / لأبي الحسين ابن فارس/ تحقيق: عبد السلام هارون/ لإيران / دار الكتب العلمية/ ب.ت.
- مفاتيح الغيب / لفخر الدين الرازي/ طهران/ دار الكتب العلمية/ ط٢/ ب.ت.
- الموضح في وجوه القراءات وعللها/ لابن أبي مريم الشيرازي/ تحقيق:عمر الكبيسي/ جدة/ الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم/ ط١/ ١٤١٤هـ.
- المختار في معاني قراءات أهل الأمصار/ لأبي بكر بن إدريس/ تحقيق:عبد العزيز الجهني/ الرياض / مكتبة الرشد/ ط١/ ١٤٢٨هـ
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع / أبو الحسن الملطي / المكتبة الأزهرية / ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- التبصير في الدين والتفريق بين الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين / الإسفرائيني / المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة / ط١ – ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .
- نشأة الأشعرية وتطورها / جلال موسى / دار الكتاب اللبناني – بيروت / ط١ – ١٣٩٥هـ .
- موقف ابن تيمية من الأشاعرة / عبد الرحمن الحمود / مكتبة الرشد – الرياض / ط٢ – ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م
- الانتصار والرد على ابن الراوندي / الخياط / مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة .

- الإيمان بالقرآن الكريم ومواقف الناس منه دراسة عقدية / أحمد عاكش/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ١٤٢٣هـ ١٤٢٤هـ .
- المحرر الوجيز .
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار/ لمحمد بن علي الشوكاني / دار الحديث / ط١/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- الفرق بين الفرق / عبد القاهر البغدادي / إبراهيم رمضان / دار المعرفة – بيروت .
- المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها / عواد المعتق / مكتبة الرشد – الرياض / ط٢ / ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى / محمد العثيمين / دار طيبة – الرياض .
- مشكل إعراب القرآن/ لمكي بن أبي طالب/ تحقيق: ياسين السواس/ دمشق/ دار المأمون للتراث/ ب.ت.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم / أبي القاسم اللالكائي / ت: أحمد الغامدي / دار طيبة – الرياض / ط٤-١٤١٦ه -١٩٩٥م
- الحسنة والسيئة / ابن تيمية / تحقيق:عادل شوشة / مكتبة فياض- المنصورة / ط١٤٢٨ه-٢٠٠٧م .
- مصباح الفقيه / لآقا رضا الهمداني/ مكتبة النجاح / طهران / ب. ن.ت.